الأدب العربي وتاريخه

في

عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث

بقلم

محمود رزق سليم

الاستاذ المساعد فى كلية اللغة العربية

١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧ م

مطابع دار الكتاب العربي بمصر

مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين . وبعد فهذه مجالات وجيزة تعرض الأدب العربي وتاريخه فى عصر المماليك والعثمانيين وعصر النهضة الحديثة فى مصر والشام .

وهى مع إيجازها واضحة دقيقة مركزة ، أردت بها معاونة طلاب الأدب على استيعاب موضوعاته فى العصور المذكورة فى سهولة ويسر وسرعة ، مع الإشارة إلى مشاكله وفتح الطريق أمامهم للبحث عنها واستكمال دراستها . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

المؤلف

التعريف بعصر المماليك

حكم المماليك البلاد المصرية من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ . وقد أقاموا دولتهم على أنقاض الأيوبيين ، واستمروا فى الحكم إلى أن فتح العثمانيون هذه البلاد .

وقد كانت أسواق الرقيق نافقة فى العصور الوسطى بين بلاد أواسط آسيا وغربها ، بسبب ما انتابها من ألوان النزاع وضروب الفتن والدمار ، وما شب فيها من حروب الصليبيين والتتار والعثمانيين وغيرهم .

وكانت أمواج هذه الحروب تطغى ذهاباً وإياباً فى البلاد المذكورة ، فاستحر القتل وزاد الترمل واليتم ، وضاعت معالم أسر ، وتقوضت دعائم أخلاق .

فعاون كل هذا على رواج أسواق الرقيق من أجناس شتى ، وبخاصة الجنس التركى والجركسى وما إليهما ، فاشتد فيهم الجلب والبيع والشراء .

وكان الملك الصالح نجم الدين الأيوبى — من أواخر سلاطين الدولة الأيوبية فى مصر — قد رأى أن يبتاع لنفسه عدداً من هؤلاء الإرقاء ، فاستكثر من شرائهم ونشأهم تنشئة عسكرية وأسكنهم جزيرة الروضة فسموا « المماليك البحرية » .

واتخذ منهم الملك الصالح خاصة جنده ، ورقى أكابرهم إلى مناصب الإمارة — قيادة الجند — فصار ذلك نظاماً متبعاً من بعده .

واشتهر منهم فارس الدين أقطاى ، وعز الدين بن أيبك الجاشنكير ، وركن الدين بيبرس ، وسيف الدين قلاوون . وارتقى بعض هؤلاء فيما بعد ، إلى مرتبة السلطنة .

وقد عاون هؤلاء المماليك وأمراؤهم فى حروب مصر وفى قتال الصليبيين ، معاونة كبرى ودفعوهم عن الديار المصرية .

وبعد وفاة الملك الصالح ، جلس على عرشه ابنه المعظم توران شاه . ولكن وقع بينه وبين مماليك أبيه خلاف شديد أدى إلى قتله وإلى إقامة زوجة أبيه « شجرة الدر » ملكة على البلاد مكانه .

وبعد قليل تزوجت «شجرة الدر» أحد كبار المماليك وهو الأمير « عز الدين ابن أيبك الجاشنكير » وتنازلت له عن السلطنة ، فاستبد بها وأصبح ملكاً على البلاد وذلك عام ٦٤٨ هـ ، وبهذا انتقل حكم مصر من الأيوبيين إلى مماليكهم .

وظلت سلطنة مصر فى يد هؤلاء المماليك ، حتى فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ — كما أشرنا — وكانوا كلما خلا عرش البلاد من سلطانها اشتور كبار الأمراء واختاروا من بينهم أميرا لولاية السلطنة ، وقد يكون هذا ابناً للسلطان السابق .

وبرز منهم فى السلطنة ملوك أجلاء اشتهروا فى ميدان الحرب أو السياسة أو الإصلاح ، مثل بيبرس وقلاوون والناصر محمد وبرقوق وقايتباى .

ويقسم المؤرخون هذه الدولة دولتين: البحرية والجركسية ،وتبدأ الجركيسة من عصر الظاهر برقوق عام ٧٨٤ هـ . ولا أرى داعياً إلى هذا التقسيم سوى الاختلاف فى الجنس ، فإن أكثر سلاطين الدولة الأولى من الأتراك ، وأكثر سلاطين الدولة الثانية من الجركس ، وفيما عدا ذلك تتشابهان إلى حد كبير فى نظام الملك ووظائف الدولة والإدارة واختصاصاتها وطرق القضاء والتعليم وتكوين الجيش وفرض الإقطاع ، إلى غير ذلك .

وظل المماليك يتجددون ويتكاثرون عن طريق الشراء من الخارج ، كما كان الشأن فى أول نشأتهم . وأخذ سلاطينهم وأمراؤهم يستكثرون من شراء الجدد ويربونهم تربية عسكرية خاصة تؤهلهم للجندية والحروب والحكم .

وعاشوا جميعاً فى غالب أمرهم، طبقة حاكمة مستبدة مترفعة عن الشعب .وشاب حكمهم مساوىء كثيرة منها كثرة الفتن والحروب الداخلية ، والإسراف فى مال الشعب وإرهاقه بالضرائب الفادحة ،وامتلاك أرضه الزراعية دون أبنائه وفرض

نظام الإقطاع وتحريم الجندية على الشعب وحرمانه الإصلاحات الحيوية الضرورية له ، إلى غير ذلك .

إلا أن لهم بجانب ذلك ، حسنات يذكرها لهم التاريخ ، فهم فى جملتهم كانوا ذوى حماسة للإسلام ذادة عن المسلمين وعن بلادهم ضد المعتدين عليهم من التتار والصليبيين ، كما أنهم غزوا باسم مصر وملكوا البلاد المجاورة لها ورفعوا علمها فوق ربوعها ، حتى كانت سلطنة مصر فى عهدهم إمبراطورية واسعة الأرجاء عظيمة الشأن ، مهيبة ، ضمت البلاد الشامية والحلبية والحجازية وغيرها . وكذلك من محاسنهم أنهم تركوا مناصب القضاء فى منازعات الشعب لقضاة الشرع غالبا ، وفتحوا كثيراً من المساجد للعبادة والتعليم ، وعاونوا على بعث علوم الدين ، ورحبوا بالوافدين إلى مصر من أبناء الأمم الإسلامية للعلم أو التجارة أو غير ذلك — وسنشير إلى ذلك بشيء من التفصيل - كما كان كثير منهم سخى اليد براً معيناً على نوائب المعروف .

ونحاول أن ننوه فيما يلى بما كان فى مصر خلال حكمهم من نشاط علمى وأدبى .

بين بغداد والقاهرة

اتخذ بنو العباس مدينة بغداد عاصمة لملكهم العظيم فصارت مركزاً للعلوم والآداب الإسلامية ، واتجهت إليها العيون فى شتى ممالك المسلمين ، ونشط فيها العلماء والأدباء وأهل الفن والصناعة والمترجمون والمؤلفون ، حتى أصبحت دارة العلم وهالة الأدب وملتقى الثقافات ، ولونت حضارتها آداب الأمصار الإسلامية الأخرى بألوانها إلى حد كبير .

وظل ذلك زمناً طويلا حتى ضعف بنو العباس ، وانشق عن سلطان بغداد كثير من عواصم الأوطان التابعة ، وأخذت تتعدد مراكز الآداب الإسلامية ، وأنشئت مدينة القاهرة فى عهد الفاطميين ، فاحتلت مركزها عاصمة بين عواصم المسلمين ، وبدت مركزاً جديداً هاما من مراكز هذه الآداب .

ولبثت بغداد مع هذا ، أحد هذه المراكز الكبرى ، حتى قضى عليها التتار وأزالوا دولة العباسيين جملة عام ٦٥٦ ﻫ .

قبل ذلك ببضع سنوات ، كانت سلطنة مصر قد انتقلت إلى أمراء المماليك — كما نوهنا — فتزعم المماليك العالم الإسلامى بعد سقوط بغداد وزوال العباسيين ، ومن ثم أصبحت القاهرة أهم مراكز العلوم والآداب الإسلامية على الإطلاق ، وزاد نشاطها وصار لها فى عهد المماليك من الأهمية العلمية ما كان لبغداد فى عهد العباسيين ، وأخذت تلون بألوان حضارتها آداب الأمصار الإسلامية الأخرى ، ولو إلى حد ، وشاركها فى ذلك جملة من العواصم المصرية كالإسكندرية ودمياط وأسيوط وقوص .

أسباب النشاط العلمى

نشطت الحركة العلمية فى القاهرة وعمت المدن المصرية الأخرى ، وامتدت حتى شملت كثيراً من العواصم الإسلامية كدمشق وحلب ، وفيما يلى أهم الأسباب التى أدت إلى ذلك :

١ — وقوع كثير من البلاد الإسلامية فى يد التتار:

التتار من الجنس المغولى الذى يسكن الأطراف الشمالية لبلاد الصين . وقد كان التتار بداة جهلاء وثنيين ، وكانوا متفرقين فى صحراوات الصين حتى وحدهم ملكهم جنكيزخان وزحف بهم منذ عام ٦٠٦ ﻫ على أواسط آسيا وغربها ، فقتلوا مالا يحصى من المسلمين . وما زال سيلهم طاغيا بعد جنكيزخان حتى احتلوا مدينة بغداد عام ٦٥٦ ﻫ بقيادة ملكهم هولاكو . فقتلوا آلافا من أهلها وأعيانها وأزالوا خلافتها ، فضعفت بذلك شوكة العرب والمسلمين ، فتطلعوا إلى حماة جدد يدافعون عنهم ويدرءون أعداءهم بعيداً عن ديارهم ، فلم يكن هناك أقوى من سلاطين مصر المماليك ، الذين نصبوا أنفسهم ذادة عن الدين وحماة للمسلمين ، شاعرين أن الأقدار حملتهم أمانة الدفاع عن تراث الإسلام .

٢ — قتل العلماء والأدباء وإتلاف الكتب :

تتبع التتار — فيما تتبعوا — علماء بغداد قتلا ، وكتب حضارتها إبادة وإتلافا ، وذلك أثناء الفتح . ولقد قيل إن هولاكو قتل علماء بغداد ومنهم محيي الدين بن الجوزى وأولاده ، وأمر بإلقاء جميع الكتب التى فى دور الخلفاء فى نهر دجلة ، فأضاع بذلك على الدين واللغة ذخائر لاتعوض . فكان لهذه الكوارث آثارها فى نفوس علماء الأمة ، ورد فعل شديد دعاهم إلى النهوض لإحياء هذا التراث العلمى المجيد وتجديده .

٣ — هجرة العلماء :

ولما اشتد عبث التتار فى العراق وبغداد وغيرهما فر كثير من العلماء من وجههم ، ولم يجدوا أمامهم أرحب من مصر والشام صدراً ، فوفدوا إليهما ، فوجدوا فيهما ترحيباً وأهلا بأهل ، سواء أكان ذلك من الحاكمين أم من أبناء الشعب . وقد أغرى ذلك كثيرا من العلماء فى الأصقاع الأخرى ، فوفدوا هم كذلك إلى مصر والشام حيث الآمن والسكينة والكنف الرحب . فاشتغلوا بالقضاء أو الإمامة أو الكتابة أو التعليم أو نحو ذلك . وعاونوا هم والمتوطنون من العلماء على تعليم الناشئة وإنضاجها وتحميلها أمانة العلم من بعد .

واطرد وفود العلماء إلى مصر والشام طول عصر المماليك ، وأصبح الترحيب بهم سنة متبعة بدافع الأخوة الإسلامية الصادقة .

وممن وفد إلى مصر : ابن خلكان الإربلى المؤرخ صاحب وفيات الأعيان وابن مالك النحوى الأندلسى صاحب الألفية والتسهيل ، وابن خلدون المغربى صاحب كتاب العبر ومقدمته الشهيرة ، وابن تيمية الحرانى الإمام المجتهد صاحب الفتاوى ، وابن منظور الإفريقى صاحب لسان العرب .

٤ — إحياء الخلافة :

ولما استتب أمر السلطنة للظاهر بيبرس ، رأى أن يقيم خلافة عباسية ثانية بالديار المصرية فاستقدم أحد أمراء بنى العباس وأثبت نسبه وبايعه بالخلافة ومعه قضاة الشرع وأمراء الدولة فى حفل عظيم . ومن ثم استمد هو منه السلطنة .

واستمرت الخلافة قائمة بمصر موروثة فى البيت العباسى حتى عام ٩٢٣ ﻫ إذ زالت على يد العثمانيين الذين أرغموا آخر الخلفاء على التنازل عنها لسلطانهم سليم الأول ، ونقلوها إلى عاصمة ملكهم .

والخلافة العباسية الثانية ، وإن كانت هزيلة ضئيلة الجاه بجانب سلطان البلاد ، تعتبر كسبا أدبيا كبيراً لمصر ، ورمزا روحيا قويا اتجهت إليه قلوب المسلمين

شرقا وغربا ، وذلك مما عاون على جعل القاهرة قلبا للعالم الإسلامى ، ومركزا للعلوم والآداب الإسلامية ، كما كان دافعاً لحكام مصر على تشجيع علماء الدين .

٥ — الغيرة الدينية عند الحكام وتعظيمهم العلماء :

وقد كان حكام البلاد ، فى جملتهم ، شديدى العصبية لدينهم ، عظيمى الغيرة على مصالح المسلمين . ولذلك كافحوا الصليبيين وهزموهم مراراً ، وكافحوا التتار وصدوا تيارهم عن البلاد .

ودفعتهم غيرتهم أيضا إلى تعظيم العلماء ورعايتهم ، واستشارتهم فى أمورهم العليا ، واختيار أصلحهم لولاية القضاء والتعليم ونحوهما .

على أن سطوة علماء الدين حينذاك كانت واسعة ، ولهم جاه عند العامة عريض ، لما كانوا يتصفون به من غزارة علم ورجاحة عقل وسلامة قلب وإيمان شديد ، وزهادة فى الدنيا ، وتعصب للحق ، وجرأة على الباطل . فلعل هذه السطوة كانت أحد الأسباب التى دعت الحكام إلى تعظيمهم . ولقد كان السلطان الظاهر بيبرس يخشى الشيخ عز الدين عبد السلام ، فلما مات الشيخ قال الظاهر : « ما استقر ملكى إلا الآن » .

ولا يخفى مالهذا التعظيم وهذه العناية من أثر كبير فى شحذهم العلماء ودفعهم إلى النشاط العلمى النافع للاحتفاظ بمكانتهم وجاههم .

٦ — شعور العلماء بواجبهم :

وقد شعر العلماء بواجبهم وبالأمانة الثقيلة الملقاة على كاهلهم إثر سقوط بغداد وكارثة الدين والعلم بها ، وإثر ما أصيبت به دول المسلمين شرقا وغربا على يد الفرنجة . فأغذوا السير ، بل وتنافسوا فى ميدان التعليم والتأليف ، فقاموا بذلك ، بحركة إحياء علمية جليلة الشأن . وازدان كثير منهم بالعلم الغزير ، والزهد فى الدنيا ، والغضب للحق ، والغيرة على مصالح الأمة ، وبهذا اكتسبوا مكانة ملحوظة بين أبنائها ، ونفوذا ضخما بين طبقاتها .

وبلغ بعضهم حد الاجتهاد والقدرة على التجديد والابتكار فى ميدانه ،

ونذكر منهم العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد القشيرى ، وتقى الدين السبكى ، وابن تيمية الحرانى ، وابن حجر العسقلانى ، والجلال السيوطى ، وزكريا الأنصارى .

٧ — إنشاء دور التعليم ورصد الأوقاف عليها :

لا شك أن إنشاء دور التعليم سبب أساسى وعامل جوهرى لنشر العلم والأدب بين طبقات الأمة . وهى البيئة الطبيعية الأولى للمشتغلين بالعلوم والآداب طلابا وأساتذة .

وقد بدأ عصر المماليك ، وفى مصر عدد لا بأس به من هذه الدور ، منها جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله ، ومدارس أخرى عدة أسسها الأيوبيون فى مدينة القاهرة كالمدرسة الصلاحية ، والمدرسة الناصرية . وكلها كانت عامرة بالدراسات المختلفة .

وقد شمر سلاطين المماليك وأمراؤهم وبعض أهل الفضل عن ساعد الجد ، على مدى العصر ، وأنشئوا عدداً ضخما من دور التعليم فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية والشامية . وبلغ ما أنشئوه فى القاهرة وحدها نحواً من أربعين مدرسة ، وأوقفوا عليها الأوقاف الدارة التى تهيء لها أسباب الحياة والاستمرار فى أداء رسالتها .

وقد تباروا فى إنشاء هذه المدارس تقربا إلى الله ورعاية للشعب أو مظهراً من مظاهر الفخر أو وسيلة لاستبقاء بعض أموالهم فى يد ذراريهم عن طريق الوقف على هذه المدارس واشتراط النظر لذريتهم .

واعتادوا أن يفتتحوا هذه المدارس بحفلات شائقة تلقى فيها الخطب والقصائد وتمد الأطعمة أو تفرق الأشربة ، أو نحو ذلك ، ويختارون للتدريس فيها أبرع العلماء وأفضل الشيوخ .

ومن هذه المدارس : المدرسة الظاهرية التى أسسها الملك الظاهر بيبرس بالقاهرة عام ٦٦٢ هـ ، والمدرسة المنصورية التى أنشأها المنصور قلاوون .

والناصرية التى أنشأها العادل كتبغا وأكملها الناصر محمد بن قلاوون . ومدرسة السلطان حسن ، والمؤيدية « جامع المؤيد» . وغير ذلك مما يراه المتجول فى أرجاء القاهرة .

ومن أهم هذه الدور التعليمية الجيدة : المارستان المنصورى ، وهو بناء ضخم فسيح ، بناه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ بخط بين القصرين . ويحتوى على مستشفى للمرضى ومدرسة للطب . ويعتبر من أعظم الأعمال التى خلدت ذكر قلاوون . وندر أن يوجد له نظير فى تلك العصور الخالية . وكان ينقسم عدة أقسام : فيه قسم للحميات ، وآخر للرمد ، وآخر للجراحة ، وآخر للأمراض النسوية ، وآخر للإسهال . وقد جهز بصيدلية عظيمة تحتوى على أنواع الأدوية والعلاج ، وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة وموظفين ، وهيئت به قاعة تلقى بها دروس الطب على الطلاب ، وضمت إليه خزانة كتب جليلة الشأن . وكان العلاج والتعليم فيه بالمجان ، كما كان الشأن فى جميع دور التعليم الأخرى .

وبهذه المناسبة نذكر أنه لم تكن هناك سياسة تعليمية عليا مرسومة تشرف عليها الحكومات وتقوم بتنفيذها متكاملة — كما هو الشأن فى العصر الحديث — ولهذا كانت الأوقاف هى الوسيلة الوحيدة أو الأساسية لضمان استمرار دور التعليم مفتوحة الأبواب عامرة بطلابها وشيوخها . وكثيراً ما كانوا يغالون فى هذه الأوقاف ويبالغون فى بذلها ، كما كانوا يبذلون بين وقت وآخر ألواناً من الهبات والعطايا والصدقات للطلاب والشيوخ .

٨ — إنشاء دور الكتب :

وقد عنوا عناية ملحوظة بإنشاء دور الكتب وتزويد دور التعليم بها وحشد المؤلفات النفيسة فيها ، رغبة منهم فى معاونة علمائها وطلابها فى جهادهم العلمى النبيل ، وقل أن تجد مؤسسة تعليمية حينذاك خالية من مكتبة زاخرة . وإذا لاحظت أن الكتب — لهذا العهد — كانت خطية ونادرة وقليلة النسخ ومتفرقة فى شتى النواحى وغالية الثمن ، قدرت ما كانوا يبذلونه فى سبيل جمعها من جهد ومال .

ومن أشهر خزائن الكتب : خزانة جامع الحاكم بأمر الله زوده بها السلطان العادل بيبرس عام ٧٠٣ هـ ، وخزانة جامع المؤيد زوده بها منشئ الجامع وهو الملك المؤيد شيخ عام ٨١٩ هـ ، وخزانة القبة المنصورية وأنشأها المنصور قلاوون .

هذا عدا ما كان يقتنيه بعض كرام الأمراء والعلماء من مكتبات خاصة ، فقد روى ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور » بين حوادث عام ٨٨٨ هـ أن القاضى نجم الدين يحي بن حجى ، كان عالما فاضلا ، ولما مات فى العام المذكور وجد عنده خزانة كتب بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة .

٩ — اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية :

وهذا من أهم الأسباب التى استبقت اللغة العربية حية متداولة ، بل نابضة نامية تؤدى حاجة الدولة وحاجة الناس فى شتى الميادين .

وقد كان حكام البلاد أعاجم عن العربية ، فهم بفطرتهم لا يغارون عليها ولا يعطفون على أهلها ولا يشجعون علومها وآدابها . ولكن الظروف القاهرة التى كانت تحيط بهم دفعتهم إلى العناية بها وتشجيع أهلها ، ذلك لأن لغتهم التركية كانت إلى ذلك الحين قاصرة عاجزة عن أن تؤدى حاجة الدولة ودواوينها المختلفة ، وتقوم بشئون القضاء والفتوى والتعليم وما إلى ذلك . بينما كانت العربية مطوعة ممرنة على ذلك منذ أمد بعيد ، هذا فضلا عن أنهم كانوا يحكمون شعوبا عربية ولا يمكن أن يتم التفاهم بينهم إلا بلغتهم ، لهذا اتخذوا العربية لغة رسمية فى دواوين الدولة ، واستخدموا فى هذه الدواوين عددا من « المتعممين » متخرجى المساجد لمزاولة المكاتبات العربية التى تحتاج إليها الدولة . وكان ألمع دواوينها حينذاك « ديوان الإنشاء » الذى اختص بالمكاتبات الديوانية العليا ، وكان يختار للعمل فيه أبرع أهل اللغة والأدب والكتابة .

وقد كان ذلك كله سببا فى رواج العربية ، وفى رواج الفصحى داخل الدواوين ، وبخاصة فى كتابة المراسلات والوثائق العليا ، وسببا فى ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء .

نتائج هذا النشاط

من أهم نتائج هذا النشاط العلمى ثلاثة أمور :

أولا : اتساع حركة التعليم :

كان تأسيس المدارس ورصد الأوقاف عليها والعناية باختيار شيوخها ، وبذل المعونات لطلابها وإجراء الأرزاق عليهم ، سبباً قوياً فى اتساع حركة التعليم وإقبال الشيوخ والطلاب على العمل بهمة ونشاط . فراجت سوق التعليم ووفد الطلاب إلى المساجد زمراً من كل فج من مصر وغيرها من البلاد الإسلامية — كما هو الشأن فى وقتنا الحاضر — حتى ضاقت بعض دور التعليم بطلابها .

وقد روى المقريزى عن الجامع الأزهر : « أنه حتى عام ٨١٨ هـ كان به عدد كبير من الفقراء المنقطعين لطلب العلم يبلغ عددهم ٧٥٠ رجلا ، وهم ما بين عجم وزيالعة ، ومن أهل ريف مصر ، ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم . وأنه كان عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر . وأن الداخل إليه يجد من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده فى غيره ، وأن أرباب الأموال صاروا يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز ، والحلاوات لا سيما فى المواسم » .

هذا ، ومن المناسب هنا أن نتحدث قليلا عن أنواع التعليم فقد كان بالبلاد نوعان :

١ — التعليم العسكرى : وقد كان مقصوراً على طائفة المماليك محرما على أبناء الشعب . وكان من عادة السلاطين أن يستوردوا المماليك الجدد من أسواق الرقيق ، ويدفعوهم إلى طباق القلعة حيث يعلمون تعليماً عسكرياً خاصاً يؤهلهم

لخوض غمار الحروب والمحافظة على الدولة . ومن ينبغ منهم يعتق ويمنح إقطاعاً ومالا وخيلا وقماشاً ويعطى لقبا من ألقاب الأمارة. ثم قد يترقى صعداً — حسب كفايته وحيلته — فى سلك الإمارة حتى يصير أميراً كبيراً وقد يدفع به حظه إلى مرتبة السلطنة .

٢ — التعليم الشعبي : وهو مباح لطبقات الشعب بالمجان . ومكانه المساجد وهي دور التعليم فى ذلك العهد وكان تعليما حراً غير مقيد ، وكان الطالب توجهه رغبته الخاصة إلى تنظيم جدول دروسه واختيار شيوخه والتنقل من مسجد إلى آخر طلبا للعلم .

والدراسة فى المساجد تعتبر دراسة عالية ، تسبقها مرحلتان يمر بهما الطالب عادة — والمرحلة الأولى مرحلة « الكتاتيب » وقد كانت منتشرة فى أرجاء البلاد ، ويتعلم الصبيان فيها مبادىء القراءة والكتابة ، ويحفظون القرآن الكريم — والمرحلة الثانية مرحلة حفظ الكتب . وفيها ينكب الطالب بنفسه على عدة كتب مختارة فى علوم شتى ، يحفظها عن ظهر قلب ، تمهيدا للمرحلة العالية. وفيها يبذل الطالب جهداً كبيراً فى حفظ الكتب حفظاً جيداً ويمتحنه شيوخه فيما بعد ، فيما حفظ ، ويمنحه كل شيخ إجازة بنجاحه تسمى «إجازة العراضة » . — وبعد ذلك يلتحق بالمساجد ويتصل بكبار الشيوخ ويأخذ عنهم العلم ، وقد ينتقل من مكان إلى آخر ، بل من مصر إلى غيره طلبا للشيوخ — وبخاصة شيوخ الحديث — وقد يلازم شيخا أو أكثر ، ملازمة الظل ، ليستوعب أكثر ما عنده من العلم . فإذا نضج الطالب من الناحية العلمية اختبره أستاذه ، فإذا نجح منحه إجازة بالفتوى أو التدريس أو نحوهما .

والدروس المقرره حينذاك ، المتعارف تدريسها فى المساجد كانت — فيما عدا حفظ القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة — طائفة غير محدودة من كتب الفقه والاصول والحديث والتفسير والمنطق والقراءات واللغة ، تحفظ ويجرى شرحها فى حلقات الدرس .

وكانت كتب الدين ودروسه هي المفضلة عند المتعلمين بعامة ، ويليها كتب اللغة والأدب ودروسهما ، ثم يلي ذلك كتب العلوم الأخرى ودروسها .

وكانت أهم كتب الدين : كتب الفقه ومذاهبه الأربعة ، وكتب الحديث ومصطلحه وتاريخ رجاله .

ومن أمثلة الكتب التي سعدت بالعناية والرواج في ذلك الحين ، حفظاً ودراسة : المنهاج الأصلي لمحيي الدين النووي ، والشاطبيتان في القراءات ، ومختصر القدوري في الفقه ، والعمدة للحافظ النسفي في الأصول ، والكافية لابن الحاجب في العربية ، وتلخيص المفتاح في البلاغة للقزويني ، والكنز في فقه الحنفية ، وألفية ابن مالك في النحو ، وفصيح ثعلب في اللغة ، وإيساغوجي في المنطق .

ثانياً : كثرة العلماء والأدباء :

زخر العصر ، نتيجة لذلك ، بعدد وافر من علماء المذاهب الأربعة ، وبخاصة المذهب الشافعي ، لا يقلون عن أسلافهم ذكاء وفطنة ، ولا إدراكا لمسائل المذهب وإحاطة بها ، ولا مقدرة على الفتيا . وكذلك زخر بحفاظ الحديث ورجال التصوف والكلاميين والأصوليين والنحويين واللغويين والأدباء والكتاب والشعراء ، والأطباء والمنجمين والفلكيين والمؤرخين وغيرهم .

وتوالت طبقات هؤلاء الرجال الأفاضل ، طبقة بعد طبقة على مدى العصر وكان جيل الملك الناصر محمد بن قلاوون أملأ أجيال العصر بأفاضل الرجال ، وهو النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، ويليه النصف الثاني . وأكثر هؤلاء الرجال تخرج في أكثر من علم وفن .

ومن الأئمة المجتهدين : ابن عبد السلام «٦٨٤هـ» ، وابن المنير الإسكندراني «٦٨٣ هـ» ، وابن الرفعة «٧١٠ هـ» ، وتقي الدين السبكي «٧٥٦» والجلال السيوطي «٩١١ هـ» .

ومن حفاظ الحديث وشراحه : الجمال الزيلعي «٧٦٢هـ» والعز بن جماعة «٧٦٧هـ»

وزين الدين العراق « ٨٠٦ ﻫ » وابن حجر العسقلانى « ٨٥٢ ﻫ » والقسطلانى « ٩٢٣ ﻫ » .

ومن رجال اللغة والنحو : ابن مكرم الإفريقى « ٧١١ﻫ » وأثير الدين أبو حيان الأندلسى « ٧٤٥ﻫ » وابن هشام المصرى ٧٦١ ﻫ والجلال القزوينى ٧٣٩ ﻫ .

ومن رجال القراءات : الراشدى « ٦٨٥ ﻫ » والجرائدى « ٦٨٨ ﻫ » وسحنون « ٦٩٥ ﻫ » وتقى الدين الصائغ « ٧٢٥ﻫ » .

ومن المؤرخين : ابن خلكان « ٦٨١ ﻫ » والأدفوى « ٧٤٩ ﻫ » ، والنويرى « ٧٣٣ ﻫ » والصفدى « ٧٦٤ﻫ » وابن خلدون « ٨٠٨ﻫ » والمقريزى « ٨٤٥ﻫ » وابن إياس المصرى « ٩٣٠ﻫ » .

ومن النابهين فى غير ما سلف: ابن النفيس الطبيب « ٦٨٧ﻫ » والأصبهانى فى المنطق والأصول، والباجى «٦٨٨ ﻫ »والمغربى رئيس أطباء القاهرة «٧٧٦ﻫ » ومحيى الدين الكافيجى إمام المعقولات « ٨٧٩ ﻫ »

ومن الأدباء شعراء وكتابا : البوصيرى والشاب الظريف وابن عبدالظاهر وابن فضل الله العمرى وابن نباتة المصرى والقلقشندى وابن حجة الحموى — وسنفيض فى ذكر هؤلاء فى مناسبات قادمة .

ثالثاً : انتعاش حركة التأليف :

وهذه الحركة أبقى آثار النشاط العلمى ، وقد كانت الوصلة الصالحة بين الماضى والحاضر . وهى بما أنجبت من مؤلفات ، حلقة ذهبية فريدة فى سلسلة العلم والأدب .

فى ذلك العصر ماجت البلاد بكثير من العلماء والأدباء الذين أقبلوا على التأليف بجمع أنفسهم وبشغف شديد ، وافتن بعضهم فى اختيار موضوعاته وتنويعها وترتيبها ، وأكثر بعضهم من مؤلفاته حتى عدت بالعشرات بل بالمئات .

وممن أكثر من التأليف : الجلال السيوطى وابن تيمية الحرانى وابن حجر العسقلانى وابن قيم الجوزية وتقى الدين السبكى وابنه تاج الدين صاحب طبقات الشافعية ، وصلاح الدين الصفدى ، وتقى الدين المقريزى وغيرهم كثيرون .

وقد كانت هناك عناية ملحوظة بالتأليف فى التاريخ والحديث ورجاله والفقه ومذاهبه والتصوف والقراءات ثم اللغة وفنونها .

وحقيقة كان كثير من هذه المؤلفات إما موسوعات جامعة ، وكتباً فياضة ، حشدت فيها مسائل العلوم حشداً ، وقصارى هم مؤلفيها الجمع والاختيار أو الشرح ، وإما مختصرات لكتب سابقة ، أو تدوين الفتاوى أو تسجيل المناقشات .

غير أن هذا لا يدعنا نغض من قيمة هذه المؤلفات ، فمن يعانى مشقة التأليف يشعر أن بعض ألوان التأليف المتكر أيسر مشقة وأخف مئونة من بعض ألوان الجمع والاختيار أو الشرح والاختصار .

على أنك تجد روح الابتكار والتجديد بادية فى كثير من مؤلفاتهم أيضاً ، ومنها كتب الفقه وفتاواه وشروح الحديث وتفاسير القرآن الكريم ، وتسجيل حوادث التاريخ والنقدات التى تتخللها والعظات التى تستخرج منها . وحظى العصر بمجموعات رائعة من كتب التاريخ مختلفة الاتجاه ، فمنها فى التاريخ العام ، أو تاريخ الأعلام أو السيره النبوية أو تاريخ المدن والأمصار أو السير أو تاريخ مصر والقاهرة أو غير ذلك .

ومن أمثل المؤلفات فى ذلك : كتاب المجموع لمحيي الدين النووى فى فقه الشافعية، وهو شرح لجزء من مهذب الشيرازى ، وفتاوى ابن تيمية الحرانى فى فقه الحنابلة . وفتح البارى لابن حجر العسقلانى وهو فى شرح البخارى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان وهى فى التراجم ، ومقدمة ابن خلدون وهى فى فلسفة الاجتماع .

وإليك طوائف من مؤلفات العصر :

١ — من كتب التاريخ : الوفيات لابن خلكان . الطالع السعيد للإدفوى . الوافى بالوفيات للصفدى . الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى . النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى . والخطط والسلوك كلاهما للمقريزى . والضوء اللامع للسخاوى . وبدائع الزهور لابن إياس المصرى . وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للجلال للسيوطى .

٢ — ومن كتب الحديث : الإلمام لتقى الدين بن دقيق العيد . فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر العسقلانى ، وعمدة القارى فى شرح البخارى لبدر الدين العينى ، وإرشاد السارى إلى شرح البخارى للقسطلانى .

٣ — ومن كتب الفقه : الروضة والمنهاج والمجموع وكلها للنووى فى فقه الشافعى . وشرح متن الكنز لفخر الدين الزيلعى فى فقه الحنفية . وشرح مختصر ابن الحاجب للزواوى فى فقه المالكية . والفتاوى المصرية لابن تيمية الحرانى فى فقه الحنابلة .

٤ — ومن كتب التفسير : الإتقان فى علوم القرآن ، ولباب النقول فى أسباب النزول ، وكلاهما للجلال السيوطى . والتيسير فى علم التفسير للكافيجى . وتفسير المعوذتين لابن تيمية الحرانى .

٥ — ومن كتب الصوفية : مدارج السالكين لابن قيم الجوزية .

٦ — ومن كتب القراءات : النشر فى القراءات العشر لشمس الدين بن الجزرى الدمشقى . شرح الشاطبية للشهاب القسطلانى . شرح الجزرية لزكريا الأنصارى .

٧ — ومن كتب العربية : الألفية والتسهيل لابن مالك النحوى الأندلسى نزيل دمشق . شروح الألفية لكل من بهرام بن عبد الله ، وشمس الدين الصائغ ومحب الدين الحلبي وبهاء الدين بن عقيل وغيرهم — ومغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام المصرى ، وله أيضاً شذور الذهب . وشروح التسهيل لكل من المرادى وشهاب الدين الحلبى ، وناصر الدين بن عطاء الله الزبيدى وغيرهم . شفاء العليل فى علم الخليل لأمين الدين الحلبى . وخزانة الأدب فى علوم الأدب والبلاغة لابن حجة الحموى . وتلخيص المفتاح للجلال القزوينى ، والمزهر فى فقه اللغة للجلال السيوطى ، ولسان العرب وهو معجم لغوى عظيم لابن منظور الإفريقى .

٨ — ومن كتب العلوم الأخرى : المختار من الأغذية لعلاء الدين بن النفيس الطبيب ، وهو فى الطب والنبات . زيج ابن الشاطر وهو لابن الشاطر الموقت ،

فى علم النجوم . حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين بن الدميرى ، وهو فى الحيوان واللغة والأدب والتاريخ — تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين للأمير لاجين الذهبي ، وهو فى فنون الحرب — مقدمة ابن خلدون فى علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ — تقويم البلدان لأبى الفداء ، وهو فى الجغرافيا .

٩ — ومن الموسوعات التى ضمت علوماً وفنوناً عدة : مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ، ونهاية الأرب لشهاب الدين النويرى ، وصبح الأعشى لشهاب الدين القلقشندى .

ملحوظة :

كثير من كتب هذا العصر لا يزال مخطوطاً قابعاً فى دار الكتب المصرية ، أو فى مكاتب الآستانة وعواصم أوربا ، تسلل إليها عن طريق الغزو ، أو السلب والسرقة . وقليل من هذه الكتب طبع وحظى بالنشر . وواجب الشعب المصرى وحكومته العناية بهذه المؤلفات الثمينة علمية وأدبية ، والعمل على طبعها ونشرها وتيسير اقتنائها ودراستها ، فإنها جزء هام من شخصية مصر التاريخية ، ودراستها تلق — ولا ريب — ضوءاً على جوانب متعددة من تاريخ مصر ، وجهاد أبنائها فى مجال العلم والأدب .

أحوال اللغة العربية

أصبحت للشعوب العربية منذ زمن بعيد ، ومنذ أواسط العصر العباسى ، لغتان متميزتان : الأولى : اللغة الفصحى ، وهى لغة تسجيل العلم والأدب والشعر وكتابة الدواوين والفن والصناعة . وتمتاز بمراعاة نحوها وصرفها وذوقها البلاغى وطرق توليد مفرداتها ، والتأبى على الدخيل لفظاً وتعبيراً .

والثانية : اللغة العامية وهى لغة الشعب التى يتحدث بها جميع أبنائه فى فى شتى أحوال معاشهم فيما عدا ما سبق . وهى محرفة عن الفصحى ، وتتمتع بحرية التطور والتحول حسب مقتضيات الأحوال ، ولهذا لا تكترث كثيراً بمراعاة القواعد التى تلتزمها الفصحى ، ولا تتأبى على الدخيل .

وإذا أردنا أن نعرف أحوال اللغة وما طرأ عليها فى عصر المماليك فعلينا أن نتحدث عنها فى كل ميدان من ميادين عملها على حدة . فإن لها فى كل ميدان سمات وخصائص . — فنقول :

١ — لغة التخاطب

كانت لغة التخاطب فى هذا العصر تركية أو جركسية فى الأوساط الحاكمة لأنها لغاتهم الوطنية . أما فى البيئات الشعبية فكانت اللغة العامية المحرفة عن العربية الفصحى ، والموروثة عن الأجيال السابقة مع مزيد من الدخيل التركى والجركسى .

وليس لدينا نماذج واضحة مسجلة ولا نماذج صوتية لهذه اللغة حتى نستطيع دراستها دراسة مفصلة ونصف خصائصها . غير أننا نراها ماثلة إلى حد فى ثلاثة أشياء :

١ — الأزجال وهى أشعار العامية . وسنتحدث عنها بشىء من التفصيل عند الكلام عن الشعر . ومن نماذجها يتبين لك أن العامية كانت على شىء من الرونق والقرب من الفصيحة ، وإن كانت مشوبة بضروب من التحريف الصوتى

وإبدال الحروف المتشابهة وإشباع الحركة ، فضلا عن اللحن وترك الإعراب .

وقد راجت الأزجال فى هذا العصر رواجا كبيراً لتفشى الأمية ولعجمة السلاطين والأمراء .

٢ — الشعر الفصيح : فإن كثيراً من شعراء العصر ضمنوا أبياتهم الألفاظ والأمثلة السوقية ، ومنها تعلم مبلغ ثراء اللغة العامية حينذاك فى ألفاظها وأمثالها وتعبيراتها . وسنوضح ذلك عند الحديث عن الشعر .

٣ — أساليب بعض المؤلفين . فإن هذه الأساليب — وإن كانت فى جملتها فصيحة معربة — بها لوثة من العامية فى كثير من سطورها . ومن ذلك ترى أنها كانت متمكنة من ألسنة العلماء فلم يستطيعوا تجنبها فى مؤلفاتهم . وكتب التاريخ أكثر التياثاً بالألفاظ والأساليب العامية من غيرها ، ومن الأمثلة على ذلك : خطط المقريزى وبدائع ابن إياس — وتشعر وأنت تتصفح المؤلفات بالتتابع من أول العصر إلى آخره ، أن العامية كان يشتد خطرها وانتشارها كلما انحدرت إلى أواخر العصر .

من هذا وذاك ترى أن اللغة العامية كانت لها سيادة واسعة وسلطان كبير فى هذا العصر ، فهى لغة الشعب اليومية التى تؤدى حاجته من التعبير عن شئونه المعاشية ، وهى اللغة التى لم يستطع العلماء والأدباء تجنبها فى إنتاجهم .

٢ — الخطابة

تزدهر الخطابة العربية إذا وجدت دواعيها ، ولكن العصر الذى نحن بصدده قلت فيه دواعى الخطابة لجملة أسباب منها : انطواء الشعب العربى تحت حكم الأعاجم وضياع حريته ، وزوال الحزبية السياسية بين طوائفه ، ولانتقال أموره السياسية إلى يد حكامه ، مع عجمة هؤلاء الحكام وجنودهم .

وقد كان الحاكمون فى مصر والشام ، سلاطين المماليك وأمراءهم — على نحو ما بينا — فلم تكن هناك عوامل تسمح بنشاط الخطابة ، لضعف القدرة عليها وقلة المستجيب لها .

غير أننا — مع هذا — نرى أن بعض ألوان الخطابة العربية الفصيحة قد ازدهر وانتشر فى هذا العصر، ومن ذلك :

١ — الخطب الدينية المنبرية : وهى خطب الجمع والأعياد، وقد نشط هذا اللون الخطابى نشاطاً ملحوظاً فى عصر المماليك بسبب الحمية الدينية والغيرة الإسلامية التى شهدها الشعب من حكامه، وبسبب ما تخلل العصر من حروب مع التتار والفرنجة، وهما أعداء الدين والمسلمين. وبسبب عناية السلاطين بإنشاء المساجد واختيار أفضل العلماء وأشهرهم لولاية الخطابة بها.

غير أن الملاحظ أن هذه الخطب كانت فى جملتها عامة الموضوع لا تتناول أمور الدين تناولا عميقاً مفصلا رتيباً، وقصاراها النصح والإرشاد.

٢ — خطب المبايعة ونعنى بها الخطب التى كانت تلقى فى حفلات مبايعة الخلفاء أو السلاطين، وقد كانت أيضاً كثيرة الرواج والذيوع. وهى قريبة الشبه بالنوع السابق لتفشى النزعة الدينية فيها.

٣ — خطب الوفود، وكانت تلقى فى الاحتفال عند قدوم وفد من بلد آخر، فقد روى أبو المحاسن فى كتابه «النجوم الزاهرة» أن التتار فى عام ٦٩٨ هـ أرسلوا إلى الناصر محمد بن قلاوون، كمال الدين بن بهاء الدين قاضى الموصل وخطيبها، فى وفد، فاحتفل الناصر بقدومهم وزين القصر ليلا وأوقد فيه الشموع، وقام القاضى كمال الدين وخطب خطبة بليغة موجزة، وذكر آيات فى معنى الصلح واتفاق الكلمة، ثم إن الناصر أرسل معه وفداً على رأسه القاضى عماد الدين بن السكرى خطيب جامع الحاكم.

٤ — رسائل التقاليد والبشارات : والتقليد رسالة ديوانية تكتب لأحد كبار موظفى الدولة عند تقلده الوظيفة — والبشارة رسالة ديوانية أيضا تكتب لزف البشرى فى أنحاء البلاد بمقدم السلطان أو انتصار الجيش أو وفاء النيل أو نحو ذلك.

وهذه الرسائل إنشائية من نوع الكتابة — ولكننا نذكرها هنا لسبب واحد وهو أن كثيرا منها كان يتلى على المنابر أو يلقى بين الجماهير كالخطب سواء بسواء.

٥ — خطب الزواج : وقد كانت ذائعة بحكم ضرورتها الدينية .

ولنا بعد ذلك جملة ملاحظات ، منها :

١ — أن الأساليب الخطابية كان جارية على النمط البديعى الذى كان متبعا فى الكتابة والشعر حينذاك — وسنشير إلى ذلك بتفصيل — وأنها كانت على كثير من الرونق والتأنق والجزالة على الرغم من تكلف البديع ، وأنها كانت أميل إلى الإطالة .

٢ — أن خطب المبايعة ورسائل التقاليد ، كانت تحتوى على جملة أغراض جزئية عدا غرضها الرئيسى وهو المبايعة مثلا . ومن هذه الأغراض : بيان اختصاص الموظف ، والثناء المستطاب عليه ، وبيان أسباب اختياره لمنصبه ، ووصيته برعاية الأمانة فى عمله ، ونحو ذلك .

٣ — أن مما يشبه الخطب حينذاك : النصائح والوصايا ، وكان يكتبها بعض العلماء الغيورين إلى السلاطين وأشباههم يدعونهم فيها إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ورعاية العدالة فى معاملة الرعية . وقد كتب محيي الدين النووى إلى الملك الظاهر بيبرس أكثر من نصيحة .

٤ — أن مما يشبه الخطب أيضاً : المناظرات والمجادلات المذهبية ، وقد انتشر هذا النوع بسبب المنازعات الدينية بين بعض أرباب المذاهب ، ومن الأمثلة على ذلك مادار بين ابن تيمية الحرانى وخصومه من الجدل والمناظرة كتابة وشفاها ، بسبب فتاواه الدينية .

٥ — أن خطب الوفود تعتبر ضربا من الخطب السياسية ، ولكنها كانت نادرة الوقوع .

٦ — أن خطب العصر على اختلاف أنواعها ، كانت فى أكثر أمرها ، مكتوبة معدة ، فقدت عنصر الارتجال . تفهم ذلك من كلام المؤرخين الذين أرخوا لأعلام الرجال ، فكثيراً ماتراهم يقولون عن الرجل — فى معرض

المدح — إذا كان خطيباً : « إنه كان يخطب من إنشائه » . وهذا يدل على أنه يعد الخطبة قبل إلقائها . — على أن ذلك يدل أيضا على أن بعض الخطباء كان يخطب من إنشاء غيره ، وهذا شر مايبتلى به الخطباء .

٧ — ومن الخطباء الذين اشتهروا لهذا العهد :

(ا) عز الدين بن عبد السلام « ٦٦١ هـ » وكان خطيبا بالجامع الأموى ، قال عنه تلميذه أبو شامة : « كان أحق الناس بالخطابة والإمامة .

(ب) تقى الدين بن بنت الأعز « ٦٩٥ هـ » ولى خطابة الجامع الأزهر .

(ح) تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى « ٧٠٣ هـ » كانت به نزعة خطابية مؤثرة ، وهو واعظ عاطفى مثير . وذكر تاج الدين السبكى فى طبقاته « أن له ديوان خطب مفردا معروفا » .

(ء) جلال الدين القزوينى « ٧٣٩ هـ » كان خطيب دمشق واشتهر بالخطابة حتى لقب بالخطيب .

وإليك نماذج من خطب هذا العصر :

١ — خطبة للخليفة العباسى الحاكم بأمر الله « الأول » . وهى خطبة منبرية خطبها يوم الجمعة غداة مبايعته بالخلافة ومبايعة السلطان الظاهر بيبرس بالسلطنة . وموضوعها وصف جرائم التتار ببغداد وحض الناس على قتالهم ، قال :

« الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا . وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا . أحمده على السراء والضراء وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء . وأستنصره على الأعداء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ، نجوم الاهتداء . وأئمة الاقتداء » .. الخ ، ثم قال :

« أيها الناس : اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام . والجهاد محتوم على جميع الأنام . ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد . ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم . ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم . فلو شاهدتم أهل الإسلام ، حين دخل « التتار » دار السلام . واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفال . وهتكوا حرم الخلافة والحريم وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم . فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل . وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه . وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه . — فشمروا ساق الاجتهاد . فى إحياء فرض الجهاد . « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم » ، « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .. الخ

٢ — خطبة زواج كتبها الأديب الشاعر زين الدين بن الوردى ، فى عقد أحد بنى النصيبي على بنت عمه ، قال :

« الحمد لله الذى أطلع فى منازل الشرف شمسا مصونة البهاء والضياء . وأبدع لشرف تاجه البديع درة مكنونة فى بحر الحيا والحياء . ومنحه عقد عقد زان به جيد الوجود . وجمع الشمس والقمر فى سعود الطالع وطالع السعود » .. الخ

ثم قال بعد التحميد والصلاة على النبي عليه السلام :

« وبعد ، فإن أولى ما بادر إليه أولو الأحلام . وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام . ما كان لتكثير الأمة متضمنا . ولفضيلة العاجل والآجل نافعا نفعا بينا . وهى سنة النكاح التى عظمت بها المنة . وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليها يد السنة . وخصوصا بنات العم التى أرشدت قصة البتول عليها السلام إليها . وحسن أن يتلى لها : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » . فإن بنات العم أجدى بالصحبة وأجدر . وأوفى بالمودة وأوفر . وأصبي إلى العهد وأصبر . سيما من حازت كرم الأوائل والأواخر . وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر . وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر » . . .

٣ — الكتابة وأشهر الكتاب

نضرت الكتابة الإنشائية وأينعت فى عصر المماليك ، وامتدت حياتها موفقة كريمة على نسق ما كانت عليه فى العصور السالفة ، وشاركت مشاركة جليلة فى تأدية حاجة الدولة فى التعبير عن شئونها الرسمية وما تتطلبه حاجة دواوينها ، كما أدت حاجة الشعب فى شتى شئونه الحيوية ، فصارت بذلك سجلا حافلا وترجمانا صادقاً لحياة مصر لذلك العهد ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى :

١ — ما اتسمت به الكتابة العربية فى سابق أيامها من سماحة وكرم ، ومن كفاية ومقدرة ، ومن مرونة ومرانة ، وطول مزاولة لأداء مثل هذه الحاجة فى الدول الإسلامية المتعددة ، فكانت لسان الحضارة فى الدولة العباسية وغيرها ، وكانت أداة العلم والأدب فيها .

٢ — ضعف الكتابة التركية — وهى لغة الحاكمين — عن أن تنهض بهذه المسئولية الضخمة التى تتطلبها منها الدولة فضلا عن الشعب .

٣ — أن الكتابة العربية كانت إذ ذاك الوسيلة الطبيعية والأداة الوحيدة التى بها يستطيع الحكام الاعاجم أن يتفاهموا مع شعوبهم العربية والإسلامية ومع من حولهم ، ولهذا اتخذت اللغة الفصحى أداة للتعبير فى شتى شئون الدولة ، فاتسع لها بذلك مجال العمل والظهور ، وقيض للكتابة حياة رافهة كريمة محببة ، على نحو ما أشرنا .

وقد كانت دواوين الدولة متعددة فنها ما هو للجيش وما هو للأموال ، وغير ذلك من مقتضيات الدولة والحضارة ، وكان من بينها أيضاً « ديوان الإنشاء » .

وكانت الكتابة تؤدى حاجة هذه الدواوين ، ولكنها كانت فيما عدا ديوان الإنشاء ، بعيدة — فى الجملة — عن السمت الأدبى والجزالة العربية قليلة الرونق والتأنق . أما فى ديوان الإنشاء فكان لها شأن آخر ، إذ بدت ناضرة الإهاب

غضة العود مزدانة مثمرة كثيرة النتاج . وهى الكتابة الإنشائية التى أشرنا إليها فيما سلف . ومن الخير أن نحدثك قليلا عن ديوان الإنشاء .

ديوان الإنشاء :

أنشئ هذا الديوان فى مصر قبل عصر المماليك بزمن بعيد ، ويرجع ذلك إلى ما قبل الدولة الطولونية . ثم عنى ابن طولون بمراسلاته فأنشأ لها ديواناً ، ولما جاءت الدولة الفاطمية عنيت عناية كبيرة بهذا الديوان ووكلت لكتابه تدبيج المراسلات الهامة ، وكذلك استمر الديوان على عهد الأيوبيين .

ولما ولى المماليك سلطنة مصر استبقوا ديوان الإنشاء ووسعوا اختصاص رئيسه ، حتى صار فى بعض الأيام هو مدبر الدولة ومستشار السلطان الخاص وصاحب الرأى الأول فى السلطنة بعد السلطان ، وتقدم بذلك على مراتب الأمراء والوزراء ، وسمى « كاتب السر » .

وأبرز اختصاص « كاتب السر » رئاسة الديوان وقراءة الرسائل الواردة إلى السلطان بمجلسه ، وتلقى إشارته للرد عليها وتوقيعه بما يراه فيها . ويكتب الرد بقلمه أو بقلم أحد موظفيه حسب أهمية الرسالة ، ويقوم بتسجيل المراسيم السلطانية وتصديرها ، ويجلس بدار العدل مع السلطان ليقرأ عليه الشكاوى المقدمة إليه ، ويستشيره السلطان فى عليا المسائل ، إلى غير ذلك .

وأول من لقب بكاتب السر القاضى فتح الدين بن محيي الدين بن عبد الظاهر ، لقبه بذلك الملك المنصور قلاوون . وقد حظى عنده فتح الدين وزاد اختصاصه وارتفعت منزلته ، ولبث فى منصبه زهاء ثلاثين سنة بكفاية وجاه عظيمين ، وتوالى من بعده كثيرون على رياسة الديوان منهم علاء الدين بن فضل الله العمرى ، وعلاء الدين بن الأثير وغيرهما من أفاضل الكتاب .

ويعاون كاتب السر فى عمله نوعان من موظفى الديوان هما :

كتاب الدست : وهم ، غالباً ، منشئون يؤلفون الرسائل ، كل منهم حسب اختصاصه وجهته ، ويجلسون عادة مع كاتب السر فى مجلس السلطان ، ليعرف كل منهم ما يخصه من الرسائل وما ينبغى لها .

كتاب الدرج : وهم ، غالباً ، خطاطون يوكل إليهم كتابة الرسائل بخطهم بعد إنشائها .

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من العواصم كان فيها ديوان إنشاء على غرار ديوان القاهرة ، مثل دمشق وحلب ، وكثيراً ما كانت تتم التنقلات بين موظفى هذه الدواوين ، على نمط ما نراه اليوم من تنقل الموظفين بين المدن المصرية .

وقد بقى ديوان الإنشاء قائماً بالقاهرة حتى أقفله العثمانيون فيما أقفلوا من دواوين .

وقد كان لديوان الإنشاء أثر جليل فى شحذهمم الأدباء وحفزهم إلى إجادة صناعتهم وإتقان الكتابة لاتخاذ ذلك ذريعة للوصول إلى مناصب الديوان . فقد اعتاد السلاطين أن يعينوا فى مناصبه — وخصوصاً فى رياسته — من سمت همته وعرف فضله واشتهر علمه وأدبه واستقام خلقه وحسن رأيه من الكتاب والمنشئين .

ولهذا سعدت البلاد برؤية طبقات من بنيها متوالية ، سواء أكانوا داخل الديوان أم خارجه ، بلغوا — أو كادوا يبلغون — الذروة فى جودة الكتابة وحسن الأدب ، لا يقلون فى ذلك عمن سبقهم من كرام الكتاب . وخلفوا من ورائهم ثروة أدبية ضخمة لا يستهان بها ، وتزعموا حركة الأدب والكتابة ووضعوا لها القواعد والرسوم التى ظلت متبعة زمناً طويلا .

ولا يمنع ذلك من أنه قد سلك فى عداد كتاب الدواوين كثير من أدعياء الكتابة والأدب ، وهؤلاء لا يخلو منهم عصر دون آخر . وهؤلاء وأمثالهم لا يدخلون لنا فى حساب ، ولا نقيم لهم وزنا عند الحديث عن الكتابة والأدب .

أغراض الكتابة الإنشائية

نقصد بالكتابة الإنشائية ، الكتابة الأدبية التي تخرج المعانى والأفكار فى صورة تعبيرية جميلة عاطفية مؤثرة مصوغة على قواعد أسلوبية فنية ملتزمة لها غايات معنوية عليا ، سواء أكانت كتابة رسائل ديوانية ، أم كانت نوعاً آخر خارج الديوان .

وقد كانت الرسائل الديوانية المثل العليا للإنشاء فى ذلك العصر . فحذا الكتاب خارج الديوان حذوها فى مناهجها الأسلوبية ، بل وفى بعض أغراضها ، فمن هذه الأغراض بعامة .

١ — الرسائل الديوانية :

وهى الرسائل « الرسمية » التى يكتبها منشئو الديوان فى الأمور العليا للدولة ، وهى متنوعة حسب أغراضها فمن أشهرها :

(ا) الرسائل الملوكية : وهى التى تكتب على لسان السلطان إلى أحد الملوك أو الأمراء فى أمر هام ، رداً على رسالة ، أو ابتداء بها . وهذا النوع أهم رسائل الديوان وأوثقها تعبيراً عن السياسة العليا للدولة . فقد تكون عقداً لمودة ، أو تهديداً لغزو ، أو أمراً بزحف ، أو اتهاماً بممالأة خصم ، أو إجابة لمعونة ، أو فضاً لمشكلة ، أو شكراً على هدية ، أو نحو ذلك .

(ب) العهود : والعهد رسالة من خليفة أو سلطان ، إلى من اختاره لولاية منصبه من بعده .

(ح) المبايعات : والمبايعة رسالة على لسان السلطان إلى الخليفة يبايعه فيها بالخلافة ، أو على لسان الخليفة إلى السلطان يبايعه فيها بالسلطنة .

(ى) التقاليد : والتقليد هو « أمر تعيين » يصدر إلى أحد موظفى الدولة الكبار يسند إليه الوظيفة ، مثل رئيس ديوان الإنشاء أو قاضى قضاة الشافعية .

وفيه تضفى عليه أثواب الثناء ويبين سبب اختياره ويوضح له اختصاصه ويوصى بالعدل . وقد يقرأ التقليد فى مسجد أو بين جمهور ، حسب أهميته .

ومما يشبه التقاليد : التواقيع والمناشير والمراسيم . ولكنها كلها — غالباً — تصدر إلى الموظفين الأصغر .

(هـ) البشارات : والبشارة رسالة طلية شائقة تبشر بمجيء السلطان من رحلة أو غزو ، أو تبشر بانتصار الجيش أو وفاء النيل أو نحو ذلك . وقد تقرأ البشارة فى المساجد كالخطبة ، وقد ترسل إلى الآفاق لإعلانها أو قراءتها على الجماهير . هذا وترى فى كتاب « السلوك » للمقريزى ، وكتاب « قهوة الإنشاء » لابن حجة الحموى ، نماذج كثيرة لرسائل ديوانية مختلفة .

٢ — الرسائل الإخوانية :

والرسالة الإخوانية يكتبها صديق إلى صديقه فى مدح أو شكر أو تهنئة أو تعزية أو شوق أو عتاب أو شكوى أو مداعبة أو استدعاء أو مجون ، أو اعتذار أو لغز أو سؤال علمى أو أدبى أو نحو ذلك مما يكون بين الأصدقاء . وقد راج هذا الضرب من الكتابة الأدبية فى هذا العصر رواجه فى العصر العباسى . وكثيراً ما اتخذه بعض الأدباء وسيلة للتسلية وتمرين القريحة دون أن تكون هناك داعية إخوانية إلى ذلك . وقد صرح بذلك الأديب الشاعر زين الدين بن الوردى فى خطبة ديوان شعره ونثره ، وكذلك الأديب الكاتب شهاب الدين محمود الحلبى فى كتابه « حسن التوسل » . وفى الكتابين نماذج عدة للإخوانيات .

ومن كتاب الإخوانيات كذلك الأديب البارع الشاعر برهان الدين القيراطى ، والشاعر الفحل جمال الدين بن نباتة المصرى ، والأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدى ، وللصفدى كتاب مخطوط طريف بدار الكتب المصرية اسمه « ألحان السواجع » سجل فيه مراسلاته الإخوانية وردود إخوانه عليها .

٣ — الاستجازات والإجازات :

نعنى بالاستجازة طلب الإجازة وهى رسالة يكتبها أحد الأدباء إلى صديق

له أديب، يطلب إليه أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبية . ومن أشهر الاستجازات رسالة صلاح الدين الصفدى إلى ابن نباته المصرى — أما الإجازة فهى رسالة يردبها الأديب على من استجازه ، ويصرح له فيها برواية آثاره الأدبية . وقد رد ابن نباته المصرى على الصفدى فكتب له إجازة طريفة .

وكلا النوعين يكتب برسالة إخوانية رقيقة تنم عن أدب جم وطيب وفاء وتواضع كبير مع تقارض الثناء .

هذا وهناك نوع آخر من الإجازات وهو الإجازات العلمية . ويوجد منها ثلاثة أنواع تكتب بالأسلوب الأدبى وهى :

(ا) إجازة العراضة : وهى « شهادة » يمنحها أحد الشيوخ لأحد طلابه بعد أن يعرض عليه أحد الكتب العلمية ويتأكد من أنه حفظه جيداً .

(ب) إجازة الفتيا أو التدريس : وهى « شهادة » يمنحها أحد الشيوخ لواحد من طلابه بعد أن يختبره فى مادته العلمية ويتأكد من أنه فهمها فهماً جيداً يؤهله للتصدى للإفتاء أو التعليم . وهى أعلى الإجازات الدراسية حينذاك . وكان كثير من الطلاب يحرصون على الإكثار منها ، وذلك بالتزام عدد كبير من شيوخ العلم ، لاستغراق ما عندهم من مسائله ومشاكله . وقد يسافر أحدهم من بلد إلى آخر أو من مصر إلى سواه للقاء الشيوخ والتعلم منهم واستمناحهم هذه الإجازات .

(حـ) إجازة رواية الحديث : وهى إجازة يمنحها أحد شيوخ الحديث وحفاظه لواحد من تلاميذه يجيزه فيها برواية ما أخذه عنه من الأحاديث النبوية شفاها ، ويجيزه أيضاً بأن يجيز غيره ممن يأخذون هذه الأحاديث عنه . وقد راج طلب الحديث فى هذا العصر رواجاً عظيما ، وعنى الطلاب بحفظه وأخذه عن حفاظه الثقات ، والترحل فى سبيله ، والغربة للقاء شيوخه . فلم يكن طلب الحديث حينذاك أقل شأناً من طلب الفقه .

٤ — الرسائل والمقالات الوصفية :

وهى التى تتناول أداة أو منظراً أو حادثا أو رحلة أو حيواناً أو أى شىء

آخر ، وتصفه وتفصل نعوته المختلفة بروح أدبية ممتعة . وقد امتلأت كتب الأدب بهذا اللون الكتابي البارع، وهو دليل على حسن امتزاج الأدباء ببيئاتهم وعمق إحساسهم بمحتوياتها وحوادثها ودقة ملاحظاتهم عليها وإحاطتهم بأجزائها ومنافعها وآثارها.

ومن الكتب التي احتوت كثيراً من هذه الرسائل والمقالات : « ثمرات الأوراق » لابن حجة الحموى ، وفيها وصف لبعض الرحلات ، « وبجرى السوابق » لابن حجة أيضاً ، وبه وصف لأنواع الخيل ، و « نسيم الصبا » لبدر الدين بن حبيب الحلبي ، وبه وصف لجملة أشياء منها السماء والشمس والقمر والسحاب ، ووصف حيوان وطيور وغير ذلك . و « ديوان ابن الوردى » وبه مقالات فى وصف بعض الحوادث .

٥ — الموازنات والمفاخرات :

الموازنة أو المفاخرة ، مقالة أو رسالة ، وصفية مزدوجة ، لأنها تصف شيئين فى آن واحد . ولكنها تفترق عن المقالة بعدة عناصر أدبية طريفة تجعلها أدخل منها فى باب الأدب ، ومن هذه العناصر عنصر المفاخرة والمحاورة ، وهذا يستتبع تقسيم المقالة إلى مقاطع ، يتكلم فى كل مقطع منها أحد الشيئين اللذين تنعقد بينهما الموازنة ، يتكلم عن نفسه فيصف محاسنها ، ويتكلم عن زميله فيصف مساوئه ، فيرد عليه زميله فى مقطع آخر ، وهكذا دواليك ، وكثيراً ما يدخل عنصر آخر ، وهو عنصر المغالطة ، فيقلب كل منهما محاسن زميله مساوىء ، ومساوئه هو محاسن ، وهدف كل منهما الظفر بزميله .

والموازنات لون أدبي طارىء على هذه الديار من الأندلس فقد راج هناك ثم وفد إلى المشرق . ومن أبرع موازنات الأدباء المصريين : الموازنة بين السيف والقلم للكاتب والشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة المصرى . وفى كتاب « نسيم الصبا » موازنات بين فصول العام . وللجلال السيوطى موازنة بين النار والتراب تجدها فى كتابه « الكنز المدفون » ، غير أنها فقدت عنصر الحوار . وللقلقشندى موازنة بين السيف والقلم فى كتابه صبح الأعشى (ج١٤)

٦ — القصص :

القصص فن من أهم الفنون الأدبية ، ففيه متعة وفيه نصيحة ، وفيه تعليم ودراسة لأحوال الحياة وكشف لغوامضها .

والأدب العربى — فى جملته — فقير فى هـذا الفن بالقياس إلى النتاج القصصى فى الأمم المعاصرة للعرب مثل اليونان والهند ، وإن كان للعرب فى ميدانه جهود لا بأس بها ، وبخاصة فى عصر بنى العباس — على أن هذا الفن قد نهض نهوضا ملموسا فى عصر النهضة الحديثة ، وسنشير إلى ذلك بتفصيل .

ولم يخل ميدان الأدب فى عصر المماليك من أدب القصة . ونحن إذ نحكم على إحدى نواحى الأدب فى عصر ، نعتمد على مابين أيدينا من نصوصها الأدبية أو على ما سجلته كتب الأدب والتاريخ من أخبار هذه النصوص . وكثيراً ماعبثت يد الضياع بهذه النصوص وأخبارها .

وأغلب الظن أن فن القصص كانت له سوق فى عصر المماليك ، وذلك لضرورتها القصوى للشعب ليتلهى بها فى أوقات فراغه ، وليجد فيها مترجما عن أحواله ، أو متنفسا عن آلامه ، فى ذلك العصر الذى أرهقته فيه المظالم .

ومما بين أيدينا من قصص هذا العصر :

(١) كتاب ألف ليلة وليلة : وهو مشهور ، وبه حكايات تصف أحوال الأمم العربية والإسلامية فى عصور عدة ، ومنها مصر فى عصر المماليك . وأسلوبه شعبي غالبا ، وهو منثور تتخلله الأشعار ، وبه كثير من الأخيلة البديعة والأساطير والجد والهزل . وتترجح عباراته بين الجودة والرداءة . وهو باختلاف أساليبه وتعدد البيئات التى اختارها لقصصه ، يبدو من صنع عصور متعددة .

(ب) كتاب « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » : مؤلفه شهاب الدين بن عربشاه المتوفى سنة ٨٥٤ هـ ، وبهذا الكتاب عشر قصص لطيفة رواها الكاتب على لسان الحيوان ، وكشف فيها عن غوامض النفوس وترجحها بين الخير والشر ، وساق فيها النصائح والأمثال ، على نمط كليلة ودمنة . غير أنه اتبع فى كتابتها منهج المقامات الذى يقص فيه رجل عن آخر . فجمع بذلك بين فن ابن المقفع والحريرى . ولكنه جعل القاص فيه حكيما لا مستجديا . وقد التزم السجع فى جميع سطوره ، ومعه كثير من المحسنات البديعية الأخرى ، فكان هذا كلفاً فى وجه كتابه القيم .

(ﺣ) كتاب طيف الخيال : مؤلفه ابن دانيال الموصلي المتوفى سنة ٧١٠ ﻫ .
وابن دانيال هذا شاعر مداعب لطيف خفيف الروح ، كان يشتغل كحالا إلى جانب أدبه . أما كتابه «طيف الخيال» فيحتوى على ثلاث تمثيليات أو «بابات» على حد قوله .

والتمثيلية الأولى : مسرحية كاملة يطرد فيها الحوار بين تسعة أبطال ، أهمهم « طيف الخيال » و « الأمير وصال » . ويدور حول قصة زواج طريفة ماجنة ينخدع فيها الزوج — « الأمير وصال » — فيتوب إلى الله ويعزم على الحج تكفيراً عن ذنوبه وخطاياه .

وهذه التمثيلية محبوكة الأطراف بارعة لا يكاد ينقصها شيء من فن المسرحية . وهي تصف المجتمع المصري إذ ذاك في بعض نواحيه ، وما فيه من عادات وتقاليد ونزوات ومكايد . ويتخلل أسلوبها النثري مقطعات وأبيات شعرية في مناسباتها . — وهي تدل دلالة قاطعة على أن التأليف المسرحي نثراً وشعراً قد طاف بأذهان أدباء العربية وأقلامهم منذ زمن بعيد . بل وفن التمثيل الخيالي « السينمائي » أيضاً . إذ أن هذه القصة وأمثالها كانت تمثل على شاشات بيضاء ومضاءة بالشمع وتسمى « خيال الظل » . ولها تاريخ قبل أيام ابن دانيال وبعده .

والتمثيلية الثانية : استعراضات مسرحية سريعة ، يقوم فيها بعض الحواة والرياضيين ومروضي الوحوش — كل منهم في منظر واحد — بعرض ألعابهم أمام المشاهدين ثم استجدائهم . وقد كتبت بعبارات وجيزة مسجوعة ، ويستدل من هذه التمثيلية على أنواع الألعاب الشعبية المنتشرة حينذاك .

والتمثيلية الثالثة : مقامة ماجنة مسفة في المجون وقعت حوادثها بين عاشق وجملة من معشوقيه واحداً بعد آخر . وهي من نوع الأدب المكشوف .

٧ — المقامات :

المقامة قصة وجيزة حوارية لغوية مسجوعة ، كتبت بأسلوب بديعي ، وقد راجت هذه المقامات في عصر بني العباس رواجاً كبيراً ، وصارت أحد فنون الكتابة .

وفى عصر المماليك ظل لها هذا الرواج . ونشط لتدبيجها كثير من الأدباء

ومقامات ذلك العصر — وإن كانت قد التزمت السجع والأسلوب البديعى — أيسر عبارة وأخف تكلفاً من المقامات العباسية . كما خرجت عن منهج الاستجداء، وتنوعت موضوعاتها وافتتاحاتها، وذلك يدل — ولو إلى حد — على الشخصية المستقلة المبتكرة التى كان يتمتع بها بعض الأدباء .

وقد طرق الكتاب بها أبواب الغزل والعشق ووصف الخمر ومجالس المنادمة ، وأبواب الفكاهة والمداعبة والمجون ، وتسجيل الحوادث العامة وبيان خطرها ، ووصف أخلاق الناس وعاداتهم ، وتصوير مناظر البيئة ، وأبواب الشكوى والمدح ، وأبواب النقد واللغة ، إلى غير ذلك من ألوان .

ومن كتاب المقامات :

الشاب الظريف ، وله مقامة عاطفية غزلية رقيقة .

ومنهم زين الدين بن الوردى وله مقامات عدة ، منها : « صفو الرحيق فى وصف الحريق » وهى فى وصف حريق دمشق عام ٧٤٠ هـ و « المقامة الصوفية » فى وصف أحوال الصوفية » . و « المقامة الأنطاكية » فى وصف مدينة أنطاكية ».

ومنهم صفى الدين الحلى : وله « الرسالة التومية » وهى مقامة بين كل لفظين متجاورين فيها جناس خطى ولا يفرق بينهما إلا النقط . و « رسالة الدار فى محاورات الفار » وهى مقامة دعابية شاكية ، كتبها على لسان داره تشكو حالها إلى أحد الملوك .

ومنهم صلاح الدين الصفدى ، وله « دمعة الباكى ولوعة الشاكى » وهى مقامة يصف فيها الكاتب رحلته إلى رياض آهلة ، ومعه أحد أصدقائه .

ومنهم شهاب الدين القلقشندى : وله « الكواكب الدرية فى المناقب البدرية » وهى مقامة فى مدح بدر الدين محمد بن على بن فضل الله العمرى

صاحب ديوان الإنشاء إذ ذاك — وقد وصف فيها القلقشندى ما ينبغى للمنشىء من الأخلاق والفضائل .

ومنهم جلال الدين السيوطى : وله عشرات المقامات . وقد تقلب السيوطى بمقاماته هذه بين موضوعات شتى ، ونوع فى افتتاحاتها بما يناسب موضوعاتها ، ومنها : « المقامة الوردية » وهى مناظرة طريفة ومناقشة حامية بين الورد وغيره من الأزهار وكل منها يدعى أنه ملك الرياحين . و « المقامة الأسيوطية » وهى مملوءة بالأسئلة النحوية .

٨ — النصائح والحكم :

وقد كتب كثير من أدباء عصر المماليك فى النصائح والمواعظ والحكم والأمثال ، ولكنها - فى الغالب - كانت تصدر من معين واحد ، وهو الدين وتنبيه الوازع النفسى وبيان محاسن الشريعة . ولعل من أسباب انتشار هذا اللون الكتابى كثرة ما حاق بالمسلمين من كوارث ، وما اتصل بأيامهم من حروب مع الصليبيين والتتار ، وما كان يتصف به بعض الحكام من استبداد وقسوة ، وما كان يتصف به بعض شيوخ الدين من جرأة وصلابة . وممن كتب فى هذا الغرض :

محيى الدين النووى ، وقد كتب إلى الظاهر بيبرس أكثر من رسالة ينصحه فيها بالتزام العدالة - ومنهم تقى الدين بن تيمية الحرانى وله « الرسالة القبرصية » فى نحو أربعمائة سطر ، كتبها إلى ملك جزيرة قبرص ، ينصحه فيها بحسن معاملة المسلمين من رعاياه ، ويهدده ويتوعده إذا لم يحسن معاملتهم - ومنهم جلال الدين السيوطى وله رسالة بعث بها إلى ملوك التكرور - وكانوا مسلمين - ينصحهم بالتزام أحكام الشريعة الغراء فى تصريف رعاياهم . ومنهم تاج الدين بن عطاء الله السكندرى وله كتاب «تاج العروس» وكله عظات ونصائح . وللجلال السيوطى مقالة اسمها : « درر الكلم وغرر الحكم » وهى مكونة من حكم مزدوجة تتكون كل منها من جملتين مسجوعتين . - إلى غير ذلك .

٩ — التقاريظ والأهاجى :

(ا) التقاريظ : ضرب من الرسائل الإخوانية ، يكتبها بعض الأصدقاء إلى البعض يمدحه ويثنى عليه الثنـاء المستطاب بمناسبة ما أصدره من نتاج قلمه وفكره ، سواء أكان ديوانا شعرياً أم كتابا علمياً أو نحوهما ، وذلك كما كان متبعاً فى العصر الحديث إلى وقت قريب .

وقد نشط هذا اللون من الكتابة الأدبية فى عصر المماليك نشاطاً بالغاً وكان مظهراً جميلا من مظاهر العلاقات الشخصية . وميداناً يتنافس فيه كرام الكاتبين .

ومن الطريف المناسب أن نذكر أن الأديب جمال الدين بن نباتة المصرى ألف كتابه « مجمع الفرائد » وهو بدمشق ، فأطلع عليه عدد من فضلاء الشام فقرظوه . فجمع ابن نباتة هذه التقاريظ فى كتاب مستقل سماه « سجع المطوق » وترجم فيه لمنشئ هذه التقاريظ وروى شيئاً من مراسلاته إليهم ومداعبته فيهم . والكتاب مخطوط « بدار الكتب المصرية » .

(ب) الأهاجى : ضرب آخر من الرسائل ولكنها تدور حول هجاء المرسل إليه أو أحد الناس وذكر معايبه .

والأهاجى نادرة الوجود فى أدب العصر المملوكى . ولزين الدين بن الوردى أهجية مقذعة فى القاضى الرباحى الذى كان قاضى المالكية فى حلب ، وأساء فيها إلى كثير من الناس .

ومن أبرع الأهاجى ما كتبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر المنشىء البارع المشهور عام ٦٥٣ هـ إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكنانى المعروف بابن النقيب ، يهجو رجلا كان قد عابه فى مجلس ابن النقيب . وهى رسالة قوية الأسلوب نسجها على نمط من رسالتى ابن زيدون الجدية والهزلية ، إذ حشد فيها كثيراً من الحكم والأمثال والأبيات السائرة والأقوال المشهورة ،

حشداً مناسباً ، حتى بدت الرسالة كأنها من تأليفه هو، لا من تأليف غيره ، ودلت على سعة اطلاعه وكثرة محفوظه وقوة أدبه .

هذا ومن أطرف الأهاجى ما سيق مساق التقاريظ ، فكان تقريظاً فى ظاهر أمره ، وهجوا فى حقيقته . فيدل بذلك على براعة أدبية ودقة ذوقية بالغة .

ومن ذلك ما كتبه بدر الدين بن الدمامينى يقرظ ابن ناهض الفقاعى . وكان قد كتب سيرة الملك المؤيد شيخ ، ولم يوفق فى كتابتها . وطلب إلى الدمامينى أن يقرظها ، فأحرجه بذلك . ثم تخلص الدمامينى بأن كتب تقريظاً مبهماً استخدم فيه عنصر الإبهام ، وهو لون بديعى شبيه بالتورية يجمع اللفظ فيه بين غرضين متضادين هما المدح والهجاء ، ويورى بأحدهما عن الآخر .

١٠ — النقد :

ونعنى به نقد الشعر والنثر ووضع المقاييس وتحرير القواعد الذوقية لهما . وقد شارك كثير من علماء العصر المملوكى وأدبائه فى هذا الباب . غير أنهم نوعان :

(ا) أهل النقد البلاغى : وهم الذين عنوا بتحرير القواعد والتعاريف عناية أقرب إلى العلم منها إلى الأدب . ومنهم الخطيب جلال الدين القزوينى فى كتابه « تلخيص المفتاح » .

(ب) أهل النقد الأدبى : وهم الذين كانوا أحراراً فى نقدهم ، ولذوقهم عليهم سلطان حين يتحدثون عن القواعد والتعاريف ، وكان من همهم الموازنة بين معنى وآخر وبيان الفروق بينهما . ومن أمثلتهم شهاب الدين الحلبى فى كتابه « حسن التوسل » وتقى الدين بن حجة فى كتابه « خزانة الأدب » . وأساليبهما أكثر استرسالا وأقل ملازمة للبديع .

ومن المناسب أن نذكر من بينهم تاج الدين السبكى فإن له صفحات فى النقد الذوقى فى كتابه « طبقات الشافعية » . وجمال الدين بن نباتة الذى ألف كتابه « خبز الشعير » نقداً لشعر صلاح الدين الصفدى وبيانا لسرقاته منه .

نماذج من الكتابة الإنشائية

١ — من الرسائل الملوكية :

من رسالة وردت على لسان هولاكو ملك التتار وفاتح بغداد ، إلى ملك مصر المظفر قطز عام ٦٥٨ هـ يهدده ويدعوه إلى طاعته :

« يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال . أنا نحن جند الله فى أرضه . خلقنا من سخطه . وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر . وعن عزمنا مزدجر . فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم . قبل أن ينكشف الغطاء . فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى . ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد . وطهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا الطلب . فأى أرض تأويكم . وأى طريق تنجيكم . وأى بلاد تحميكم . فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وقلوبنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع . والعساكر لقتالنا لا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يسمع . فإنكم أكلتم الحرام . ولا تعفون عند كلام . وخنتم العهود والأيمان . وفشا فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالذلة والهوان . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . » . . . الخ

٢ — من التقاليد :

كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر على لسان السلطان الملك السعيد بن بيبرس تقليداً صادراً إلى الصاحب بهاء الدين على بن حنا ، يسند إليه وزارته . وكان من قبل ، وزيراً لأبيه الظاهر بيبرس .

قال بعد خطبة التقليد التى حمد الله فيها ، يذكر فضل بهاء الدين على الدولة ،

ويشيد بصفاته وشخصيته : « كم لها فى الوجود من كرم وكرامة . وفى الوجوه من وسوم ووسامة . كم أحيت مهجا . وكم جعلت للدولة من أمرها مخرجا . وكم وسعت أملا وكم تركت صدر الخزائن ضيقا حرجا . وكم استخدمت جيش تهجد فى بطن الليل . وجيش جهاد على ظهور الخيل . وكم أنفقت فى واقف فى قلب بين الصفوف والحروب . وفى واقف فى صفوف المساجد من أصحاب القلوب . كم سبيل يسرت ، وسعود كثرت . وكم مخاوف أدبرت حين دبرت . وكم آثار فى البلاد والعباد أبرت وأثرت . وكم وافت ووفت . وكم كفت وكفّت . وكم أعفت وعفت وعفّت . وكم بها موازين للأولياء ثقلت ، وموازين للأعداء خفت . وكم أجرت من وقوف . وكم عرفت بمعروف . وكم بيوت عبادة ، صاحب هذه البركات هو محرابها . وسماء جود هو سحابها . ومدينة علم هو بابها . » . . . . الخ

٣ — من البشارات :

وكتب تقى الدين بن حجة بشارة بوفاء النيل ، وذلك فى عام ٨١٩ هـ فى عهد المؤيد شيخ ، قال منها :

« ونهدى لعلمه ظهور آية النيل المبارك الذى عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة . وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة . وخلق أصابعه ليزيل الإبهام ، فأعلن المسلمون بالشهادة . وكسر بمسرى فأصبح كل قلب بهذا الكسر مجبورا . وأتبعناه بنوروز ، وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسورا . ودق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه . وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت بأعطاف غصونها إليه . وشبب خريره فى الصعيد بالقصب . ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب . فضرب الناصرية واتصل بأم دينار ، وقلنا إنه صبغ بقوة ، لما جاء وعليه الاحمرار . وأطال الله عمر زيادته فتردد الناس على الآثار . » . . . . الخ

٤ — رسالة إخوانية فى الشوق :

كتب الأديب المنشىء البارع شهاب الدين محمود الحلبى فى إظهار الشوق فقال :

« ما أم طفل قذفها الزمن العنيد . فى بعض البيد . فى أرض موحشة المسالك . قليلة السالك . قد لمع سرابها . وتوقدت هضابها . وصرخ بومها . ونفر ظليمها . وحضر سمومها . وغاب نسيمها . فلما خافت على ولدها من الظما الهلاك . أجلسته إلى جنب كثيب هناك . ثم ذهبت فى طلب الماء للغلام . لئلا يقضى عليه الأوام . فانتهى بها السير إلى روضة وغدير وآثار مطى بوارك . تدل على أن الطريق هنالك . فعادت إلى ولدها مسرعة . وكل أعضائها إليه عيون متطلعة . فلما شارفت الكثيب . رأت ولدها فى فم الذيب .

بأكثر منى حسرة وتلهفا　　وأعظم منى حرقة وتوجعا
وأغزر دمعاً عندما قيل لى : الذى　　كلفت به أضحى على البعد مزمعا

٥ — من الرسائل والمقالات الوصفية :

وكتب الكاتب الذلق البارع القاضى علاء الدين على بن عبد الظاهر رسالة طويلة يصف فيها موقعة مرج الصفر عام ٧٠٢ ﻫ بين سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون وإيليخان غازى سلطان التتار . وكان النصر فيها حليف مصر ، فقال منها يصف استعداد الجند قبيل المعركة :

« هــذا . والسيوف قد فارقت الأغماد وأقسمت أنها لا تقر إلا فى الرءوس . والأسنة قد أشرعت وآلت أنها لا يروى ظمؤها إلا من دماء النفوس . والسهام قد التزمت أنها لا تتخذ كنائنها إلا من النحور . ولا تتعوض عن حنايا القسى إلا بحنايا الأضالع ، أو لترقيها لا تحل إلا فى الصدور . والدروع قد لزمت الأبطال قائلة : لا أفارق الأبدان حتى تبلى

صور الفتح المبين . والجياد حرمت وطء الأرض وقالت لفرسانها : لا أطأ إلا جثث القتلى ورءوس الملحدين . فلا ترى إلا بحراً من حديد . ولا تشاهد إلا لمع أسنة أو بروق سيوف تصيد الصيد . والسلطان قد أرهف ظباه ليسعر بها فى قلوب العدى جمراً . وآلى أنه لا يورد سيوفه الطلا بيضاً إلا ويصدرها حمراً . والإسلام كأنه بنيان مرصوص . ونبأ النصر على مسامع أهل الإيمان مقصوص . والنفوس قد أرخصت فى سبيل الله وإن كانت فى الأمن غالية . وأرواح المشركين قد أعد لها الدرك الأسفل من النار ، وأرواح المؤمنين فى جنة عالية . » . . . الخ .

٦ — ومنها أيضاً ما كتبه جمال الدين بن نباتة فى وصف الحصان الأشهب ، قال :

« ومن أشهب كأنه طلعة نجم . أو قطعة صبح . أو غرة قمر يضرب بأشعته أدبار جنح . وقد ترتبت منه الأوضاع . وانقطعت دون غايته حتى الأطماع . واعتذرت له الريح فصوب أذنيه للسماع . وأصبح لصاحبه نعم العون فى يوم السبق ، والغوث فى يوم القراع . وكاد يكون من الملائكة فكم له من غبار السبق أجنحة مثنى وثلاث ورباع . ما خفيت مصلحة إلا قيضها . ولا ادلهمت سحابة نقع إلا قام لها بنفسه وبيضها . وما حدث عن حسن إلا رواه . ولا امتطاه عازم إلا حمد عند صباح لونه سراه . يقرب الطلب بسفارة عزائمه المسفرة . ويختال فى الخيل كالنهار فلا جرم أن آتيه مبصرة . كم ثنى عنانه كثيراً عن مسابقة الرياح وأعرض . وكم لعب عليه غارم حتى فاز منه بالعيش إلا أنه أبيض . » .

٧ — من الموازنات والمفاخرات :

وكتب جمال الدين بن نباتة المصرى أيضاً موازنة شائقة بين السيف والقلم ، فكان مما جاء على لسان القلم مخاطباً السيف :

« أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع . وأنا للعطاء وأنت للمنع . وأنا للصلح وأنت للضراب . وأنا للعمارة وأنت للخراب . وأنا المعمر وأنت المدمر . وأنت المقلد وأناصاحب التقليد . وأنت العابث وأنا المجود ، ومن أولى من القلم بالتجويد . فما أقبح شبهك . وما أشنع يوماً ترى فيه العيون وجهك . أعلى مثلى يشق القول . ويرفع الصوت والصول . وأنا ذو اللفظ المكين ، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى : « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » . فقد تعديت حدك . وطلبت ما لم تبلغ به جهدك . هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت فى الغمد طريح . والمتعب فى تمهيدها وأنت غافل مستريح . والساهر وقد مهد لك فى الغمد مضجع . والجالس عن يمين الملك وأنت عن يساره فأى الحالتين أرفع . والساعى فى تدبير حال القوم . والمفنى لنفعهم العمر إذا كان نفعك يوماً أو بعض يوم . فاقطع عنك أسباب المفاخرة . واستر أنيابك عند المكاشرة . فما يحسن بالصامت محاورة المفصح . والله يعلم المفسد من المصلح . » . . . الخ .

٨ — من المقامات :

كتب زين الدين بن الوردى يصف حريق دمشق عام ٧٤٠ ﻫ من مقاماته « صفو الرحيق فى وصف الحريق » قال : وحدث غيث بن سحاب عن ندى عن بحر قال : بينما أنا ذات ليلة من سنة أربعين . وقد أويت من دمشق إلى ربوة ذات قرار ومعين . وإذا بضجيج أهلها قد ملأ الآفاق ، والنيران فى أسافلها وأعاليها قد بلغت التخوم والطباق . فبادرت إلى الجامع الأموى لأمنه ويمنه . فوجدت العالم كأنهم قطعة لحم فى صحنه . وقد أرسل على أحاسن دمشق شواظ من نار ونحاس . وقربت النار من جامعها حتى كاد يحصل منه اليأس . وثارت النار لأخذ الثأر مسرعة فى كلها . وجاءت حمالة الحطب فتبت يدا أبى لهبها :

جمراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف

٩ — من التقاريظ :

كتب بدر الدين الدماميني المنشىء العالم الأديب ، يقرظ شمس الدين بن ناهض الفقاعي الذى ألف سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى . وتعرف السيرة بسيرة ابن ناهض . ولكنه لم يوفق فى كتابتها وطلب إلى الدماميني تقريظه . فكتب هذا التقريظ المبهم يهجوه به ، فجمع فيه بين فنين أدبيين هما المدح والذم . وكلا الرجلين من أدباء عصر المؤيد المذكور . ـ قال الدماميني من تقريظه :

« وأما منشىء السيرة ، فماذا أقول وقد رأيت الخطب جليلا . وماذا أصف وقد حملني العجز عبئاً ثقيلا . هو كبير أناس . مزمل من البلاغة بأنواع وأجناس . يأتم به الهداة كأنه علم . وتروم الأدباء المقايسة به فيقاسون ولكن من شدة الألم . له فى الأدب عزيمة وشهامة . وفراهة تجريه إلى المقامات الرائقة فلا تعتريه سآمة . وما هم بتركيب معنى إلا وشرح الصدور بذلك الهم . ولا شن فارس فكره غارة إلا وتم منها على بيوت الشعراء ما تم . طالما أظهر برغم أنوف الحسد فى المجالس فضله . وصعبت الآداب على غيره ولكنها أصبحت عليه سهلة . وعقل غرائب نكته عما سواه فلله ما أبدع عقله . كدر عيش الحلى بما ابتدعه من العجائب ولا ينكر لمثله تكدير الصفى . واكتفى فى ميدان البراعة بجواد فكره الذى حال وهو مكر مفر ، وهكذا يكون المكتفى . أتى فى تاريخه بألفاظ لو رآها ابن الأثير لتأثر . وابن سعيد لتعثر . وابن بسام لأصيب منها بالقارعة فعبس وتولى . أو الحجازى لرمى منها بالداهية التى هدمت ما بناه وثقلت عليه حملا » . . . . إلخ .

. . ملحوظة : ممن قرظ ابن ناهض أيضاً تقريظاً مبهماً تقى الدين بن حجة الحموى ومجد الدين فضل الله بن مكانس . وكلاهما من أدباء عصر المؤيد شيخ الذى ولى حكم مصر عام ٨١٦ هـ .

١ — ومن النقد الأدبي .

روى تاج الدين السبكى المتوفى عام ٧٧٧ وفى كتابه « طبقات الشافعية » قال عن تاج الدين المراكشي :

دخلت عليه مرة وهو ينشد قول ابن تقى :

حتى إذا مالت به سنة الكرى　　زحزحته شيئاً وكان معانقى
أبعدته عن أضلع تشتاقه　　كى لا ينام على وساد خافق

وقول الحكم بن عقال :

إن كان لابد من رقاد　　فأضلعى هاك من وساد
ونم على خفقها هدوءا　　كالطفل فى هزة المهاد

وهو ومن عنده يقولون : إن قول الحكم أجدر بالصواب ، فإنه لا يناسب المحب أن يبعد حبيبه . وينشدون قول صلاح الدين الصفدى — أمتع الله ببقائه — فى ذلك ، رداً على ابن تقى :

أبعدته من بعد ما زحزحته　　ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق
إن شئت قل : أبعدت عنه أضالعى　　ليكون فعل المستهام الوامق
أو قل فبات على اضطراب جوانحى　　كالطفل مضطجعا بمهد خافق

قلت : إن ابن تقى ، وإن ساء لفظا حيث قال « أبعدته » فقد أحسن معنى لأنه وصف أضلعه بالخفقان والاضطراب الزائد الذى لا يستطيع الحبيب النوم معه عليها ، فقدم مصلحته على مصلحته ، وترك ما يريد لما يريد . وأبعده عما يقلقه . ولو قال : « أبعدت عنه أضلعا تشتاقه » لأحسن لفظا كما أحسن معنى . وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشبه اضطراب سرير الطفل وهكذا نقص .

فوقع النزاع فى ذلك . وأرسلوا إلى القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى — رحمه الله — صورة سؤال عن الرجلين : ابن تقى والحكم ، أيهما المصيب . — فكتب :

قول ابن تقى عليه مأخذ ، لكنه قول المحب الصادق :

يكفيه فى صدق المحبة قوله   كى لا ينام على وساد خافق
ما الحب إلا مايهد له الحشا   ويهد أيسره فؤاد العاشق

أساليب الكتابة الإنشائية وخصائصها

قبل الحديث عن أسلوب الكتابة الإنشائية فى عصر المماليك وبيان خصائصه ومميزاته ينبغى أن نعلم جملة حقائق وهى أن الأساليب الأدبية فى عصر ما ، رجع لبيئتها ، تتأثر بمؤثراتها المتنوعة ، طبيعية أم دينية ، أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو غير ذلك . وما دام لكل عصر مؤثراته الخاصة فله كذلك أساليبه الأدبية تفرضها هذه المؤثرات على أدبائه بعد أن تصبغ أذواقهم بأصباغها ، وبذلك تصبح أساليبهم بما فيها من قواعد ذوقية ، تلبية واستجابة لمؤثرات البيئة . وعلى هذا فليس فى مقدور أديب فى جيل أن يشذ فى جملته عن القواعد الذوقية العامة المرعية فى جيله . ولوقدر لأديب أن يشذ فى أسلوبه عن رجال حلبته لاتضح لهم شذوذه ، ولعاش بينهم عيش الغرباء .

وينبغى بناء على هذا أننا إذا تعرضنا لوصف الأساليب الأدبية فى عصرما ، ونقدها وبيان عيوبها ، أن نجعل لمؤثرات البيئة فيه وزنا فى مقاييسنا ، وأن لا نخضع هذه الأساليب إخضاعا تاما لمقاييسنا الحديثة . فإن لكل عصر موازينه ومقاييسه وفقا لما استقر فى ذوقه من اتجاهات فنية ولدتها مؤثرات البيئة .

وقد خضعت الأساليب الأدبية فى عصر المماليك لعاملين كان لهما أثر كبير فيما اتصفت به من خصائص ومميزات .

العامل الأول هو طريقة القاضى الفاضل . وهو الكاتب المنشىء المبتكر ، والشاعر الأديب «عبد الرحيم البيسانى» المتوفى عام ٥٩٦ هـ ، الذى كان كاتبا لأواخر الفاطميين ووزيراً لصلاح الدين الأيوبى ورئيسا لديوان الإنشاء بمصر

وقد اشتهر بطريقة فى الكتابة عرفت باسمه ، وهى تقوم على التزام السجع وإطالة فقراته واستخدام ألوان البديع كالطباق والمقابلة والتوجيه وحل النثر والشعر والتلميح والتضمين من القرآن أو الحديث ، والإكثار من التشبيه وأنواع المجاز ، مع العناية بالتورية ، والميل إلى الإطالة ، والتزام المصطلحات الديوانية والألقاب .

وليست طريقة الفاضل بدعا جديدا فالآداب العربية حافلة بألوان البديع منذ القديم . غير أنها أخذت تتكاثر وتلمع منذ أوائل عصر بنى العباس حتى صارت لها من بعد ، سيادة واسعة وسلطان كبير فى القرن الرابع الهجرى ، واشتهر من أدبائها ابن العميد وابن عباد ثم الحريرى وغيرهم .

وورث القاضى الفاضل عنهم هذه الطريقة وزادعليها التزام السجع وإطالة الفقرات والعناية بالتورية وغير ذلك ، وراجت طريقته وقيض لها الذيوع ، ونهج الكتاب من بعده نهجه ، حتى جاء عصر المماليك . وعصر المماليك فى جملته إطراد للعصر الأيوبى وبخاصة فى نظمه الإدارية ونظم الدواوين ومنها ديوان الإنشاء وما وضع لمكاتباته من رسوم ومصطلحات فاتبع أدباء العصر المذكور طريقة الفاضل وتعصبوا لها ومشوا تحت رايتها ، واعتبروا كبارهم زعماء لها ، من أمثال محيي الدين بن عبد الظاهر ، والشهاب بن فضل الله العمرى ، والجمال ابن نباتة المصرى ، والتقى بن حجة الحموى ، الذى بنى كثيراً من فصول نقده الأدبى فى « خزانة الأدب » على أساس من منهج الفاضل وابن نباتة فى الشعر والكتابة . ومن شــــذ من الأدباء عن هذا المنهج البديعى عد غريباً ، مثل ابن خلدون المؤرخ فإنه اصطنع الأسلوب المرسل ونعى فى مقدمته على أهل البديع من رجال عصره وعد أسلوبهم غير بليغ لعدم مطابقته لمقتضى الحـال ، ولكنه عاش غريباً بينهم باعترافه على نفسه .

العامل الثـانى هو عامل البيئة ، فإن البيئة باختلاف مؤثراتها كانت تدعو إلى هندسة اللفظ وزخرفته ودهانه وتلميع ألوانه . فقد كان الشعب يعيش

عيشة مرهقة تحت حكم طبقة ظالمة مستبدة غاشمة لا يملك معها من أمر نفسه شيئاً ، وهذا يدعوه إلى التحوير فى اللفظ والتنميق فى الأسلوب بما يتكيف مع مقتضيات الأحوال ، وأن يظهر فى تعبيره شيئا غير ما يقصد ، وأن يكثر من النكتة والإشارات الخفية ونحو ذلك. ولعل بروز التورية والاستخدام والإبهام والتلميح ونحوها فى هذا العصر دليل ساطع على ما نقول. لقد اشتهر المصريون بهذه الألوان وتزعم بعض أدبائها الدعوة إليها مثل ابن نباتة المصرى وابن حجة الحموى ، ورجال حلبتهما فى مصر والشام .

على أنه فضلا عن ذلك ، كان العصر عصر الحلية والزينة والألوان فى كل شيء فى المبانى وهندستها ، والملابس وزخرفتها ، والرياش وألوانه ، والاحتفالات وتهاويلها . وهذا من دأبه أن ينضح على أساليب الأدباء استجابة لوحى البيئة إلى نفوسهم . وإن لم يقع منا — نحن أهل العصر الحديث — موقع القبول ، وبدا متكلفاً أو غثاً .

وبعد فإليك أزهى خصائص الأسلوب الأدبى فى عصر المماليك فمنها :

١ — الإقليمية : ونقصد بإقليمية الأسلوب دلالته على بيئته وعصره بأى ضرب من ضروب الدلالة ، وكلما اتسعت دلالته وتعددت ضروبها لمعت إقليميته وميزته عن غيره من أساليب البيئات والأمصار الأخرى .

وقد لمعت إقليمية الأسلوب الأدبى فى عصر المماليك حتى صار من اليسير أن نميزه عن غيره . فقد ترددت فيه أسماء البيئة المصرية أو الشامية ومحتوياتها ، وسجل حوادث أهلها فى جدهم أو هزلهم ، وعبر عن أحلامهم وآلامهم . وامتلأ بأمثالهم وحكمهم . وأهم من هذا جميعه أنه بدت فيه نزعاتهم الخاصة فى تصوير معانيهم ورسم عواطفهم . وأبرز هذه النزعات اصطناع التورية والاستخدام والإبهام والتلميح والتعليل الأدبى والميل إلى الفكاهة والنكتة اللاذعة .

٢ — شيوع الوصف : فقد تجلت النزعة الواصفة فى مختلف إنتاج الأدباء ولو لم يكن الوصف هو الموضوع الرئيسى لهذا الإنتاج . تجلت فى تصوير

المعانى الجزئية وحسن إخراجها ، ولو كانت فى رسالة ديوانية أو نصيحة أو حكمة . وهذا دليل على توثب الخيال الشعرى عند الأدباء ، ذلك الخيال الذى تدفعه العاطفة الصادقة وتثيره وتسمو به وتفسح أمامه مجال العمل والابتكار ، فيعمل ويبتكر معتمداً على دعائم عدة ، منها أنواع التشبيه والمجاز ، وإسناد أفعال العاقل إلى غيره ، كما فى قصص الحيوانات ومحاورات الأزهار .

٣ ــ التزام السجع وإطالة فقراته ، مع إطالة الفقرة الثانية عن الأولى ، والثالثة عن الثانية ، وتساوى الأولى والثانية إذ كانت هناك سجعة ثالثة .

٤ ــ استعمال أنواع البديع الأخرى وبخاصة الازدواج والطباق والمقابلة والتضمين وحل النثر والشعر والتوجيه . وقد استطاع بعض الكتاب أن يستعملوا أنواع البديع بكياسة دون تكلف يجنى على المعانى ، فخف أسلوبهم وصار مقبولا ، وأخفق البعض فى ذلك وأثقل كاهل عباراته بها فصارت كلفا فى وجهها شوهها وأخفى معانيها وأسقطها .

٥ ــ والجناس كان كثير منهم يمقتونه ويعتبرونه محسنا لفظياً لامعنوياً ، إلا إذا جاء دون تكلف أو أخرج مخرج التورية . ومنهم ابن نباتة وابن حجة . وممن تعصب للجناس وجن به فى شعره ونثره صلاح الدين الصفدى حتى إنه ألف فيه كتاباً وملأه بشواهد من تأليفه واسمه « جنان الجناس » وقد حمل عليه بعض الأدباء ونعوا عليه جنونه بالجناس .

٦ ــ براعة الاستهلال . وافتتاح الرسائل بالتحميدات . وافتتاح المقامات بما يناسب موضوعاتها .

٧ ــ مراعاة مصطلحات ديوان الإنشاء وبخاصة فى رسائله ، سواء أكان ذلك فى الافتتاح أو الاختتام ، وترتيب عناصر الرسالة . وترديد ألفاظ معينة مثل : يقبل الأرض . المملوك يخدم بسلام . وكتبها المملوك . ــ ويكثر ذلك فى الإخوانيات . وإدخال بعض الدخيل التركى مثل : أتابك وسنجق .

٨ — التزام الأدعية والألقاب ، والإكثار منها وتحويل اللقب إلى وزن أفعل عند الرغبة فى المبالغة فيه وكذلك زيادة ياء كياء النسب عليه فيقال مثلا فى: الكريم « الأكرم أو الكريمى أو الأكرمى » — وقد خصصوا لكل صنف من الناس ألقاباً ومنها ما هو عربى مثل : « الديوان العزيز » للخليفة ، و« الجانب الشريف » لولى عهده ، و « المقام العالى » للسلطان . والمجلس العالى للأمير . وكذلك المقر . — ومنها ماهو غير عربى مثل : الأستادار والدوادار.

ونشير بهذه المناسبة إلى أن كل رجل كان لابد له من أن يتخذ لنفسه اسما وكنية ولقباً معاً ، واللقب مضاف دائماً إلى لفظ « الدين » فيقال مثلا : شهاب الدين أبو الفضل « أحمد »

٩ — الميل إلى الإطالة . وهذه ظاهرة واضحة فى الأساليب الأدبية تعتمد على طول الوصف وكثرة الترادف وتفصيل الجزئيات وتنويع الأغراض غير الرئيسية فى الرسالة ، إلى غير ذلك . وقد بدت هذه الظاهرة فى أساليب المؤلفين أدباء وعلماء معاً حتى تحول كثير من مؤلفاتهم إلى موسوعات جامعة . ومن أفضلها مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ، ونهاية الأرب للنويرى وصبح الأعشى للقلقشندى .

ملحوظة : لشهاب الدين بن فضل الله العمرى كتاب اسمه « التعريف بالمصطلح الشريف » تكلم فيه عن المصطلحات الديوانية فى عصر المماليك وطرق استعمالها ومواضعه وأورد نماذج لها كثيرة من إنشائه .

هذا ولديك فيما سجلناه من النصوص نماذج تعينك على فهم خصائص الكتابة . وإليك نماذج أخرى وجيزة :

١ — من رسالة للشهاب محمود الحلبى إلى مقدم سرية كشف . قال فى مطلعها يدعو له ، وهو دعاء مملوء بالوصف مع السجعات الخفيفة . والجناسات المقبولة :

« لازال أخف فى مقاصده من وطأة ضيف . وأخفى فى مطالبه من زورة طيف . وأسرع فى تنقله من سحابة صيف . وأروع للعدى فى تطلعه من سلة سيف . حتى يتعجب عدو الدين فى الاطلاع على عوارته من أين دهى وكيف»

٢ — ومن رسالة للقلقشندى فى مدح المقر فتح الدين أبى المعالى صاحب دواوين الإنشاء ، ويتجلى فيها الخيال الشعرى معتمداً على التشبيهات الضمنية وإسناد الصفات الإنسانية إلى مالا يعقل ، قال :

« فرأيه السيف لا ما صنع الهند . وعقله الصارم لا ما استودع الغمد » . وقال منها .

« أقلامه تزرى بالصوارم وتهزأ بالأسل ، وتجرى بصلة الأرزاق فتزيد على الأمانى وتربو على الأمل »

وقال : « فمكارمه تغنى عن الإملاق ، وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو بالإشراق ، وعطاياه تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق »

ونلاحظ فى السجعات الأخيرة طول الثانية عن الأولى ، وطول الثالثة عن الثانية

٣ — ومن حكم ابن حبيب الحلبي ومواعظه ، وترى فيها السجع الخفيف مع الجناس اللطيف ، والتشبيهات ، قال : « التقوى أفضل حلة . والمروءة أجل خلة . الحق سيف قاطع . والحلم درع مانع . الزم الحجا فهو ألطف سائس . ولا تعدل عن العدل فهو أحفظ حارس » .

٤ — ووصف الشهاب بن فضل الله الخمر فأجاد فى استعمال المجاز وإسناد الصفات الإنسانية لما لايعقل فأكسبه حياة وأجرى فيه روحا نابضة . قال :

« سعى الساقى بكأسها . وصب الذهب من أكياسها . وفض منها طينة ختام كانت طابعا لشمسها . ودواء عما يخامر العقول من مسها . وراضها بالمزاج ولولاه لجمحت . ولاينها بملاطفته حتى جنحت . وافتض منها بكرا لم تعنس . وقدح منها ناراً لو رآها عابدها لزمزم ، والعيسوى لقدس » .

٥ — ومن سجع ابن نباتة المصرى ، وجناسه وتوريته قوله واصفا :

« كتبها المملوك . ودمع الغيث قد رقا ، ووجه الأرض قد راق . وقدود الأغصان قد راسلت أهواء القلوب بالأوراق . وقيان حمائمها قد ترنمت

وجذبت القلوب بالأطواق . والورد قد احمر خده الوسيم . وفكت أزراره من أجياد القضب أنامل النسيم . وخرجت أكفه من أكمامه لأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم » .

وترى فى : دمع الغيث ووجه الأرض وقدود الأغصان وأجياد القضب وأنامل النسيم ، مراعاة نظير وتشبيهات بليغة أو استعارات مكنية .

وترى فى : رقا والأوراق وجذبت وأكمامه ، توريات لطيفة .

وترى فى كلمة : رقا جناس التورية . باعتبارها رقأ يرقأ أو رقى يرقى .

أشهر الكتاب

اشتهر فى هذا العصر كثير من الأدباء المنشئين ممن رأسوا دواوين الإنشاء أو اشتغلوا بالإنشاء فيها أو اشتغلوا بالكتابة خارجها ، ومنهم الشاب الظريف ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وشهاب الدين بن فضل الله العمرى ، وأخوه علاء الدين بن فضل الله العمرى . وفتح الدين بن محيي الدين بن عبد الظاهر ، وعلاء الدين بن الأثير ، وأبو الثناء محمود الحلبي ، وجمال الدين بن نباتة المصرى وبرهان الدين القيراطى ، وتقى الدين بن حجة الحموى ، وناصر الدين بن البارزى، وشهاب الدين القلقشندى ، وصلاح الدين الصفدى وغيرهم من كرام الكاتبين. ومامنهم إلا من كان شاعرا ومنتجا فى رياض الأدب . ونكتفى بالتعريف ببعضهم :

١ — القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر :

هو الكاتب الشاعر الأديب المؤلف ولد سنة ٦٢٠ هـ وجمع فى ثقافته بين الأدب والعلم ونبغ فى الكتابة ونظم الشعر ، وتزعم حركة الأدب فى زمانه ، ونهج فيه نهج القاضى الفاضل . وخدم فى ديوان الإنشاء بمصر نحو عشرين سنة حتى كان رئيساً له . وعظم جاهه حتى صار يتملقه الكتاب ويتقرب إليه الشعراء . وكتب للظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، والأشرف خليل بن

قلاوون . ووضع لدواوينهم كثيراً من المصطلحات وألقاب التفخيم والأدعية . وله أشعار ورسائل مبعثرة فى كتب الأدب . ومن مؤلفاته كتاب « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » ، فى التاريخ والتقويم والأدب ، وهو سفر قيم ولكنه مفقود . وقد استعان به المقريزى فى تأليف خططه المشهورة ونقل عنه كثيراً . وقد توفى عام ٦٩٢ﻫ وله أسرة جليلة الشأن خدم أفرادها الدولة خدمات جلى ، ومنهم ابنه القاضى فتح الدين رئيس ديوان الإنشاء بمصر ، وأول من لقب بكاتب السر .

٢ — القاضى شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى :

هو الأديب العلامة الشاعر المنشىء البارع المشار إليه فى عصره . ولد عام ٦٤٤ ﻫ ودرس علوم الدين وأقبل على دراسة العربية وفنونها وتتلمذ لجمال الدين بن مالك النحوى وما زال حتى امتاز على أقرانه واستفاضت شهرته الأدبية فقربه السلاطين ورفعوا منزلته واستكتبوه فى ديوان الإنشاء بدمشق وبالقاهرة . وقيل ولى رياسة الديوان بدمشق نحو ثمانى سنوات . وتوفى عام ٧٢٥ ﻫ .

وجرى فى إنشائه على طريقة الفاضل وابن عبد الظاهر ، وكذلك كان فى شعره . إلا أن أسلوبه البديعى هين مقبول لا يئوده تكلف ولا تثقله قيود الصناعة . وهو كاتب ذو ذوق خاص يكره السجعات الطويلة والجناسات المتكلفة ، وهو ممن قننوا لصناعة الكتابة ووضعوا لها مقاييسها ، ويبدو ذلك جليا فى كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وهو متأثر فى ذلك بمن قبله من البلاغيين الأدباء ولاسيما تاج الدين بن الأثير صاحب كتاب « المثل السائر » . غير أنه بالرغم من ذلك كان ذواقة وذا آراء خاصة معللة فى مناهج الإنشاء . وله رسائل كثيرة وأشعار متفرقة طريفة فى المدح والغزل والوصف والمديح النبوى ووصف الحروب والفخر والحماسة ، والإخوانيات وغيرها .

٣ — القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى :

هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتاب ورئيس أهل الأدب

فى زمانه . ولد بدمشق عام ٧٠٠ هـ وتفقه ودرس علوم العربية على خير أساتذة جيله ، وأقبل بجمع نفسه على نظم الشعر الرقيق وكتابة الرسائل الجيدة حتى استخدمه السلاطين لعهده فى دواوين إنشائهم وتنقل بين دمشق والقاهرة . وزاد نفوذه حتى صار مدبر المملكة ومشير السلطان الناصر بن قلاوون . وعلا نجمه فى الكتابة الديوانية حتى صار قدوة للكتاب ، ووضع لهم كثيراً من المصطلحات ونماذج المراسلات . فكان عمله هذا دستوراً لديوان الإنشاء بمصر وغيرها اتبع زمناً طويلا . وجرى فى إنشائه على الطريقة الفاضلية أيضاً مع خلافات ذوقية عدة . ويفضله بعض المؤرخين على القاضى الفاضل . وكان شهاب الدين سخى اليد كريم المجلس ينفق عن سعة كثير البر بشعراء زمانه وأدبائه ، وممن وفد عليه ومدحه شاعر مصر فى زمانه جمال الدين بن نباتة . وانفرد هو وأسرته — ومنها أخوه علاء الدين — بدواوين الإنشاء فى مصر والشام زمنا ، حتى كانوا فى الواقع وزراء الدولة بل حكامها . واستمر ذلك فى أسرتهما زمناً طويلا . وتوفى شهاب الدين عام ٧٤٩ هـ.

وقد ألف كثيراً من الكتب الممتعة منها : مسالك الأبصار فى عشرين مجلدا وهو موسوعة جامعة ضخمة فى التقويم والتاريخ والأدب وغيرها من العلوم . ومنها التعريف بالمصطلح الشريف وهو دستور المصطلحات لديوان الإنشاء . وفواضل السمر فى فضائل آل عمر فى أربع مجلدات . وله غير ذلك . ونظم كثيراً جداً من الشعر ومقطعاته وأراجيزه . وأنشأ مئات من المراسلات الديوانية ، وكل ذلك مبعثر متفرق يحتاج إلى من يجمعه ويهتم بنشره خدمة للوطن والأدب والتاريخ .

٤ — شهاب الدين القلقشندى :

هو أبو العباس أحمد بن على . ولد بقلقشندة من قرى قليوب بمصر عام ٧٥٦هـ ؛ وتلقى العلوم العربية والشرعية بالجامع الأزهر . وعرف بالذكاء والجد فى التحصيل ، وشغف بالكتابة ونبغ فيها وعدها أشرف الصناعات . ووظف فى ديوان الإنشاء بمصر عام ٧٩١ هـ ولبث به زمناً فى عهد برقوق وابنه فرج .

وصار من أبرز كتابه . فكتب الرسائل الملوكية والتوقيعات وغير ذلك .
واتصل بكثير من رؤساء الدولة ، ومات فى القاهرة عام ٨٢١ .

ونهج فى كتابته الأدبية منهج الفاضل وابن عبد الظاهر وابن فضل الله وابن نباتة ، غير أنه كان أكثر تكلفا والتزاما وألف كتابه الشهير « صبح الأعشى » فنبذ فيه الأسلوب الأدبى ، وترسل دون قيود . وكتابه المذكور يقع فى أكثر من عشرين مجلدا وهو مفخرة من مفاخر التأليف المصرى . وقد تحدث فيه عن صناعة الكتابة فى دواوين الإنشاء وذكر تاريخها ورسومها وخطوطها ونماذجها وما ينبغى لها ، وذلك فى كثير من الأمم الإسلامية ، وهو عامر بالنصوص الأدبية النادرة . وقد اعتمد فى تأليفه على كتاب « التعريف » لابن فضل الله ، وكتاب « تثقيف التعريف » للمقر التقوى بن ناظر الجيش ، وكلاهما فى صناعة الإنشاء . ولكن صبح الأعشى شأهما فى هذا المضمار بأشواط واسعة جداً .

وله مؤلفات أخرى منها : « ضوء الصبح المسفر » وهو مختصر صبح الأعشى . و « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » . و « قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان » . و « حلية الفضل وزينة الكرم » وهى موازنة بين السيف والقلم .

٥ — تقى الدين بن حجة الحموى :

هو الكاتب القدير والشاعر الكبير والناقد الذواقة . ولد فى حماة عام ٧٦٧ هـ وطلب العلم فى بلده وطالع كتب الأدب وأولع بالنظم والنثر ومارسهما حتى برز فيهما وعد من الأعلام ، وقال عنه ابن حجر العسقلانى إنه أديب عصره . واشتغل منشئاً فى دواوين الإنشاء ببلاد الشام وحسن اتصاله بالملك المؤيد شيخ قبل سلطنته ، فلما صار سلطاناً على مصر عام ٨١٦ هـ استقدم إليه ابن حجة وجعله منشئاً فى ديوان القاهرة فاشتغل مع صديقه ناصر الدين بن البارزى الذى كان رئيساً لديوان الإنشاء حينذاك . ولبث بالقاهرة زمناً طويلا حتى ذهبت دولة المؤيد فعاد إلى بلده حماة وتوفى بها عام ٨٣٧ هـ .

وابن حجة أديب مكثار سواء أكان فى شعره أم نثره أو مؤلفاته ، وينهج فى أسلوبه الأدبى منهج الفاضل وابن نباتة ، وهو مفتون بابن نباتة وأدبه إلى حد بعيد ويعتبره زعيم جيله فى ميدان الأدب ، وبخاصة فى باب التورية والاستخدام . وكان ابن حجة حركة دائبة منتجة ، أنشأ الرسائل الديوانية ، والإخوانية والمقامات والمقالات الأدبية . وله أشعار كثيرة فى أغراض كثيرة كالمدح والوصف والتشوق إلى بلده حماة ، وله كتب أدبية عدة منها خزانة الأدب وقد شرح فيها بديعيته ووازن بينها وبين بديعية صفى الدين الحلى وعز الدين الموصلى ، وبين تفوقها عليهما . وامتلأ كتابه بالكلام عن الألوان البلاغيه وأصباغ البديع وهو من المتعصبين له . ويعتبر كتابه هذا أبرز كتب النقد الأدبى والبلاغى فى عصر المماليك وعبارته فيه سلسلة هينة غير مسجوعة ولا مقيدة بالبديع ، ونقداته فى كثير من الأحيان ثاقبة صائبة . وقد جمع كتابه هذا بين أطراف أدبية وتاريخية نادرة ، وبه نصوص أدبية كثيرة لا توجد فى سواه .

ومن كتبه أيضاً : ثمرات الأوراق وهو قصص ومحاضرات ومقالات أدبية قيمة — ومنها : كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ، تكلم فيه عن هذين النوعين وساق لهما الشواهد الكثيرة — ومنها تأهيل الغريب وهو مجموعة ضخمة من الشعر المختار فى فنون أدبية عدة ، وبه نصوص نادرة ، وألحق به بعض المختارات النثرية ، ويعتبر أضخم كتب المختارات فى ذلك العصر — ولا يزال هذا الكتاب القيم مخطوطا .

الكتابة العلمية

نعنى بها كتابة المؤلفات غير الأدبية ، مثل كتب الفقه والحديث والأصول والمنطق والتاريخ وغير ذلك ، مما أشرنا إليه عند الحديث عن الحركة العلمية .

والكتابة العلمية تهتم بذكر الحقائق والمعلومات العلمية وصواب عرضها على القارىء لتستقر فى ذهنه على نسق خاص : ولذا لاتلقى بالا إلى الإطار

اللفظى والتعبيرى الذى تزفها فيه ، ولا تكترث بجمال الإخراج ، ولهذا لاتروج لديها بضائع البديع ولا سلع التشبيه والمجاز ولا طرائف المبالغات والتهاويل ، بل إن هذه تفسد ماتعرضه من حقائق ومعلومات ، وتشغل بال القارىء عن أهدافها الأصيلة .

وللأساليب العلمية تاريخ حافل طويل ، ونكتفى هنا بذكر خصائصها ومميزاتها العامة فى عصر المماليك على سبيل الملاحظات فمن ذلك أنه :

١ ـــ يغلب على الأساليب العلمية ، الترسل وعدم التقيد بقيود البديع إلا ما سنح عرضا دون تكلف . كذلك يغلب عليها الوضوح والسهولة . والتاث بعضها بلوثة من العامية لفظا وعبارة ، وتزداد هذه الظاهرة كلما سرنا إلى أواخر العصر .

٢ ـــ وعلم التاريخ ، يعد فى كثير من مظاهره فنا من فنون الأدب . ولهذا بدت هنا فى كتبه النزعات الأدبية أكثر من بدوها فى كتب أخرى . بل تتراءى لك فيها بين الفينة والفينة العبارات الأدبية بما فيها من زخارف بديعية وبخاصة السجع والجناس والطباق . ويكثر هذا عند كتابة تراجم الأعلام . ترى هذا واضحاً فى « الدرر الكامنة » لابن حجر العسقلانى . و «الضوء اللامع» للسخاوى و « حسن المحاضرة » للسيوطى . ولكن الأسلوب الغالب فى كتب التاريخ ، الأسلوب المرسل غير المقيد . وهى إلى هذا أكثر التياثا بالعامية من غيرها من المؤلفات .

غير أنه يجدر بنا أن نشير إلى كتاب « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » لشهاب الدين بن عربشاه . وهو فى تاريخ تيمورلنك التترى وحروبه ودولته . وكله مسجوع بتكلف ، محشو بألوان البديع دون ضرورة ، ملىء بالمبالغات ، ولهذا ضلت فيه معالم التاريخ .

٣ ـــ ويغلب عليها نزعة الجمع وحشد المعلومات وذكر الآراء والروايات أو شرح المتون والمختصرات . أو اختصار الكتب والشروح . ومن الأمثلة :

كتاب المجموع للنووى فهو شرح لكتاب « المهذب» للشيرازى فى فقه الشافعية ، وفيه جمع لآراء أهل المذهب . وكتاب « فتح البارى » لابن حجر العسقلانى وهو مجلدات كثيرة فى شرح البخارى . وتلخيص المفتاح « للجلال القزوينى ، وهو تلخيص مفتاح السكاكى فى علوم البلاغة .

٤ — وفيما عدا المختصرات ترى ميلا شديداً إلى الإطالة ، حتى تحولت بعض المؤلفات إلى موسوعات جامعة أو دوائر معارف ، ترى ذلك واضحا فى النجوم الزاهرة وسلوك المقريزى وبدائع ابن إياس والضوء اللامع للسخاوى وغيرها من كتب التاريخ . وفى كتاب المجموع للنووى ، والتكملة للتقى السبكى ، والكفاية لابن الرفعة وهو عشرون مجلدا — وكلها فى فقه الشافعية . وفى كتاب « فتح البارى » لابن حجر ، و « عمدة القارى » للبدر العينى ، و « إرشاد السارى » للقسطلانى ، وكل منها فى مجلدات عدة ، وهى فى شرح البخارى — وهلم جرا

وإليك نموذجين مختلفين .

١ — قال المقريزى فى خططه يصف قصر بكتمر الساقى :

«فلما تمت عمارته سكنه الأمير بكتمر الساقى . وكان له فى اصطبله هذا مائة سطل نحاس لمائة سائس كل سائس على ستة أرؤس خيل سوى ما كان له فى الحشارات والنواحى من الخيل . وكان من المغرب يغلق باب اصطبله فلا يصير لأحد به حس، ولما تزوج أنوك بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بابنة الأمير بكتمر الساقى فى سنة ٧٣٢ هـ خرج شوارها من هذا القصر . وكان عدة الجمالين ثمانمائة حمال . المساند الزركش على أربعين حمالا عدتها عشر مساند، والمدورات ستة عشر حمالا ، والكراسى اثنا عشر حمالا » الخ .

٢ — قال السيوطى فى حسن المحاضرة عن شيخه الشمنى :

« قدوة عين الزمان وإنسانها . وواحد عصره فى العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها . وشجرة المعارف التى طاب أصلها فزكت فروعها وأغصانها .

ورياض الآداب التى فاضت ينابيعها وفاحت زهورها وتنوعت أفنانها . إن أخذ فى التفسير كل عنده الكشاف واختفى . أو الحديث كان عن ألفاظه الغريبة مزيل الخفا . أو الفقه عد للنعمان شقيقا . أو النحو كان للخليل رفيقا الخ . »

٤ — الشعر وأشهر الشعراء

مقـــدمة :

اتجه النشاط فى عصر المماليك إلى إحياء العلوم أكثر من اتجاهه إلى إحياء الآداب ، وذلك لحاجة العصر إلى العلم قبل الأدب ، ولأن دواعى الاشتغال بالعلم كانت كثيرة على نحو ما فصلنا ، وأول ما يصاب من مظاهر الأدب ، الشعر لأنه أدقها وأكثرها إحساساً وتأثراً .

إذن انصرفت العناية عن الشعر والاستماع إليه والإثابة عليه . فها هو ذا الشعب — وهو البيئة التى نبت منها الشعراء — جاهل غامض العاطفة ، غلبت عليه عاميته ، وشغله السعى إلى الرزق ، وها هى ذى حياته ملأى بالحيرة والاضطراب والحوادث العنيفة المفاجئة المتتالية . فلا معين على قول الشعر أو سماعه . وها هم أولاء ملوكه وأمراؤه جند والجندية أقرب إلى العمل منها إلى القول . فلا تجد الروح الأدبية سبيلها معبدة مذللة إلى نفوس أهلها . وهم أعاجم عن العربية ، فليسوا إذن على استعداد فطرى للإنصات إلى شعرائها والعطف عليهم ، وتوجيه الدعوة إليهم ليكرروا بين يديهم ما سبق لهم تكراره فى عصور منصرمة ، من تصاوير ملفقة ، وتهاويل موهومة ، وعواطف مفتعلة ، ومعانى يخترعها الوهم والخيال . وليس من ورائها جدوى ولا طائل عملى . وإنهم لا يقدرون حق قدره ، ما يورده الشعراء من مجازات طريفة واستعارات وتشبيهات رائعة ، ومعان مولدة مبتكرة . فكل هذا يفهمه العربى العريق الملم بأسرار اللغة وطرائق تراكيبها ، فيهتز للمعنى الرائع يساق فى اللفظ الجزل .

إذن لم يجد الشعراء مجال القول الفسيح ، ولا بدر المال ولا صرر الدنانير ولا العيش الناعم الرغد ، مما ألفه أسلافهم فى غابر الأيام .

وإليك ابن نباتة المصرى ، أمير الشعراء فى عصره ، أخذ يذرع الأرض من مصر إلى الشام طلباً للرزق شاكياً باكياً بؤسه وشظف عيشه ، قال :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا وإنما العار فى دهرى وفى بلدى

هذا كلامى وذا حظى فيا عجبا منى لثروة لفظ وافتقار يد

ويبدو أن عدداً من شعراء ذلك العصر لم يستقبلوا الأمر بالحذر الواجب ، فلم يعنوا بفنون أخرى عبر الشعر يبغون فيها ويعيشون منها ويرتزقون من ورائها ، فساء طالع بعضهم كابن نباته ، واضطر البعض إلى الاحتراف بحرفة دنيا سداً للحاجة وحفظاً للرمق وستراً للحياة . وحقاً منهم من تخرج فى الفقه فدلف إلى القضاء كابن دقيق العيد وابن حجر العسقلانى ، ومنهم من اصطنع الكتابة فسلك فى دواوين الإنشاء كابن حجة والقلقشندى . ولكن منهم أيضاً من احترف الجزارة كأبى الحسين الجزار ، والوراقة كسراج الدين الوراق ، وصناعة الكحل كابن دانيال الموصلى ، والسهر على الحمامات كنصير الدين الحمامى .

والطريف أن من الصنف الأخير من اتخذ من صناعته منبعاً للحكمة الشعرية أو الفكاهة أو الفخر . فقد أنشد أبو الحسين الجزار قوله :

كيف لا أشكر الجزارة ما عشـــت حفاظاً وأرفض الآدابا

وبها صارت الكلاب ترجيـــنى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ويقول أيضاً :

لا تعبنى بصـــنعة القصاب فهى أذكى من عنبر الآداب

كان فضلى على الكلاب فذ صر ت أديباً رجوت فضل الكلاب

وكان ضغثاً على إبالة ذلك الميل الذى بدا من الشعب والمماليك إلى الزجل وحب سماعه وتشجيع ناظميه ، لأنه ، وهو الشعر العامى ، أقرب إلى لسانهم وأدنى إلى فهمهم من الشعر الفصيح الجزل ، فراج ونفقت سوقه . ومن هذا وذاك ترى أن الشعر لم تقيض له من وسائل التشجيع والإنهاض ما قيض للكتابة .

ومن ثم هانت على كثير من الشعراء صناعة الشعر ، فرك أسلوبه وضاقت أغراضه وتفهت معانيه . وأقبل بعضهم على نظم الزجل ، أو الاكتفاء بالمقطوعات والتواشيح السهلة . وسولت هذه الحالة لكثير من المتشاعرين والعوام أن يندسوا بين أكابر الشعراء ، ولذلك كثر السخيف من الشعر فكان كلفاً فى وجه الجيد منه .

تذاءبت إذن عوامل الانحطاط على الشعراء ، فلهم العذر إذا هم لم يهتموا بصناعتهم أو يجودوا إنتاجهم . وما يفعلون أمام ظروف قاهرة لم يجدوا معها بدأً من أن ينظموا الشعر أحياناً لا استجابة لحاجة نفسية أو تصويراً لشعور عام أو دفعاً إلى هدف نبيل ، بل تمريناً للقريحة فحسب ؟... وهذا هو زين الدين بن الوردى أحد الشعراء المجيدين يقول فى مقدمة ديوانه .

« وقد يقف الناظر فى مجموعى هذا ، على وصف عذار الحبيب وخده ، ونعت ردفه وقده ، وشكوى عشقه وصده ، وذم الشيء وحمده ، ومدح الشخص لرفده ، وجزر القول ومده . فيظن لذلك بى الظنون غافلا عن قوله تعالى : « وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . وإنى إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة » .

عوامل النشاط :

ولكن مع هذا ، إذا تصفحت مجموع ما خلفه شعراء العصر ، يروعك من بينه كثير جيد جزل العبارة مليح الإشارة جديد المعنى مبتكر التعبير دقيق الدلالة على العاطفة ، صادق التصوير لما فى الضمير ، يتوثب فيه نشاط الشعراء توثباً .

ونرى أن العصر لم يخل من أسباب النشاط ، ومن ذلك :

١ — الفنية الشاعرة : ونعنى بها مواهب الشعراء الفطرية التى تدفعهم إلى نظم الشعر ، والتى تكمن فى نفوسهم كمون العطر فى الزهر . وقد تجردت فى هذا العصر من الاتصال بالرؤساء والحكام ومن الغايات الشخصية كحب المال

والجاه . لذلك اندفعت حرة طليقة تعبر بصدق عن أحاسيس أهلها ، وتسجل حوادث العصر ، وتنقد مواطن الضعف فى المجتمع ، وكأنها أصبحت هادفة إلى غاية ، وساعية إلى نهاية . — وقد ظهرت روح النقد الاجتماعى فى هذا العصر ظهوراً جلياً لم تظهره فى الشعر من قبل . وأقبل الشعراء على تسجيل حوادث عصرهم بدافع فطرى ، كما وصفوا أحوالهم الشخصية ومجالس مجونهم أوشكوا حرمانهم وشظف عيشهم بدافع نفسى . ولهذا كان شعرهم أقرب إلى الصدق ، وأدنى إلى التعبير عن الحق .

٢ — العلاقات الشخصية : ونعنى بها علاقات المودة والصداقة بين الأنداد . فإن كانوا من الشعراء اتخذوا هذه العلاقات وسيلة إلى قرض الشعر فى الإخوانيات . وقد انعقدت رابطة المودة بين كثير من أدباء العصر ، ففتحت أمامهم أبواباً مختلفة وهيئت لهم أغراضاً متعددة ، ومنها التهنئة والتعزية ، أو التشوق والحنين أو تبادل المدح والعتاب ، أو الاستدعاء والاستهداء أو الشكر والشكوى . هذا إلى المطارحات والمناقضات الشعرية ، والمفاكهات ، أو الملاغزة والمحاجاة .

ومن ذلك ما كان بين أبى الحسين الجزار والسراج الوراق . فكثيراً ما كانا يتطارحان الشعر ؛ وما كان بين ابن حجر العسقلانى والبدر العينى اللذين تبادلا الفكاهة والتورية ، وبين صفى الدين الحلى وجمال الدين بن نباتة اللذين تقارضا الثناء . وبين الناصر بن البارزى وتقى الدين بدر حجة ، والأول دفع الثانى إلى نظم بديعيته .

٣ — المنافسة الأدبية : وتذكيها الفنية الشاعرة أيضاً ، والغيرة والرغبة فى الظهور ، وحب السبق ، وقطع الفراغ فى الكسب الأدبى . وقد حمى وطيس هذه المنافسة بين شعراء عصر المماليك ، حتى دفعهم ذلك إلى المطارحات والمعارضات الشعرية ، ودفعهم إلى نظم اللغز أو جوابه . بل دفعهم أحياناً إلى الملاحاة وتبادل الأهاجى . وقد وقع ذلك بين شعراء مصر والشام ، أو بين بعض أحد الشعراء والآخر .

وقد وقع بين ابن نباتة والصفدى من المنافسة ما اشتهر خبره . وكان الصفدى يسطو على بعض الجديد من شعر ابن نباتة . فإذا نظم ابن نباتة أبياتاً تلقفها الصفدى وغير فى بعض لفظها أو معناها ونظمها لنفسه . وبسبب ذلك تبادل الاثنان الهجاء المر ، ثم ألف ابن نباتة كتابه « خبز الشعير » الذى أشرنا إليه وبين فيه سرقات الصفدى .

وروى ابن حجر فى الدرر : أن حسن بن محمد الأصفونى الشاعر المتوفى بعد سنة ٧٢٠ هـ ، كانت بينه وبين معاصره نبيه الدين عبد المنعم ، محاورات ومراجعات حتى إن أهل عصرهما يشبهونهما بالجزار والوراق .

٤ — الولوع بالبديع : كان هذا العصر — على نحو ما بينا — عصر الولوع بالبديع حتى إنه أصبح هو البلاغة فى نظر الأدباء . فكان له أثره البالغ فى إذكاء الروح الشعرية والمنافسة الأدبية معا ، إذ كان هم كثير من الشعراء أن يقع خاطرهم على لفظ أو تركيب ينبثق منه معنى جديد ، مع المجانسة أو المطابقة أو المقابلة أو التورية أو نحو ذلك . ولهذا راج نظم البيتين والثلاثة والمقطوعة ، التى تتضمن أحد المعانى المبتكرة العابرة الجزئية ، والتى تحتوى على ضرب أو أكثر من ضروب البديع . وهذا ، وإن كان لونا من ألوان الفكر أو التعبير ، كان فيه صارف عن الفكرة العامة المكتملة التى تحتاج إلى تفصيل ، وعن الفكرة الهادفة النبيلة التى تشير إلى غاية . ومهما يكن من شىء فقد كان هذا العامل من أسباب حفزهم إلى نظم الشعر .

٥ — تشجيع بعض السلاطين والأمراء والوزراء وبصر بعضهم بالشعر : ونذكر هذا العامل أخيراً لأنه لم يكن أبرز الأسباب الحافزة إلى نظم الشعر : ولكننا نسجله هنا معترفين أن حوادثه كانت فردية ، ولم تكن سياسة عامة ، كما كان الشأن فيما مضى . وكانت مظاهر التشجيع : سماع الشعر والإثابة عليه ورفع منازل الشعراء .

ومن أبرز الحوادث فى هذا الباب ما لقيه ابن نباتة وصفى الدين الحلى من الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة المعروف بأبى الفداء ، من عناية ورعاية ،

ورفع منزلة وهدايا ومرتبات . فقد كان هذا الملك — وهو من بقايا الأيوبيين — مشغوفا بالأدب العربى محتفيا برجاله حريصا على تقريب الشعراء والعلماء فكانت حاشيته غاصة بهم . وممن وفد عليه وأقام لديه مدة ، هذان الشاعران الكبيران لخلا عصرهما ، فأغدق عليهما . ولذا انطلق لسانهما بشكره وذكره وتخليد أثره . وفى ديوان ابن نباتة قصائد لا عدد لها فى مدح المؤيد وابنه الملك الأفضل ، وهى من أجود الشعر ، ومن أجود ما نظم ابن نباتة .

وروى أن ملك مصر الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون كان أيضاً يحب أهل الأدب والشعر ، وقد قرّب إليه الشاعر شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، فمدحه الشاعر المذكور وألف بإشارته عدة كتب منها « ديوان الصبابة » ومن مدحه قوله .

هو الناصر المنصور والعادل الذى ... يباطنه ما جاز فى الملك ظاهره

له فى سبيل الله خير ذخيرة ... وحسن الثنا بين الملوك ذخائره

جزى الله عنه مصر ما هو أهله ... فكم أمنت فى قطرها من يجاوره

وقرّب إليه أيضاً الشاعر ابن نباتة واستكتبه ديوان شعره . فقال ابن نباتة :

يأيها الناصر السلطان لا غمضت ... عين لها عن سنا مرآك سلوان

كم فى ملوك الورى فضل ومعرفة ... كانوا ، ومثلك فى ذا النحو ما كانوا

إن يمض كسرى فكم إيوان معدلة ... لديك قد زانه يمن وإيمان

أمرت شعرى ياخير الملوك على ... أشعار قوم فلى أمر وديوان

ولابن نباتة هذا خبر طويل مع أبناء فضل الله العمرى وزراء الشام وكتاب سره ، فقد لجأ إليهم من بؤسه واستجار بهم من ليالى أحزانه ، فأجاروه وأثابوه فخلد ذكرهم بمدائح باقية بقاء الدهر . واشتهر الملك المؤيد شيخ سلطان مصر بحب الشعر ونظمه ورفع منزلة أهله وقد قرّب إليه الشاعر الأديب تقى الدين بن حجة الحموى ، فمدحه ابن حجة وسجل بعض حوادثه .

وكذلك كان السلطان الغورى يفهم الشعر العربى ويحب سماع الغناء وقراءة

دواوين الأشعار . وروى أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون كان أيضاً يفهم الشعر وينقده ، ولما فتح عكا عام ٦٩٠ هـ وعاد إلى مصر فزينت له القاهرة واحتفى به الناس واجتمعوا له بالقبة المنصورية ، قام نجم الدين بن العنبرى الواعظ — وكان شاعرا — فصعد منبراً لينشد قصيدة فى مدح الملك وذكر جهاده فكان فى مطلعها قوله :

زر والديك وقف على قبريهما فكأننى بك قد نقلت إليهما

فتطير الأشرف من هذا البيت ونهض واقفاً وانصرف .

هذه الحوادث وأشباهها مما له أثر فى تنشيط الشعراء وحفز قرائحهم ودفعهم إلى تجويد أشعارهم .

أغراض الشعر

اتسع نطاق الشعر فى هذا العصر اتساعاً كبيراً وتناول الشعراء منه أغراضا عدة ، بل ما تركوا بابا منه إلا طرقوه ولا سبيلا إلا مشوا فيه . وإليك أشهر هذه الأغراض ونماذج منها :

١ — المدح :

إنما يطرب الشاعر ويهتز خاطره للمديح إذا وجد من عظماء زمانه ما يستأهل ذلك ، وربطته بهم صلة مودة وتقدير ، وانبروا فى غير ضن يفيضون عليه بالعطاء وحسن الجزاء . وقد أشرنا من قبل إلى عجمة حكام ذلك الزمان وأن قليلا منهم من يقدر الشعر العربى قدره ، ومن يسنى عنده منازل الشعراء .

ولكن على الرغم من ذلك ، ظهر فن المدح بدافع من العوامل الفردية والصلات الشخصية . وقد نوهنا بمنزلة ابن نباتة لدى المؤيد صاحب حماة ، ولدى أبناء فضل الله العمرى وزراء الشام ، ولدى الناصر حسن ملك مصر ، ونوهنا بمنزلة صفى الدين الحلى لدى المؤيد المذكور أيضاً . وقد مر صفى الدين بمصر آنا فاحتفل به علاء الدين بن الأثير كاتب السر إذ ذاك فى عهد الناصر

محمد بن قلاوون ، واحتفى به الناصر المذكور . فكانت لهذه الظواهر أثرها الطيب فى بروز فن المدح فى شعر هذين الشاعرين الكبيرين . ومن شعراء المدح كذلك ، الشاب الظريف فقد مدح القاضى محي الدين بن عبد الظاهر ، والتقى به حجة فقد مدح المؤيد شيخا ومدح ناصر الدين بن البارزى كاتب سره .

وكانوا إذا مدحوا الملوك أو الأمراء وصفوهم بالكرم والبذل ، وبالشجاعة والفروسية ، وبالنصر على الأعداء وبحسن التدبير وثقوب الرأى . وإذا مدحوا الوزراء والكتاب وجدوا سعة من القول وفسحة من التشبيه فى ذكر الأقلام والطروس وثمار الأفكار وصواب الآراء ، وربما أتوا فى هذا الميدان بما لم يأت به الأوائل . وكثيراً ما قدموا المدح بالغزل أو وصف الخمر ترويحاً للنفس ، أو خلطوه بالحماسة .

ومن ذلك قصيدة للشاب الظريف يمدح القاضى محي الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء . قال فى مطلعها متغزلا :

أرح يمينك مما أنت معتقل	أمضى الأسنة ما فولاذه الكحل
يا من يرينى المنايا واسمها نظر	من السيوف المواضى واسمها مقل
ما بال ألحاظك المرضى تجاوبنى	كأنما كل لحظ فارس بطل

ومنها فى المدح :

أغر ما أبدت السحب الحيا لسوى	تقصيرها عن نداه حين ينهمل
يد لها كم يد من قبلها سبقت	يد وكم من يد من بعدها تصل
توحى إلى كل قرطاس بلاغته	سحر البيان ومن أقلام الرسل
سمر تروقك رأى العين عارية	ومن بديع معانيه لها حلل
من الأسنة فى أطرافها سنة	لولا النضارة قلنا إنها ذبل
من كل معتدل كالميل إن رمدت	عين المعالى ففيها نفسه كحل
فللعداة لديه كل ما حذروا	وللعفاة عليه كل ما سألوا

ومدح تقى الدين بن حجة الحموى المقر الأشرف السيفى الأمير تمربغا الأفضلى فقال من قصيدة طويلة :

إن أبرقت فى سما الهيجا صوارمه　　رأيت غيث دما الأبطال قد مطرا

فمن رأى منهم برقا يلوح له　　يظنه سيفه الماضى قد اشتهرا

له مطالعة فى الحرب حين يرى

دم العدى فوق طرس الأرض قد سطرا

إن راسل القوم أنشا فى رسائله　　سجعات ضرب بها الهامات قد نثرا

٢ — الوصف :

انصرف أكثر شعراء العصر إلى الوصف . فلم يتركوا شيئا مما وقع تحت حسهم فى البيئة المصرية أو الشامية إلا وصفوه . فوصفوا مرائى الأرض ومناظر السماء وحدائق مصر وبساتين الشام وماتحتوى عليه من جداول ونواعير وأزهار وثمار وأطيار ، ووصفوا النيل وفيضانه ووفاءه وخلجانه وكسره وزوارقه ، ووصفوا أسلحة الحرب وأدواتها من خيول وسهام وسيوف ورماح ووصفوا الكتابة ومايتصل بها من أقلام أو بلاغة ووصفوا العادات والتقاليد وحوادث الأيام ، والشيب وبياضه والأنس ومجالسه ، والمنازل ورياشها وأوانيها ، إلى غير ذلك . ومن وصاف الطبيعة ومناظر الربيع خلا هذا العصر : الجمال بن نباتة والصفى الحلى ، وكذلك فخر الدين بن مكانس الذى وصف « سرحة النيل » وصفا حسيا ونفسيا بارعا .

ومن الوصف قول الصفدى فى روضة :

فى روضة علم أغصانها　　أهل الهوى العذرى كيف العناق

هبت بها ريح الصبا سحرة　　فالتفت الأغصان ساقا بساق

ولبدر الدين الذهبى يصف حمامة :

وتنبهت ذات الجناح بسحرة　　بالواديين فنبهت أشواقى

ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن اسحق
قامت تطارحني الغرام جهالة من دون صحبي بالحمى ورفاقي
أنى تباريني جوى وصبابة وكآبة وأسى وفيض مآقي
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى وهى التى تملى من الأوراق

ولصفى الدين الحلى يصف الزنبق والورد :

قد نشر الزنبق أعلامه وقال كل الزهر فى خدمتى
لو لم أكن فى الحسن سلطانه ما رفعت من دونه رايتى
فقهقه الورد به ساخرا وقال : ماتحذر من سطوتى
وقال للسوسن : ماذا الذى يقوله الأشيب فى حضرتى
فامتعض الزنبق من قوله وقال للأزهار يارفقتى
يكون هذا الجيش بى محدقا ويضحك الورد على شيبتى ؟

ولابن نباتة المصرى قصيدة طويلة جدا تسمى «مصائد الشوارد» فى وصف رياض حماة وغاباتها وخروجه مع الملك الأفضل للصيد ، ووصف غلمان الصيد وجوارحه وأدواته وطيوره إلى غير ذلك .

٣ — المديح النبوى :

راج هذا الغرض الشعرى فى عصر المماليك رواجا ملحوظا ، ولعل ذلك يرجع إلى جملة عوامل منها أن العصر كان عصر تعصب إسلامى وغيرة دينية واسعة بسبب حروب الصليبيين والتتار وطمعهم فى أملاك المسلمين والقضاء عليهم وعلى دينهم . ومنها أن العصر كان عصر ظلم وإرهاق واستبداد من الحكام ، فلاذ الشعب يبث آلامه وبالتوسلات إلى الله سبحانه أن يكشف عنه الغمة ، وأشرف ألوان التوسلات ذكر النبى الكريم والتشفع به إلى الله .

وهناك عامل آخر وهو إعجاب الشعراء ببردة البوصيرى التى وجهت المديح

النبوى وجهة جديدة لم تكن له من قبل ، فعارضوها بقصائد ضمنوها ألوانا من البديع وسموها « البديعيات » . والوجهة التى أشرنا إليها هى استخلاص المديح النبوى من النزعات السياسية ، وقصره على إظهار الحب للنبي عليه السلام ولمواطنه ، وعلى الحديث عن سيرته الشريفة ، ثم التقرب به إلى الله .

ومن رجال المديح النبوى — عدا البوصيرى — الشاب الظريف وابن نباتة المصرى ، وابن حجر العسقلانى ، وأصحاب البديعيات ومنهم صفى الدين الحلى الذى ينسب البعض إليه ابتكار البديعيات ، وعز الدين الموصلى وتقى الدين ابن حجة الحموى .

ومن بردة البوصيرى :

أمن تذكر جيران بذى سلم　　مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة　　وأومض البرق فى الظلماء من إضم

ومنها فى المديح :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى　　أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى　　تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب　　عن نفسه فأراها أيما شمم .. الخ

ومن مديح الشاب الظريف :

أرض الأحبة من سفح ومن كثُبِ　　سقاك منهمر الأنواء من كثَب
ولا عدت أهلك النائين من نفس الـ　　ـصبا تحية عانى القلب مكتئب
قوم هم العرب المحمى جارهم　　فلا رعى الله إلا أوجه العرب
أعز عندى من سمعى ومن بصرى　　ومن فؤادى ومن أهلى ومن نسبى

ومنها :

يا ساكنى طيبة الفيحاء هل زمن　　يدنى المحب لنيل السحب والأرب

ضممت أعظم من يدعى بأعظم من يسعى إليه أخو صدق فلم يخب
وحزت أفصح من يهدى وأوضح من يبدى وأرجح من يعزى إلى نسب ...الخ

٤ — الفخر والحماسة :

فخر الشعراء فى ذلك العصر ، بشعرهم وسحر بيانهم ، ودفعتهم الحروب المشبوبة بين المماليك وأعداء بلادهم وما حازوا من انتصارات ، إلى وصف هذه الحروب وتسجيل ما دار فيها من الحوادث والوقائع ، ووصف ما استعمل فيها من سلاح ، وما كان فيها من نصر مصر ، وهزيمة أعدائها . وخلط بعضهم الحماسة بالغزل فكان غزلا محمساً طريفا على نسق غزل عنترة . ومن الطريف أن الظاهر بيبرس لما انتصر على التتار بضفاف الفرات وهزمهم شر هزيمة تبارى كثير من الشعراء فى وصف هذه الواقعة ، منهم محيي الدين بن عبد الظاهر ، وبدر الدين يوسف بن المهمندار . وناصر الدين حسن بن النقيب والشهاب محمود الحلبي ، وموفق الدين الوزان وغيرهم . هذا ومن فرسان الحماسة أيضا صفى الدين الحلى .

ومن شعر محيي الدين بن عبد الظاهر فى حرب التتار :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا
وجاءوا إلى شط الفرات وما دروا بأن جياد الخيل تقطعها وثبا
وجاءت جنود الله فى العدد التى تميس لها الأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد سباحة إليهم فما اسطاع العدو له نقبا

ومن شعر الشهاب الحلبي فى هذه الموقعة يمدح بيبرس مدحا محمسا قوله :

لما تراقصت الرءوس وحركت من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بسابح أقصى منى هوج الصبا من نعله الآثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى بحرا سواك تقله الأمطار
وتقطعت فرقا ولم يك طودها إذ ذاك إلا جيشك الجرار

٥ ـــ الغزل:

خاض الشعراء فى ميدان الغزل وأكثروا من نظمه ، إما فى مفتتح قصائد المديح أو فى قصائد مستقلة ومقطعات قصيرة . وقد دفعهم إلى ذلك ، حياة اللهو وحب التسلى والرغبة فى التعبير عما فى النفس ، أو تقليد القدماء ، وإذا بدا لنا أن غزل بعضهم كان صادراً عن عاطفة صادقة كالشاب الظريف والفخر ابن مكانس ، فإن غزل البعض كان تقليداً ومحاكاة ، أو تمريناً للقريحة كزين الدين ابن الوردى وابن حجر العسقلانى الفقيه الحافظ .

ومن أبرع شعراء الغزل الشاب الظريف وجمال الدين بن نباتة ، والصفى الحلى . والسراج الوراق . ونذر أن ترى شاعراً ليس له فى الغزل باع . ولو ينظم فيه البيت والبيتين يضمنهما لوناً من ألوان البديع .

وتناولوا فى غزلهم الأوصاف الحسية والنفسية معاً ، وخلطوا الغزل أحيانا بوصف الخمر ، فكان غزلا خمريا ، وتغزلوا فى المؤنث والمذكر على حد سواء.

ومن غزل العلامة الأديب فتح الدين محمد بن سيد الناس :

قضى ولم يقض من أحبابه أربا ... صب إذا مر خفاق النسيم صبا
راض بما صنعت أيدى الغرام به ... فحسبه الحب ما أعطى وما سلبا
لا تحسبن قتيل الحب مات ففى ... شرع الهوى عاش للإخلاص منتسبا
فى جنة من معانى حسن قاتله ... لا يشتكى نصباً فيها ولا صبا

ومن غزل الشاب الظريف :

لى من هواك بعيده وقريبه ... ولك الجمال بديعه وغريبه
يامن أعيذ جماله بجلاله ... حذراً عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عينى فإنك نورها ... أو لم تكن قلبى فأنت حبيبه
هل حرمة أو رحمة لمتيم ... قد قل فيك نصيره ونصيبه

ومن غزل ابن نباتة يعارض المتنبي فى قصيدته التى مطلعها :

أرق على أرق ومثلى يأرق   وجوى يزيد وعبرة تترقرق

قال ابن نباتة :

ما بت فيك بدمع عينى أشرق   إلا وأنت من الغزالة أشرق
أنفقت عينى فى البكاء وحبذا   عين على مرأى جمالك تنفق
وتكاثرت فى الجفن أنجم أدمعى   فكأن غرب الجفن منى مشرق
وأخافنى فيك العذول وما درى   أنى لجورك فى الهوى أتشوق .. الخ

وقد فضل ابن حجة هذه الأبيات على أبيات المتنبي .

٦ — الخمريات :

شأنها شأن الغزل ، تتقدم أبيات المديح ، أو تنظم فى قصائد أو مقطوعات مستقلة ، ويدفع إلى نظمها حب اللهو والتسلى . وقد كان شرب الخمر متفشياً إذ ذاك ، واندست فى المنازل والأديرة ، حتى اضطر بعض السلاطين كبيبرس إلى محاربتها . وقد وصفها الشعراء فأبدعوا فى وصفها هى وما يتصل بها من كئوس ومجالس وغلمان وندامى وقيان .

وقد قال ابن نباتة فأجاد :

من عذيرى من الطلى والأغانى   وليال مرت على حلوان
ذهبت بالذى ملكت من الما   ل كأنى سبيكة فى القنانى
ونديم يسعى بكأسيه مسعى   قمر التم حوله الفرقدان
أهيف قسمت لواحظه الو   د زكاة الغنى على الغزلان
يتثنى وحليه يتغنى   هل سمعت الحمام فى الأغصان
وغوان تغنى عن الطيب والحلـ   ـى لهذا تسمى الملاح غوانى
ضاربات الدفوف فى جيش لهو   طاعنات الهموم بالعيدان

يا نديمى فى المدام فـداء لـكما فى المدامة العـاذلان
خلقا البيت بالكئوس سرورا واشرباها صفراء كالزعفران
واسقيانى فإن تشكيت داء فاسقيانى إن شئتما تشفيانى

٧ — الرثاء:

حذا الشعراء فيه حذو أسلافهم ، ورثوا من مات من الملوك والعلماء والأدباء ، وذكروا مناقبهم وتفجعوا لموتهم ، وأحر ما كان رثاؤهم إذا حركته عاطفة أو وشيجة صداقة ومودة . وكثيراً ما خاطبوا القبور واستمطروا عليها الغيث وصيب الرحمة واستوصوها خيراً بسكانها .

ومن مراثى ابن نباته الموجعة قوله فى ابن له صغير :

الله جارك إن دمعى جارى يا موحش الأوطان والأوطار
لما سكنت من التراب حديقة فاضت عليـك العين بالأنهار
شتان ما حالى وحالك أنت فى غرف الجنان ومهجتى فى النار
خف النجا بك يا بنى إلى السرى فسبقتنى وثقلت بالأوزار . . . إلخ

ولبرهان الدين القيراطى يرثى بهاء الدين أبا حامد السبكى العالم الفاضل الأديب . قال من قصيدته :

مضيت فما وجه الصباح بمسفر وبنت فما ثغر الأقاحى بمفتر
وزلت فما ودق النوال بهاطل وغبت فما برق المنى باسم الثغر
وأوحش روض العلم منك وأفقه فذاك بلا زهر وهذا بلا زهر
تكاملت أوصافا وفضلا وسؤددا ولا بد من نقص فكان من العمر . إلخ

٨ — النقد الاجتماعى :

وهذا الغرض من محاسن شعراء العصر ، وهو دليل جرأتهم ، على رغم ما كان يحيق بهم وبالشعب . ودليل على ما كانوا يعانون من آلام ، وبرهان على

ثقوب بصرهم وسعة إدراكهم . وكانت وجهة الناقدين المصلحة العامة ، ولم يخشوا فى سبيلها أن يتناولوا حاكما أو عالماً أو قاضياً أو فرداً أو طائفة .

ومزجوا نقدهم بشيئين هما : تسجيل الوقائع والهجاء . ويعين هذا النقد على فهم حقيقة المجتمع المصرى حينذاك .

ومن النقد الاجتماعى قول شهاب الدين الأعرج فى الأتراك والأقباط واستئثارهم بالرزق :

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقل ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجهة لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها وللقبط نصف والخلائق فى السدس

ولناصر الدين بن النقيب فى بعض أهل الرياسة :

قالوا : فلان ناظر ، فأجبتهم ما ناظر إلا إلى أعطافه
لم يدر مسح الأرض قلت أزيدكم أخرى ولا مسح على أطرافه

ولشهاب الدين أحمد الأنصارى ينقد الشعراء :

مالى أرى الشعراء تكسب عارا بهجائهم وتحملوا الأوزارا
مدحوا الأخساء اللئام فضيعوا الأشعار لما أرخصوا الأشعارا

وللبوصيرى ينقد كتاب الدواوين ويذكر عبثهم فى أعمالهم :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو رجلا أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال هم جميعاً فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فكأنهم سرقوا العيونا

ومن آلم ألوان النقد وألذعها ، قصيدة نظمها الشاعر الأديب جمال الدين السلمونى أحد شعراء عصر الأشرف الغورى ، وقد هجا بها قاضى قضاة الحنفية

حينذاك عبد البر بن الشحنة . وقاسى الشاعر بسببها محنأعدة ، قال فى مطلعها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
أينكر فى الأحكام زور وباطل وأحكامه فيهـا بمختلفاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شبهاتهـا
أجاز أمورا لاتحل بملة بحل وبرم مظهرا منكراتها . . . الخ

والحق أن أغراض الشعر فىعصر المماليك تعددت وتنوعت إلى حد بعيد ويضيق المجال هنا عنأن نوفيها نصيبها من الحديث والتمثيل . ونكتفى بأن نقول إن من بينها مايلى :

التهنئةوالتعزية ، والألغاز والأحاجى ، والحنين والشوق والعتاب والشكوى والفكاهة والمجون والاستدعاء ونظم العلوم والفنون ، والاستجازة والإجازة والزهد والتصوف ، والنصيحة والمثل والحكمة . والقصص والتمثيل . ولكل غرض منها حديث طويل ، ونجتزىء هنا بذكر أمثلة لبعضها فمن ذلك :

١ — من القصائد التى جمعت بين التهنئة والتعزية ، قصيدة ابن نباتة يهنىء الملك الأفضل صاحب حماة باعتلائه عرش أبيه ، ويعزيه بموت أبيه . قال فى مطلعها :

هناء محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع شبيهان لايمتاز ذو السبق منهما
نرد مجارى الدمع والبشر واضح كوابل غيث فى ضحا الشمس قدهمى..الخ

٢ — ومن أبيات ابن الوردى فى شكوى الزمان وأهله وحسدهم :

ما للزمان عن المروءة عارى ماعنده فى منكر من عار
أشكو إلى الله الزمان فدأبه عز العبيد وذلة الأحرار
لا غرو إن حسدت بنوه مناقبى كل على مجرى أبيه جارى
وارحمتا للحاسـدين فنارهم قد سعرت ، بعداً لها من نار
وإذا جرى ذكرى تكاد قلوبهم تنشـق أو تغتالنى بشرار

كرهوا عطاء الله لى ياويحهم   لشقائهم كرهوا صنيع البارى . . . الخ

٣ — ومن قصيدة لتقى الدين بن حجة الحموى ، يتشوق ، وهو فى مصر إلى بلده حماة مخاطبا نسيم الصبا :

عرج على وادى حماة بسحرة   متيمما منه صعيدا طيبا
واحمل لنا فى طى بردك نشره   فبغير ذاك الطيب لن أتطيبا
واسرع إلى وداو فى مصر به   قلبا على نار البعاد مقلبا
لله ذاك السفح والوادى الذى   مازالروض الآنس فيه مخصبا

٤ — ومن حكم ابن الوردى الساخرة ، يتحدث عن الحظ ، قال :

لا تحرصن على فضل ولا أدب   فقد يضر الغنى علم وتحقيق
ولا تعد من العقال بينهم   فإن كل قليل العقل مرزوق
والحظ أنفع من خط تزوقه   فما يفيد قليل الحظ تزويق
والعلم يحسب من رزق الفتى وله   بكل متسع فى الفضل تضييق
أهل الفضائل والآداب قد كسدوا   والجاهلون لقد قامت لهم سوق
والناس أعداء من سارت فضائله   وإن تعمق قالوا عنه زنديق

ألفاظ الشعر وأساليبه

إذا كان الشعر صنو النثر ، فلا غرابة أن سار فى الطريق الذى سار فيه ، من توخى البديع والعناية بأنواعه ، وخضع فى جملته للمنهج الفاضلى وقيوده ، وعلت لديه منزلة التورية . غير أن الشعر كان ينعم بحرية لم تنعم بها الكتابة ، فقد تقيدت الكتابة برسوم ديوان الإنشاء ومنهج أهله فى أساليبه ومصطلحاته فانساقوا إلى هندسته ليجعلوا منه فنا صناعيا معجبا له أهميته عند الرؤساء والحكام . والشعر كان بمنأى عن ذلك ، ولهذا خلص من كثير من العقادة والتكلف الباديين كالكلف فى وجه الكتابة . ونجمل لك الظواهر الغالبة المتفشية فى ألفاظ الشعر وأساليبه ، فمنها :

١ — السهولة : ونعنى بها البعد عن المستوى الجزل ، واستخدام أيسر الألفاظ والأساليب التى لا تتأبى على فهم العامة، وتجافى الغريب والمعقد منها ، فأصبحت معانيها سافرة لاغموضة فيها ، بل أصبح بعضها مرقصاً مطرباً . وبهذه السهولة وبهذا الوضوح صار الشعراء أقرب إلى تمثيل أجيالهم . والشعب المصرى مفطور على هذه الدعائم فى تعبيره .

وهذا لا يمنعنا القول من أن بعض الشعراء سهل أسلوبه إلى حد الضعف ، وأن بعضهم جزل أسلوبه إلى حد العودة إلى أساليب الفحول . وقد رأيت كثيراً من نماذجه . وإليك أمثلة أخرى :

فمن رقيق شعر ابن نباتة قوله متغزلا :

لا وخمـــر بابليــة   فى ثنـــايا لؤلؤية
لا رقى سفح دموعى   فى هوى تلك الثنية
ربع سلوانى خراب   وشجـونى عامـــرية
حربى من ذات حسن   باسم تبكى البرية
غادة يروى لماها   عن صحاح جوهرية
من بيوت الترك ترمى   عن قسى عربيـة ...الخ

ومن الشعر الجزل ذى اللفظ الغـريب قول صفى الدين الحلى فى وصف الخيل :

لمن الشوازب كالنعام الجفل   كسيت جلالا من غبار القسطل
يبرزن فى حلل العجاج عوابسا   يحملن كل مدرع ومسربل
شبه العوانس تجتلى فكأنها   فى الخدر من ذيل العجاج المسبل
فعلت قوائمهن عند طرادها   فعل الصوالج فى كرات الجندل.. الخ

٢ — اصطناع البديع : كان العصر عصر الزخرف والتمويه . فنضح ذلك على أساليب الشعر ، وأصبحت الألوان البديعية من أهم دعائمها ، استجابة لروح

العصر وتأثراً بظروفه وملابساته . وأصبح هم كثير من الشعراء إظهار تورية أو طباق أو مقابلة أو استخدام أو جناس أو براعة استهلال أو تضمين والاقتباس والاكتفاء أو نحو ذلك من الألوان . وأبدع بعضهم فى هذا الباب إبداعاً مقطوع النظير . وأحص ما عنوا به التورية والاستخدام ، وقد قال ابن حجة الحموى عن التورية فى خزانته : « هذا النوع — أعنى التورية — ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب . ولعمرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب التورية . فإن التورية من أغلى فنون الأدب ، وأعلاها رتبة . وسحرها ينفث فى القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة . وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول . ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول » .

ونظلم كثيراً من شعراء التورية والبديع إذا حكمنا على شعرهم بأنه صناعة لفظية فحسب ، دون رعاية للمعانى ، فإن ذلك يحتاج منا أولا إلى دراسة واسعة دقيقة ، حتى نرى أكانوا يعنون فى صناعتهم بالمعانى أم كانوا منصرفين إلى اللفظ فحسب . نقول ذلك لأن أغلبهم تجافى عن المحسنات اللفظية وبخاصة الجناس . ومذهب ابن نباتة وابن حجة فيه ، هما ومن مشى تحت رايتهما ، أنه محسن لفظى ولا يخرجه عن عقادته إلا مزجه بالتورية . أما صلاح الدين الصفدى فقد أغرم بالجناس وملأ به شعره ونثره ، على نحو ما نوهنا عند الحديث عن النثر . كما أن لصفى الدين الحلى جناسات كثيرة غير موفقة ، ولكن يعزى هذا لا إلى ولوعه بالجناس ، بل برغبته فى تكلفه — وإليك بعض الأبيات البديعية :

(ا) فمن براعة الاستهلال قول ابن نباتة :

فى الريق سكر وفى الأصداغ تجعيد　　هذى المدام وهاتيك العناقيد

ولعلاء الدين الوداعى :

بدر إذا ما بدا محياه　　أقول : ربى وربك الله

وللصفى الحلى .

قفى ودعينا قبل وشك التفرق فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى

(ب) ومن الجناس الخفيف قول الشاب الظريف :

يحكى الغزال نظرة ولفتة منذا رآه مرة ولا افتتن
أحسن خلق الله وجها وفما إن لم يكن أحق بالحسن فمن

وقول بهاء الدين السبكى :

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى حتى تعود لى الحياة وأنت هى

(حـ) ومن التورية قول ابن نباتة مع التضمين :

وضعت سلاح الصبر عنه فماله يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله
وسال عذار حول خديه جائر على مهجتى فليتق الله سائله

ولمحيي الدين بن عبد الظاهر :

ياسيدى إن جرى من مدمعى ودمى للعين والقلب مسفوح ومسفوك
لا تخش من قود يقتص منك به فالعين جارية والقلب مملوك

ومن جناس التورية قول بدر الدين الدمامينى يمدح ابن حجر :

حمى ابن على حوزة المجد والعلا ومن رام أشتات المعالى وحازها
وكم مشكلات فى البيان بفهمه تبينها من غير عجب ومازها

(ء) ومن التضمين ، وقد كانت له حينذاك دولة وصولة ، قول الشاب الظريف :

وأهيف فاق الورد حسناً بوجنة أنزه طرفى فى رياض جنانها
كأن بها من حول خاليه جمرة «تشب المقرورين يصطليانها»

(هـ) ومن الاقتباس قول محيي الدين بن عبد الظاهر :

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذى أتلو لهم : يا ليتنى كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

(و) ومن الاستخدام قول ابن نباتة :

سقى الله أكناف الغضا سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر
وعيشاً نضا عنه الزمان بياضه وحلفه فى الرأس يزهو ويزهر

هذه الألوان البديعية وغيرها امتلأت بهاجعاب الشعراء ، وصارت ميداناً لتسابقهم ومقياساً لبراعتهم وميزاناً فى يد النقاديزنونهم به ، وترى ذلك ماثلا فى نقدات ابن حجة فى خزانة أدبه .

وكانت عنايتهم بالبديع فى مقدمة الأسباب التى دفعتهم إلى الإكثار من المقطوعات والموشحات ، وإلى المطارحات والمعارضات ، بل وإلى السرقات بعضهم من البعض . وقد بسط ابن حجة كثيراً من أخبار هذه السرقات فى خزانة أدبه ، وروى عن سرقات ابن نباتة من العلاء الوداعى ، وعن سرقات الصفدى من الجمال بن نباتة .

ومن أهم فنون الشعر الجديدة فى هذا العصر ، التى تعتبر وليدة العناية بالبديع : فن البديعيات .

والقصيدة البديعية يتضمن كل بيت منها لوناً من البديع على الأقل ، ويتضمن أحيانا اسم هذا اللون ، والغالب أن موضوع القصيدة هو المديح النبوى . وقد كانت بردة البوصيرى المشهورة مصدراً من مصادر الوحى لشعراء البديعيات ، وعارضها بعضهم وزناً وقافية . ولم يعرف بالضبط أيهم ابتكر هذا الفن الجديد أهو ابن جابر الأندلسى المتوفى سنة ٧٨٠ هـ أم صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ . على أن كلا من الرجلين فتح الباب على مصراعيه فولجه من بعده كثير من الشعراء ، حتى صار لفن البديعيات دولة تكاد تكون مستقلة . ومن رجالها عز الدين الموصلى وتقى الدين بن حجة وعائشة الباعونية . ومطلع بديعية الصفى الحلى :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم
وقر السلام على عرب بذى سلم

ومطلع بديعية ابن حجة :

لى فى ابتدا مدحكم ياعرب ذى سلم　　براعة تستهل الدمع فى العلم

٣ — الميل إلى الفكاهة والنكتة :

بدا هذا الميل واضحاً فى أساليب الشعراء ، واتخذوا أحيانا التورية والتلميح والتوجيه والجناس وغيره، وسيلة إلى ذلك . وبدت فكاهاتهم ونكتهم فى جملة أغراض شعرية منها: الشكوى والنقد الاجتماعى والألغاز وغيرها . وإذا عرفنا أن الفكاهة والنكتة من أهم دعائم الأسلوب الشعبى فى مصر والشام ، رأينا إلى أى حد كان تجاوب شعراء العصر مع بنى وطنهم ، وإلى أى مدى كانوا متأثرين بهم حتى فى دعائمهم الأسلوبية . وهذه مفخرة لهم يسعى إليها الشعراء فى العصر الحديث فهل يبلغونها ؟ ومن فكاهاتهم :

قول أبى الحسين الجزار فى زوجة أبيه وقد مات عنها :

أذابت كلى الشيخ تلك العجوز　　وأردته أنفاسها المردية

وقد كان أوصى لها بالصداق　　فما فى مصيبته تعزية

لأنى ما خلت أن القتيل　　يوصى لقاتله بالدية

وقول شمس الدين بن دانيال الموصلى يصف فرسه :

قد كمل الله برذونى بمنقصة　　وشانه بعد ما أعماه بالعرج

أسير مثل أسير وهو يعرج بى　　كأنه ـ ماشيا ـ ينحط من درج

فإن رمانى على فيه من عرج　　فما عليه ـ إذا مامت ـ من حرج

٤ — استعمال الكلمات العامية والدخيلة والعبارات والأمثال السوقية :

كثر هذا فى أساليب الشعراء حتى عد أحد عيوبهم ، واستدل بعض المؤرخين به على ضعف ثقافة الشعراء وقلة حظهم من الفصيحة وآدابها . والحق أن بعض شعراء العصر كانوا أميين فوقعوا فى هذا العيب بدافع أميتهم . ومع هذا

لم يسلم منه فحول الشعراء الذين يعتبر الطعن فى ثقافتهم جرأة على الحق والواقع، من أمثال الصفى الحلى والجمال بن نباته والبرهان القيراطى والصلاح الصفدى. فلعل من الإنصاف أن نعلل لهذه الظاهرة باندماج الشعراء فى الأوساط الشعبية وتأثرهم بها فكانوا، بمثل هذا العيب، ترجمانا لهذه الأوساط ومرآة لها، وأن نعلل لها أيضاً بجنوحهم نحو التظرف باستعمال اللفظ الشائع. — ومن أمثلة ذلك قول البوصيرى يشكو حالة أسرته إلى أحد الوزراء.

إليك نشـــكو حالنا إننا حاشاك من قوم أولى عسرة
فى قلة نحن ولكن لنا عائلة فى غاية الـــكثرة
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والإبرة

وقال ابن نباتة يشكو:

قل عونى على الزمان فأصبحـــت صبوراً على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن النا س فلا من يدى ولا من لسانى

ونحن حينما نحكم على بعض العبارات والأمثال بأنها عامية سوقية فى ذلك العصر البعيد، نستعين فى ذلك بعامية زماننا وما دار فيها وابتذل من الأساليب.

وعلى ضوء ما يحمل الشعر الفصيح من ألفاظ العامة وأساليبهم نستطيع الحكم على اللغة العامية المنتشرة حينذاك، وهى لغة تخاطب الجماهير.

٥ — الضرورات الشعرية والخروج عن اللغة:

الضرورات الشعرية كصرف ما لا ينصرف واستعمال ظروف الزمان والمكان من غير داع وقصر الممدود ومد المقصور، والقسم فى غير حاجة ونحو ذلك، مباحة للشعراء وليس فى ذلك عيب كبير. وإنما العيب فى الإكثار منها، وهو دليل على ضعف الشاعر عن امتلاك زمام الفصيحة وقصوره عن تصريف الشعر فيما ينبغى. وقد كثرت ضرورات الشعراء فى عصر المماليك بالنسبة إلى

من سبقهم . ومنهم من خرج عن اللغة فأخل بموازين الصرف أو قوانين النحو ، وعد ذلك فى جملة عيوب الشعراء . واعتقادنا أن الشعراء انساقوا إلى ذلك إما بدافع الأمية ، أو شدة اتصالهم بأوساط العامة ، كما عللنا فى البند السابق . ومن لطيف ما نظمه جمال الدين بن نباتة من هذه الأخطاء قوله من أبيات جيدة :

ساقىَ الراح بادكار لقاه لا عدمنا ذاك اللقا وسقاته
هاتِ كأسى وإن لحنت من السكر فلا تلحنى إذا قلت هاته

ففتح تاء « هاته » . ومن ضروراتهم قول نور الدين الإسعردى من قصيدة خمرية :

فدع رأى قوم كالدواب ولا تُدِر سوى درة كالكوكب المتوقد

ومن أخطائهم اللغوية قول الصفى الحلى من أبيات ينقض بها قصيدة لابن المعتز فى ذم الأمويين والعلويين :

وكيف يخصوك يوما بها ولم تتأدب بآدابها

حذف نون الرفع . وقول ناصر الدين بن النقيب :

ولما حللت الثغر زاد حلاوة وخليته أغلى من الشذر والدر

استعمل كلمة « خليته » بمعنى جعلته وصيرته .

معانى الشعر وأخيلته

إذا اعتبرنا الشعر مرآة لأهله ورجعا لبيئته وصدى لعصره ، وعرفنا لون الثقافة التى كانت منتشرة فى العصر ، وما اكتنفه من أحوال سياسية واجتماعية ، استطعنا إلى حد كبير أن نستنبط ما لمعانى الشعر وأخيلته من خصائص . وقد تبين لنا فيما سبق أن ثقافة العصر فى جملتها كانت دينية أدبية ، تدور أكثر ما تدور حول بعث القديم وإحياء الداثر ، ولم تتجه نحو الاشتغال بالفلسفة ، والتعمق وراء الفكرة ، ولا نحو العلوم الحضارية الأخرى كالطب

والفلك والهندسة . وحقاً كان هناك اشتغال بهذه العلوم ، ولكنه بجانب الدينيات والأدبيات لا يعد شيئاً مذكوراً ، وكان الاشتغال بالكيمياء يعتبر ضرباً من السحر أو الشعوذة ، يتقول الناس عليه . على أن الميل إلى الأدبيات إحدى طبائع الشعب المصرى من زمن بعيد ، ولهذا غلبت على معانى الشعر وأخيلته أمور وخصائص نجملها فيما يلى :

١ — قرب المعانى ووضوحها وسطحيتها ، والبعد بها عن الاتجاهات الفلسفية والتعمق إلا ما ندر .

٢ — سعة الخيال الشعرى المصور الواصف للبيئة المصرية والشامية ومحتوياتهما ، حسية وعقلية ، معتمداً على ألوان البيان من تشبيه ومجاز .

٣ — ترتيب المعانى الجزئية فى القصيدة الواحدة ترتيباً طبيعياً ، وإن لم يخرج فى جملته عن الأوضاع المأثورة .

٤ — تكرار المعانى القديمة ، وندرة الخروج عنها ولا سيما فى بابى المدح والغزل والخمريات . غير أن منهم من تصرف فيها بعض التصرف كتحويلها من الغزل إلى الهجاء مثلا ، ويكثر ذلك فى المعارضات والتضمينات .

وهذا كله لا يمنع وجود المعانى والأخيلة الجديدة المبتكرة ، ويكثر ذلك فى مقطوعاتهم البديعية .

٥ — الميل إلى السرقات من القديم والمعاصر ، وقد نوهنا بسرقات ابن نباتة من الوداعى وسرقات الصفدى من ابن نباتة .

٦ — الميل إلى التعمية والإبهام أحياناً ، ويكثر ذلك فى الألغاز والأحاجى .

هذا ، ولك فيما مر نماذج .

الشعراء

كثر عدد الشعراء فى ذلك العصر كثرة واضحة . وقد أحصيت منهم نحو مائتين ، ظهروا بالتتابع على مدى العصر ، وروت لهم كتب الأدب والتاريخ نصوصاً ، وذكرت من اشتهر له منهم ديوان أو أكثر . ودار الكتب المصرية عامرة ببعض هذه الدواوين ، ومنها ما لايزال مخطوطاً .

وكثيراً ما كان يتعاصر اثنان منهم ، أو جماعة فى حقبة من الزمن ، يبرزان أو يبرزون معاً فى الأدب والشعر ويكون بينهم من الغيرة والتنافس والتسابق والإنتاج ، ما بين الفرسان فى الميدان . وكما اقترن — مثلا — اسما شوقى وحافظ ، فى العصر الحديث . اقترن اسم الجزار والوراق . ثم الصفى الحلى وابن نباتة . وهكذا ، ومن الطريف أنه اجتمع فى جيل واحد سبعة شعراء ، كل منهم يلقب بشهاب الدين ، سطعوا جميعاً فى سماء القاهرة حتى أطلق عليهم القاهريون « السبعة الشهب » ، ومنهم شهاب الدين الحجازى المتوفى عام ٨٧٥هـ . ولم يخل ميدان الشعر فى أية سنة من سنى العصر على وجه التقريب ، من شاعر . ونستطيع القول إن العصر شهد ست حلبات من الشعراء ، وعلى رأس كل حلبة ، زعيم أو أكثر . وأن كل نصف قرن فيه شهد حلبة منها . وهى على التقريب :

١ — حلبة الجزار والوراق والبوصيرى وابن عبد الظاهر والشاب الظريف ومجير الدين بن تميم وبدر الدين الذهبى .

٢ — ثم حلبة الوداعى وابن دانيال الموصلى ونصير الدين الحمامى والشهاب الحلبى ، ثم الصفى الحلى والجمال بن نباتة والصلاح الصفدى وزين الدين ابن الوردى .

٣ — ثم حلبة القيراطى وابن أبى حجلة المغربى وعز الدين الموصلى وفخر الدين ابن مكانس ، وشهاب الدين بن العطار .

٤ — ثم حلبة تقى الدين بن حجة الحموى ، وشمس الدين بن كميل ، والنواجى ، وابن مباركشاه وابن حجر العسقلانى ، ومجد الدين ابن مكانس .

٥ — ثم حلبة الشهاب الحجازى والشهاب المنصورى وشهاب الدين بن أبى السعود ، وشهاب الدين بن صالح ، — وفى هذه الحلبة والتى سبقتها عاش السبعة النهب .

٦ — ثم حلبة آخر العصر ومن رجالها شمس الدين القادرى وجمال الدين السلمونى وعبد الباسط خليل الحنفى ، والناصرى محمد بن قونصوه وعبد القادر الدماصى وبدر الدين الزيتونى الشاعر الزجال .

خاتمتان

الخاتمة الأولى : فى الزجل :

الزجل هو شعر العامة ، ينظمه شعراؤه باللغة العامية ، ويعتبر الإعراب فيه من أشد عيوبه . . .

وقد راج الزجل فى عصر المماليك رواجاً كبيراً وذلك لجملة أسباب منها : عجمة الملوك والأمراء ، وهم إلى فهم شعر العامة أقرب منهم إلى فهم الشعر الفصيح ، ولذلك شجع بعضهم الزجالين ورفعوا منزلتهم وأثابوهم عليه مثل آل قلاوون وبرقوق . ومنها انتشار الأمية بين طبقات الشعب فكانت إلى سماع شعرها العامى أشوق وأنشط منها إلى سماع الشعر الفصيح .

وليس الزجل وليد الحياة الأدبية فى مصر بما يكتنفها من عوامل ، ولكنه ولد قبل ذلك ببلاد الأندلس وسرت عدواه إلى المشرق فى عصر المماليك ووجد سوقاً نافقة ، وزاد نفاقه فى أواخر العصر فى مصر ، ولهذا نشط الزجالون نشاطاً ملحوظاً وزاحموا الشعراء فى شتى أغراض الشعر الفصيح ، فنظموا الزجل فى الغزل والخمريات ووصف المناظر الطبيعية والنقد الاجتماعى وسجلوا

الحوادث العامة والحروب الناشبة ، وقالوه فى الفخر والحماسة ورثوا به الدول الذاهبة ، وأودعوا فيه فكاهاتهم ومجونهم إلى غير ذلك .

ومن أشهر زجالى مصر حينذاك قيم الزجل الكبير « خلف الغبارى » وتوفى فى أوائل القرن التاسع الهجرى وكان حاذقا فى نظم الزجل وأدخل عليه سمات الشعر الفصيح فى التصوير والتعبير وولج به أبواباً عدة . وكان متصلا ببرقوق ومنهم « علاء الدين على بن مقاتل الحموى » وكان معاصرا للحلى وابن نباتة ، وممن يفد على الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة وينشد بحضرته وينال عطاءه .

ومنهم بدر الدين الزيتونى الذى شهد عهد قايتباى والغورى ومات عام ٩٢٤ ﻫ .

وقداصطنع الزجالون الأساليب البديعية كالشعراء سواء بسواء ونوعوا فى قوافيه ما شاء لهم التنويع . وسموا أنواعه أسماء مختلفة فنها الموشح والمواليا والدوبيت وكان وكان والقوما .

وللزجل أهمية أدبية وتاريخية جليلة، فمنه نقف — ولو إلى حد — على حال اللغة العامية وصور تعبيراتها وما كانت تحتوى عليه من ألفاظ وأساليب وأمثال . ومنه نقف — ولو إلى حد أيضا — على الصور النفسية للشعب وعلى نبضاته فى مختلف وقائع حياته ، وربما كشف عما لم يكشف عنه الشعر الفصيح .

وإليك بعض الأمثلة :

١ — نظم الغبارى زجلية طويلة فى الغزل قال فى مطلعها موريا أوموجها :

جار حبيبى فقلت دا الحجاج حايجـــور أو يزيد

لو عدل عشت بو مسرور ويـكون الرشـــيد

٢ — ورثى الغبارى الأشرف شعبان سلطان مصر فكان مما قاله، وفيه تشبيهات عدة :

ضم الأشرف قبر ليت شعرى   هو لقنديل نور ضياه جامع
أو صدف فيه خالص الجوهر   أو فلك فيـــه غاب قمر طالع
أو نقول غاب فيه أسد ضارى   أو حفير جواه حسام قاطع
أو كناس فيه أحسن الغزلان   أو حمى فيه أفرس الفرسان
أو جسد فيه روح من الأرواح   أو سواد مقلة وفيه إنسان

الخاتمة الثانية : فى الأدب فيما وراء الشام ومصر .

لما دخل التتار بغداد وثلوا عرش الدولة العباسية زحفوا على بلاد الشام، ومن ثم أرادوا الزحف على مصر فأوقف المماليك سيلهم الجارف فانحسر إلى بلاد العراق وما والاها إلى الشرق .

وكان التتار قد خربوا ديار المسلمين وأبادوا كثيرا من ذخائرهم العلمية وذلك بدافع من جهلهم ووثنيتهم . ولما انحسر تيارهم عن الشام ومصر أنشئوا لهم دولا عدة فى العراق والجزيرة وفارس وأواسط آسيا، وكان يزحمهم فيها أمراء من الفرس أو قادة من الترك والأكراد، ومازالوا حتى قضى العثمانيون عليهم جميعا حوالى سنة ٩٢١ هـ .

وظل ملوكهم يكيدون للمسلمين وآدابهم زمنا، ثم دخل كثير منهم فى الإسلام وشرعوا من ذلك الحين يشجعون علماء الدين وبخاصة الشيعيون منهم وحاولوا إصلاح ما أفسدته يد أسلافهم، فظهر حينذاك بعض العلماء الذين لم يجدوا بدا من اتخاذ العربية لسانا لهم إذ لم تكن المغولية صالحة لعلم أو أدب . وبخاصة فى علوم الدين، فاستفادت العربية من ذلك فائدة تذكر، وبقيت لغة التأليف والتصنيف، وإن صار أسلوبها علميا جافا ومنطقيا مضنيا . وموضوعه المنطق أو الكلام أو البلاغة أو الفقه أو نحو ذلك . وشجع بعضهم الفلاسفة والحكماء وعلماء الرياضة والفلك .

وبقى فى تلك البلاد من يكتب أو ينظم بالعربية. ولكن ذلك لا يوزن بشىء إزاء ما كان بمصر والشام . وغثت الأساليب الأدبية ونصلت منها أصباغ البديع وحالت ألوانها إلا أقلام بعض المجيدين. ولم يبق من الخطب إلا الدينى المنبرى . وحلت لغات الحاكمين — فارسية أو تركية أو مغولية أو كردية — محل العربية فى التخاطب ، وراجت أسواق الزجل .

ومن علماء هذه النواحى : نصير الدين الطوسى « ٦٧٢ ﻫ » وكان مقربا من هولاكو ، وهو فيلسوف ورياضى وفلكى . وأبو عبد الله بن آجروم « ٧٢٣ ﻫ » وهو مشهور فى النحو . وسعد الدين التفتازانى « ٧٩١ ﻫ » كان عالما فى المنطق والكلام والبلاغة. والسيد الشريف الجرجانى «٨١٦ ﻫ» وله معجم يحدد فيه المعانى الاصطلاحية للألفاظ العربية . ومجد الدين الفيروزابادى « ٨١٧ ﻫ » صاحب معجم « القاموس المحيط » .

ومن الأدباء والشعراء : شهاب الدين التلعفرى « ٦٧٥ ﻫ » ويعتبره بعضهم من شعراء الشام لإقامته فى حلب زمنا . وعلاء الدين الماردينى ، ونظام الدين الأصفهانى ، وصفى الدين الحلى « ٧٥٠ ﻫ » وهو أبرع شعراء العراق ، وقد أضفناه من قبل إلى شعراء مصر والشام لكثرة تجواله بين ربوعهما .

العصر العثمانى

٩٢٣ هـ — ١٢١٣ هـ

العثمانيون وفتح مصر :

بينما كانت مصر فى أواخر عصر المماليك ترزح تحت نير الظلم والإرهاق والفتن ، إذ كان الأتراك العثمانيون قد أسسوا لأنفسهم بناء مشيداً وملكا وطيدا فى شبه جزيرة الأناضول ، وامتدت يدهم إلى جزء كبير من أوربا ، وفتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ ، واتخذوها مقراً لملكهم . ومازالت أطماعهم تتكاثر ، وشجاعتهم تفسح المجال أمامها حتى فتحوا بلاد الفرس . ثم بدا لهم أن يفتحوا مصر ، وكان ذلك فى عهد السلطان سليم الأول . وقد تم لهم فتحها فى سنة ٩٢٣ هـ الموافقة سنة ١٥١٧ م . وقد أبدى المماليك فى الدفاع عنها من ضروب البسالة والشجاعة ما سطره لهم التاريخ ، وبخاصة السلطان الغورى الذى قضى عليه فى معركة « مرج دابق » الفاصلة عام ٩٢٢ هـ . والسلطان طومان باى الذى شنق على « باب زويلة » . ودخل السلطان سليم هذه البلاد وأذاقها كثيراً من ضروب القسوة والفتك وسفك الدماء مما كان عادة له وطبيعة ، ومما لا يزال حتى اليوم له الأثر البغيض فى نفوس المصريين . ولبث العثمانيون بمصر قرابة ثلاثة قرون حتى جاءت إليها الحملة الفرنسية .

حالة مصر فى عهد العثمانيين :

كان من أهم أغراض العثمانيين من فتوحهم إظهار القوة وإخافة الناس وإخضاعهم لسلطانهم ، ولم يعنوا كثيراً بإصلاح مرافق البلاد الخاضعة ، وتدبير شئونها تدبيراً نافعا ، وإحلال الأمن وإقرار العدل فيها . لذلك كان حكمهم لمصر وبالا عليها . وكان جل همهم استنفاد مال البلاد وخيراتها وحملها غنيمة باردة إلى خزائنهم . زد على ذلك ما كان يقوم به أعوانهم من مماليك وولاة ورؤساء جند من إنزال الأذى والظلم بالناس . فرجعت البلاد القهقرى

وارتبكت أمورها واعتلت مواردها وتكاثرت فيها ضروب الفساد وساد الجهل وساءت الصحة العامة ، وأقفلت المدارس ونهبت دور الكتب ، وغاض معين الرزق عن الطلاب والعلماء ، فتضاءل عددهم ، ولم يبق منهم إلا بقية بين الحياة والموت ، تعيش بين جدران الأزهر . فاضطر كثير من الناس إلى الهجرة نحو ديار أخرى ، فنقص عدد السكان . وقد وضع السلطان سليم الحكم فى يد سلطات ثلاث متنازعة هى : الوالى ومجلسه والمماليك ، فزادت الفتن والمؤامرات ، ولم ينقذ البلاد من شرها ما حاول بعض المماليك من إعادة الاستقلال إليها . وأهم الأحداث التى تهمنا هنا ما يأتى :

١ — نقل السلطان سليم معه إلى القسطنطينية الخليفة المتوكل على الله العباسى واستنزله عن الخلافة ، وبذلك انتقلت إلى العثمانيين ، وأصبحت القسطنطينية العاصمة الدينية للمسلمين ، ومن ثم صارت مركزاً للعلوم الإسلامية .

٢ — استولى العثمانيون على أموال البلاد وأوقافها وما كان موقوفاً منها على المساجد وعلمائها وطلابها .

٣ — وحملوا معهم آلافاً من الكتب التى كانت دور العلم بمصر عامرة بها ، وأودعوها خزائن القسطنطينية ، وفيها تاريخ مصر وأدبها وجهود أبنائها فى نحو ثلاثة قرون .

٤ — ونقلوا إلى عاصمتهم كثيراً من علماء مصر وصناعها ، وقيل بلغ عددهم ١٨٠٠ رجل ، وبذلك حرموا مصر أهم دعائم العلم والأدب والصناعة بها .

٥ — وجعلوا اللغة التركية تدريجيا اللغة الرسمية فى الدواوين والمخاطبات السلطانية ، فحلت محل العربية ، وأصبحت العربية مقصورة على لغة التخاطب وبعض المؤلفات العلمية والأدبية .

الحالة العلمية :

كان الفتح العثمانى ضربة قاسية وجهتها الأقدار إلى الحركة العلمية بمصر ، فبعد أن كانت القاهرة قد حلت محل بغداد على أثر احتلال التتار . وصارت

مزهوة بعلمائها وأدبائها ومساجدها الجامعة ودور كتبها المليئة ، وظلت عاصمة الإسلام ومقر الخلافة ، تغيرت صفحتها وانعكست آيتها وصارت تابعة لا متبوعة ، ولم تعد مركزاً للعلوم والآداب الإسلامية ، وارفض عنها العلماء ، وانفض الطلاب ، وضاقت حلقات الدرس ، وغاض معين العلم الصحيح ، وقلت الرغبة فى التأليف وهزلت المؤلفات . وأصبح أكثرها شرحاً لكتاب ، أو اختصاراً لمطول . وأنبغ علماء هذه الحقبة من أهل العراق والشام واليمن والهند .

ومن علماء ذلك العصر : السيد المرتضى الزبيدى « ١٢٠٥ هـ » وهو من اليمن وله « تاج العروس » فى شرح قاموس الفيروزابادى . و « إتحاف السادة المتقين » وهو فى شرح إحياء الغزالى . ومنهم عبد القادر البغدادى « ١٠٩٣ هـ » ، وهو من بغداد ومات بالقاهرة . وله : « خزانة الأدب » فى شرح شواهد الكافية . والشهاب الخفاجى « ١٠٦٩ هـ » أحد أدباء مصر وشعرائها وله : « ريحانة الألباء» فى تراجم أدباء عصره . وشهاب الدين أحمد بن حجر « ٩٧٢ هـ » وله : شرح على همزية البوصيرى . والشيخ محمد على الصبان « ١٢٠٦ هـ » وله : حاشية على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك . ونجم الدين الغزى « ١٠٦١ هـ » وله : « الكواكب السائرة بمناقب علماء المائة العاشرة » وهو فى تراجم الأعلام . ومحمد أمين المحبى « ١١١١ هـ » وله : « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » وهو فى تراجم الأعلام أيضاً . وبهاء الدين العاملى « ١٠٠٣ هـ » صاحب الكشكول والمخلاة وهما محاضرات أدبية .

حالة اللغــة والأدب :

أصيبت العربية وآدابها بما لم تصب به من قبل . فقد أصبحت التركية شيئاً فشيئاً لغة رسمية فى الملك والسياسة والقضاء وكل ما له صلة بالحكومة . وأغلق ديوان الإنشاء ، ولم يجد كتاب العربية ولا شعراؤها من يأبه لهم ولأدبهم .

وفى لغة التخاطب : انحطت هذه اللغة العامية عما كانت عليه فى العصر

السابق وضاق معجمها وزاد دخيلها ، ووصلت فى أخريات العصر إلى حالة من الانحطاط لم تصل إليها فى عصر ما .

وفى الخطابة : بقيت الخطابة المنبرية فى هذا العصر لضرورتها الدينية ، وقلت العناية بإعدادها ، بل وباستظهارها وحفظها ، ومن ثم كانت تستعار من دواوين أعدت لذلك ، وتتلى على المنبر . وضاقت موضوعها وانحسرت فى التخويف من القبور ، وفى الدعوة العامة إلى التقوى والزهد فى الحياة .

وفى الكتابة : كان إغلاق ديوان الإنشاء سبباً مباشراً لضعف الكتابة فلم تعد هناك كتابة ديوانية ، وأثر ذلك فى غيرها من ضروب الكتابة . ومع أن كتاب العصر سلكوا مسالك البديع والتزموا السجع ، ركت أساليبهم وبدا التكلف واضحاً فيها . وضعفوا عن اللحاق بغبار أسلافهم والتاثوا بالعامية . وطرقوا بها الرسائل الإخوانية وتدوين تراجم الرجال . واستعار بعضهم مكاتباته مما كتب الأقدمون ، وجمعت لذلك دواوين للرسائل فى أغراض متنوعة . ومن مشهورى الكتاب : الشهاب الخفاجى المصرى ، وعبد الوهاب الحلبي .

وفى الشعر : كان البعض يعير شعراء عصر المماليك بركونهم إلى الحلية البديعية وجنوحهم إلى الأغراض التافهة ، وعدم العناية بتجويد المعانى . ومع ذلك كم رأينا لهم من شعر جديد وغرض نبيل ومعنى شريف .

وفى العصر العثمانى يمكن القول إن دولة الشعر قد دالت . ولم يبق منها إلا ما يبقى من الدار بعد الطموس . إذ تقاصرت همم الشعراء عن الأغراض الحيوية الهامة وعجزوا عن تكرار المعانى المسبوقة ، وضاق ذرعهم حتى عن اصطناع البديع وتجنب العامية . وكان من أغراض الشعر حينذاك : الغزل الصناعى والمديح النبوى والتاريخ الشعرى، هذا إلى قليل من الوصف والحنين والهجاء والرثاء والاعتذار .

ومن الشعراء : الشهاب الخفاجى المصرى صاحب ريحانة الألباء « ١٠٦٩ هـ » والأمير محمد بن منجك الجركسى المولود بالشام والمتوفى عام « ١٠٨٠ هـ » ،

وعبد الله الشبراوى القاهرى من علماء الأزهر « ١١٧٢ ه » ومنهم ابن النحاس ، وابن معتوق ، والكردى ، والكيوانى ، والرشيدى ، والمتانى المصرى ، والمنوفى ، وغيرهم كثيرون تجدهم فى « ريحانة الألباء » .

وإليك نماذج من الكتابة :

١ — مما كتبه الشهاب الخفاجى فى « الريحانة » فى ترجمة معاصره محمد بن يس المنوفى الشاعر :

« وكانت لنا معه أويقات . هى فى صحائف العمر حسنات . وخمائل الشباب دانية القطاف زاهية الزهرات . فى عنفوان عمرى . وإقبال طليعة أمرى . وماء الحياة مغدق . وغصن الشبيبة مورق . متفيئاً فى هاجرة التحصيل أفياء الصبا ، نازلا حيث لا عليل إلا عيون الغيد ونسيم الصبا . ولا باكى غير طرف النرجس بدمع الندى . ولا ساهر إلا عيون النجوم التى هى للسارين هدى . والدهر طلق طيب الأخلاق . وسوق الفضائل لا ينفق فيه النفاق . لا كهذا الزمان الذى كسد فيه الأدب وبار . حتى قيل فيه : نفق الحمار وبارت الأشعار » .

٢ — وكتب عبد الوهاب الحلبى إلى الشهاب الخفاجى يمدحه من رسالة : « لقد طفحت أفئدة العلماء بشراً . وارتاحت أسرار الكاتبين سراً وجهراً . وأفعمت من المسرة صدور الصدور . وطارت الفضائل بأجنحة السرور . بيمن قدوم من اخضرت رياض التحقيق بأقدامه . وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه » .

ومن نماذج الشعر :

١ — للشهاب الخفاجى يتشوق إلى مصر .

إن وجدى بمصر وجد مقيم ... وحنينى كما ترون حنينى
لم يزل فى خيالى النيل حتى ... زاد عن فكرتى ففاضت عيونى

٢ — للأمير ابن منجك الجركسي في الغزل:

نبه جفونك من نعاسك   واسمح بريقك أو بكاسك
طاب الصبوح فهاتها   واشرب معى بحياة راسك
ما الورد إلا من خدو   دك والبنفسج من نعاسك

٣ — وللشيخ عبد الله الشبراوى فى مدح آل النبي عليه السلام :

آل طه ومن يقل آل طه   مستجيراً بجاهكم لا يرد
حبكم مذهبي وعقد يقيني   ليس لى مذهب سواه وعقد

٤ — ولعبد الواحد الرشيدى يهجو :

قلت للنائب الذى   قد رأينا معايبه
لست عندى بنائب   إنما أنت نائبه

٥ — ولمحمد بن يس المنوفى فى وصف الحياة وآلامها :

ومن تخطئه نيران المنايا   فسوف يصيبه ألم الدخان
وأبلغ من مذاق الموت يأس   جناه المرء من روض الأماني

العصر الحديث

من ١٢١٣ هـ إلى الآن

رأينا كيف كانت حال مصر والشام ، بل وسائر بلاد العرب تحت حكم العثمانيين الذين كان حكمهم وبالا عليها وعلى لغتها وآدابها . وشهدنا الاضطراب والفساد بتمشى فى شتى نواحيها وأنها صارت مسرحاً واسعاً لألوان من النزاع والفتن ، وجردت من مقومات الحضارة والعلم حتى كبنت العربية وعمت الجهالة وفشت الأمراض وتمكنت الفاقة وتناقص عدد السكان .

الحملة الفرنسية :

وبعد قرابة ثلثمائة عام من فتح مصر ، وكان الضعف قد ساور الدولة العثمانية وكان النزاع قد استشرى بين فرنسا وانجلترا ، ورأت فرنسا أن ترسل حملة لفتح مصر وذلك عام ١٧٩٨ م . فجاءت الحملة بقيادة نابليون بونابرت لتستولى على مصر وتقطع طريق المواصلات بين انجلترا والهند . وقد تم لها الاستيلاء بعد دفاع مجيد من المماليك وأهالى البلاد . ولبثت الحملة بها زهاء ثلاثة أعوام حتى تعاون الإنجليز والعثمانيون على إخراجها ، وبذلك عادت مصر إلى حكم العثمانيين .

ولا ريب فى أن الحملة الفرنسية كانت ذات أغراض استعمارية ، وكل ماصنعته فى هذه البلاد إنما كان الغرض منه تثبيت أقدام استعمارها فيها . ولكن البلاد استفادت من وراء ذلك بطريق غير مباشر فوائد عدة كانت تمهيداً حسناً لنهضتها التالية . وأهم هذه الفوائد :

١ — أن الحملة كان معها مجمع علمى كبير مؤلف من ثمانية وأربعين عالماً فى مختلف العلوم . كان الغرض منه دراسة مصر من نواحيها المختلفة والنظر فى مرافقها للعمل على إصلاحها وتنميتها . وجلبوا معهم المعامل والأدوات الحديثة التى لا عهد لمصر بها ، إذ كانت أوربا قد سارت أشواطاً واسعة فى مضمار المدنية الحديثة ، بينما كانت مصر قد انقطعت صلتها بكل وسائل النهوض . وعرضوا هذه المعامل والأدوات على أنظار علماء مصر وأعيانها وأجروا

أمامهم التجارب فنبهوا أذهانهم إلى ألوان العلوم الحديثة . ووضع المجمع سفراً قيما سمى « وصف مصر » ضمنه أبحاثه عنها .

٢ — وأسس الفرنسيون مدرستين لتعليم أبنائهم على النظام الحديث، وأنشئوا دار كتب قيمة .

٣ — وأحضروا معهم مطبعة عربية وإفرنجية لتطبع ما يحتاجون إليه من منشورات سياسية وتعليمات للأهالى . وأخرجوا بمعونتها صحيفتين فرنسيتين .

٤ — وقام نابليون بضروب من الإصلاح الشكلى ، منها تكوين « ديوان خاص » من تسعة من المصريين كان من بينهم الشيخ الشرقاوى والشيخ الفيومى وعمر مكرم وغيرهم من المصريين البارزين علماء وأعياناً . و « ديوان عام » ضم إليه كل من له نفوذ من المصريين ، وكانت بعض الأمور تطرح عليهما للنظر والاستشارة فحسب .

من هذا يتبين أن الحملة الفرنسية كان لها تأثير فى تقدم البلاد المصرية ، فبها بدأ اتصال مصر بأوربا ، وتنبه المصريون إلى الحضارة الجديدة ، وما لها من علم وقوة ونظم ، وتيقظوا إلى حقوقهم المسلوبة بين المماليك والعثمانيين ، وإلى ضرورة اشتراكهم فى حكم بلادهم ، كما أوقفتهم الحملة على وسائل النهوض وطرق التقدم العلمى من تعليم وطباعة وصحافة . لذلك نعتبر الحملة — من هذه النواحى — تمهيداً حسناً للإصلاح الشامل الذى قامت به مصر بعد ذهابها .

محمد على :

هو مؤسس أسرته التى حكمت مصر من سنة ١٨٠٥ م إلى ١٩٥٢ م . وقد وفد إلى هذه البلاد ضابطاً فى الجيش العثمانى الذى كافح الفرنسيين . وكان واسع الحيلة كبير الأطماع فبذل جهوده حتى صار والياً على مصر نائباً عن سلطان العثمانيين منذ عام ١٢٢٠هـ ، ١٨٠٥م ، ومن ذلك العام أخذت مصر تفيق من سباتها وتنهض من رقدتها وتعيد سيرتها الأولى من الرقى والحضارة .

وقد شرع محمد على يوطد مستقبله فى هذه البلاد لتكون له ولأسرته ، فذبح بقية المماليك فى وليمة القلعة ونظم لنفسه جيشا قويا من أبناء البلاد ، واحتاز

الأراضى الزراعية وعمل على استنباتها . واحتكر التجارة وعمل على استغلالها . وما زال حتى كون ثروة ضخمة أنفق منها على جيشه الذى صار من أقوى الجيوش، وبه استطاع أن يحارب الدولة العثمانية ثم يستقل بمصر. وصار ملكها وراثيا فى ذريته حتى فضت عليهم ثوره مصر الأخيرة عام ١٩٥٢ م .

وقد وثب الشعب المصرى منذ ذلك الحين وثبات واسعة ، وسار قدما فى ميدان الحضارة والعلم ، ولم يعد النهوض رهنا بإرادة الحكومات ، بل رغبة ملحة نابعة من إرادة الشعب وتصميمه .

وقد كانت النهضة فى أول الأمر نهضة عسكرية تسايرها نهضة علمية تمثلت فى جملة أمور منها :

١ — الاستعانة بالأجانب — وبخاصة من الفرنسيين — لتدريب الجيش ، وتعليم اللغات فى مدرسة الألسن وغيرها ، ولتعليم الطب والعلوم الحربية وغيرها ، فى مدارسها .

٢ — إنشاء طائفة من المدارس تتلخص فى :

(ا) مدرسة تجهيزية حربية بقصر العينى ومدرسة أركان حرب فى أبى زعبل

(ب) مدرسة طب بها مستشفى للتمرين بجهة أبى زعبل . وكان يديرها كلوت بك الطبيب الفرنسى ومعه طائفة من الأطباء الأجانب . وقد اختير أكثر طلبه هذه المدرسة من المصريين ومن نابغى طلبة الأزهر .

(حـ) مدرسة الألسن لتخريج المترجمين ، وكان يديرها رفاعة الطهطاوى أحد علماء الأزهر وإمام البعثة الأولى إلى فرنسا . وعاشت هذه المدرسة حتى شهدت الاحتلال الإنجليزى .

(ى) مدرسة خاصة بباريس لتعليم المصريين وبعض أفراد الأسرة الحاكمة .

(هـ) مدرسة هندسة ، ومدرسة صيدلية ، وأخرى للطب البيطرى ، وأخرى للزراعة .

(و) وقسم التعليم ثلاث مراحل : ابتدائية وثانوية وخصوصية ، وفتح لكل

مرحلة مدارس . ويديرها جميعا ديوان يرأسه مصطفى مختار أحد رجال البعوث. ويسمى « ديوان المدارس » وهو النواة الأولى لوزارة التربية والتعليم الحالية .

٣ — إرسال البعوث العلمية إلى مدن أوربا ، ومنها بعثة حربية من أبناء المماليك إلى إيطاليا عام ١٨١٣ م ، وبعثة للعلوم والفنون الهندسية إلى انجلترا عام ١٨١٨ م ، ومنها البعثة العلمية الكبرى إلى فرنسا عام ١٨٢٦ م ، وعدد أعضائها أربعون ، للتخصص فى علوم شتى ، منها الطب والهندسة والكيمياء والسياسة والطبع والحفر . وأشرف عليها المستشرق الفرنسى « جومار » وكان إمامها الشيخ رفاعة الطهطاوى .

وتوالى إرسال البعوث بعد ذلك حتى بلغ عدد أعضائها نحو ٣١٩ طالبا .

٤ — العناية بالترجمة ، وذلك لنقل العلوم والفنون إلى العربية تيسيرا للطلاب . وقد استقدموا لذلك طائفة من السوريين والمغاربة والأرمن ومن على شاكلتهم ممن يعرفون العربية وإلى جانبها لغة أخرى ، ليكونوا تراجمة بين الأساتذة الأجانب والطلبة المصريين . وأنشئوا مدرسة الألسن التى أشرنا إليها وأنشئوا « قلم الترجمة » ووكلت رياسته بعد ، إلى رفاعة الطهطاوى فاختار معه طائفة صالحة من خريجى مدرسة الألسن وقاموا بترجمة جملة من كتب الطب والهندسة والسياسة والفنون الحربية والقانون وغير ذلك . وكان لقلم الترجمة فضل فى تحرى أساليب العربية الصحيحة ومفرداتها ، ما استطاع — وهكذا عادت اللغة تمارس من جديد ترجمة العلوم ونقلها ، وتطوع للاضطلاع بما يرجى منها فى عصر النهضة الحديثة .

٥ — إنشاء دار الطباعة ببولاق عام ١٨٢١ م ولهذه الدار تاريخ حافل ومشاركة جليلة فى النهضة ، إذ طبعت بها الكتب المترجمة وغيرها من الكتب القديمة فى العلوم والآداب .

٦ — إنشاء « الوقائع المصرية » عام ١٨٢٨ م وهى أول صحيفة مصرية حقيقية . وكتب عددها الأول بالتركية ثم شاركتها العربية ، ثم كتبت بالعربية وحدها . ولهذه الصحيفة كذلك تاريخ فياض فى مشاركة النهضة وفى معاونتها ،

إذ كانت تنشر أوامر الحكومة وأخبارها الرسمية وقوانينها وأنباء الحوادث الأخرى وأطرافاً من الأدبيات والاجتماعيات . وظلت كذلك زمناً ، ثم اقتصرت الآن على الأنباء والقوانين الحكومية .

٧ — اتخاذ اللغة العربية أداة للتعبير فى شئون الدولة والتعليم والقضاء ، وفى التأليف والترجمة . وحاول محمد على اتخاذ التركية أداة للتعبير رسمية ، فبان له استحالة ذلك ، فعدل إلى العربية . وقد استجابت البلاد لهذا البعث فكتب اللغة بذلك حياة جديدة .

النهضة بعد أيام محمد على :

تركز حب النهوض فى نفوس المصريين ، فاطرد نشاطهم بعد أيام محمد على لتوافر أسبابه . وحقاً فترت النهضة فى عهد عباس وسعيد ، وأقفل أكثر المدارس . ولكن سرعان ما عاودها نشاطها من بعدهما ، وهبت الأمة تسير سيراً حثيثاً نحو المجد والرقى والحضارة الجديدة . واعترضتها تصرفات إسماعيل المالية ونتائجها السيئة ، ثم الاحتلال الإنجليزى البغيض . ولكن ذلك لم يثنها عن السير إلى الأمام ، والعمل على التخلص من العقبات التى تعترضها . وثارت ثورتها عام ١٩١٩ م لاستكمال حريتها وسيادتها ، وظفرت بالحياة النيابية . ثم لما رأت الفساد فى عهد فاروق قد انتشر فى ربوع البلاد ثارت ثورتها الكبرى التاريخية عام ١٩٥٢ م وقضت على حكم أسرة محمد على ، وتسلم بنوها زمام الحكم وحطموا كل العقبات التى تعترض نهوض الأمة فى شتى نواحيها ، فقضوا على الإقطاع والحزبية ، وطهروا أداة الحكم وأجلوا المستعمر واستعادوا قناة السويس ، وجددوا الدستور والقوانين بما يلائم رغبات الشعب ، وأعادوا الحياة النيابية نظيفة بريئة من الغايات إلا الغايات العامة ، وبهذا كله ظهرت مصر على المسرح الدولى باعتبارها عاملا من أهم العوامل التى تحرك سياسته ، وأعلنوا الجمهورية فى البلاد وسعوا إلى تكتيل الجبهة العربية ، بل إلى تكتيل الجبهة الأسيوية والإفريقية ضد أنصار الاستعمار وأعداء السلام .

والأمل معقود باستمرار هذه النهضة الواسعة الشاملة وتساميها .

وقد سايرت العلوم والآداب هذه النهضة وكانت من أهم دعائمها ، واتخذت اللغة العربية لساناً لها .

مجمل أسباب نهضة اللغة وانتشار العلوم والآداب . .

نهضت اللغة العربية فى العصر الحديث نهوضاً بارزا ، وانتشرت بجوارها العلوم والآداب وازدهرت ازدهاراً يبشر بمستقبل قريب تصل فيه العقول إلى الابتكار ومسابقة الأوربيين فى كل جديد من علم أو فن أو صناعة . وأسباب ذلك كثيرة منها :

١ — اتصال مصر بمدنية الغرب منذ حملة نابليون . وقد تم الاتصال بطرق شتى منها : مجىء المبشرين المسيحيين إلى بلاد الشرق ففتحوا المستشفيات والمدارس . والاتجار وتبادل السلع . والرحلة الدائمة بين الشرق والغرب والبعوث العلمية . وتعلم اللغات الأجنبية مع الاطلاع على آدابها وعلومها وترجمتها إلى العربية ، وعناية المستشرقين بدراسة أحوال الشرق وعاداته ولغاته وآدابه وتاريخه ، واستقدام الخبراء الأجانب استعانة بهم فى التعليم والجندية والاقتصاد . وتبادل السفارات . وعقد المؤتمرات السياسية والعلمية وغيرها . والاشتباك السياسى الدولى . وغير ذلك من ضروب الاتصال ، وقد سهله كثرة المواصلات الحديثة .

٢ — اتخاذ اللغة العربية أداة للمخاطبات الرسمية والتفاهم بها فى شئون الملك والسياسة والتعليم والقضاء واتخاذها لغة للتأليف والمترجمات . وقد كانت اللغات الأجنبية طاغية عليها فى دور التعليم إبان الاحتلال . فزحزحتها النعرة الوطنية ومكنت للغة القومية ، إلا فى بعض المواد الدراسية كالهندسة والطب فلا تزال اللغات الأجنبية هى المستعملة فيها . وذلك لعجز مزاوليها عن التعبير الدقيق بالعربية .

٣ — انتشار الأندية سياسية وعلمية وغيرها ، ولجمال الدين الأفغانى وتلاميذه فضل فى ذلك لا ينكر .

٤ — اقتباس التمثيل المسرحى من الأوربيين . وهو مدرسة نافعة إذا اتجه اتجاها سليما . وقد أفادت البلاد منه فائدة كبرى . غير أن المسرح اليوم يعانى

أزمة وضيقاً شديدين ولا سيما بعد ما اجتذبت «الخيالة» جمهور المسرح . وللخيالة تأثيرها أيضاً ، ويا حبذا لو سلمت من عيوبها .

٥ — تأسيس دور الكتب وأهمها جميعاً دار الكتب المصرية . وقد أسست فى عهد إسماعيل ، وتضم آلافاً مؤلفة من الكتب الثمينة ، ومخطوطات قيمة . وقد أنشئت لها فروع فى عدة أحياء بالقاهرة . وفى كثير من عواصم المديريات دور كتب لا بأس بها ، وكذلك بكل من الأزهر والجامعات المصرية والجامعة العربية بل وبكل معهد دراسى مكتبة عظيمة النفع .

٦ — تنظيم الإذاعة منذ سنة ١٩٣٢ م وإنشاء محطتها الحكومية ، وللإذاعة فضل واسع فى نشر الآداب والمعارف المختلفة بما تذيعه من محاضرات وبحوث وأخبار وأغان وأناشيد وقصص وإرشادات وغير ذلك .

٧ — إنشاء دور التعليم ، ودور الطباعة ، والصحف ، واستمرار البحوث العلمية .

ونتحدث عن كل من هذه الأربعة ببعض التفصيل ، فنقول :

(١) إنشاء دور التعليم

١ — دور التعليم البيئة الأولى للثقافة ، تربى فيها العقول والنفوس معاً ؛ حيث توضع لها المناهج التى تطبعها بطابع خاص يوجهها نحو الغاية المأمولة .

٢ — وعرفت مصر المدارس فى مطلع عصر النهضة ، لما جاءت الحملة الفرنسية وفتحت مدرستين لأبناء الجالية الفرنسية على النظام الأوربى الحديث . فكانتا نموذجاً لفت أنظار المصريين إلى النظم الجديدة فى التعليم .

٣ — وكانت مصر والشام أسبق البلاد العربية إلى إنشاء المدارس على النظام الأوربى ، وأخذت تنتشر منذ عهد محمد على ، وأنشئت بمصر عدة منها متنوعة ، لتخريج ما يحتاج إليه الجيش من قواد مهرة وأطباء بارعين ومهندسين حاذقين وصناع وغيرهم . ولتعليم النابهين من أبناء الشعب . وكان التعليم فيها

بالعربية . وقد أقبل الوطنيون على المدارس لما رأوا نتائجها الباهرة وما تدره من منصب ومال وجاه ، وبلغ عددهم نحو تسعة آلاف ، تتحمل الحكومة نفقات تعليمهم وطعامهم وكسوتهم وسكنهم . ووكلت أمورهم إلى « ديوان المدارس » الذى أنشىء عام ١٨٣٦ م برياسة مصطفى مختار بك الدويدار الذى يعتبر أول ناظر لشئون التربية والتعليم .

٤ — ثم فترت النهضة التعليمية مدة وأقفلت مدارس كثيرة وبقيت المدرسة الحربية ، بحجة زيادة عدد المتعلمين عن حاجة الحكومة . ولكن ما لبثت حركة التعليم أن عادت إلى نشاطها السابق منذ عهد إسماعيل فأعيد فتح كثير من المدارس ، وأنشئت مدرسة الطب والهندسه ومدرسة الألسن . وانتشرت المدارس الابتدائية والثانوية والعالية . وأنشئت مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم ، ومدرسة الصنائع والفنون ، ومدرسة للمعلمين ، ومدارس للبنات والخادمات . وانتشرت مكاتب القرى فى أنحاء القطر . وأصبح الغرض من التعليم تثقيف العقول وتهذيب النفوس . وبلغ عدد التلاميذ نحو مائة ألف . وحُول « ديوان المدارس » إلى « نظارة المعارف » وعهد إليها بوضع نظم حديثة للتعليم . كما أنشئت دار الكتب ودار الآثار ، ولهما صلتهما بالتعليم ، وصار التعليم فى المدارس باللغة العربية فى جميع المواد الدراسية ، وبقى بالمجان إلى حد كبير . وقد شوه جمال هذه النهضة استبداد إسماعيل وديونه الكثيرة .

٥ — ثم ابتليت مصر بالاحتلال الإنجليزى المشئوم فى عهد توفيق عام ١٨٨٢م فآد التعليم وعاق نهضته وغير مناهجه وأصبحت الغايه منها تخريج موظفين يكونون آلات حكومية . وأقفلت مدرسة الألسن ، ودرس كثير من المواد الدراسية بالإنجليزية ، فضعف شأن العربية . وهيمن على « نظاره المعارف » حيناً المستشار الإنجليزى « دنلوب » ففرض سياسة المستعمر على مناهج التعليم ، وقررت المصروفات المدرسية ليحرم الفقير التعليم ولتقسم الأمة إلى طبقة حاكمة وأخرى محكومة .

— ولكن الأمة كانت قد وطدت عزمها على متابعة النهوض ، وآلت ألا تعود إلى عهد الظلمة وألا تستسلم إلى الطغاة الظالمين ، فانبثقت الحركات السياسة وتتابعت الثورات . وانتعشت الحياة الفكرية ، وقويت الروح الوطنية وارتفعت الأصوات بضرورة العناية باللغة العربية باعتبارها لغة الوطن ، وبضرورة سيادتها فى دور التعليم ، فأخذت تسترد مكانتها رويداً رويداً فيها حتى ثبتت أقدامها وعلا بندها .

وتحولت الجامعة الأهلية إلى جامعة حكومية عام ١٩٢٥ م ، وهى جامعة القاهرة . وصدر قانون جديد بتنظيم الأزهر وبه تحول إلى جامعة إسلامية كبرى ، وزاد عدد المدارس على اختلاف درجاتها .

والحق أن الشعب بفضل زعمائه وقادته وأولى الرأى فيه قد تيقظ وبعث بعثاً جديداً وخلق خلقاً آخر ، وشعر أن التعليم ضرورى لحياته كالماء والهواء ، وأصبح هم وزارة المعارف التى تحولت إلى « وزارة التربية والتعليم » العناية بشا كل التعليم المتنوعة ، وأصبح لها سياسة تعليمية عليا أهم ما ترمى إليه هو تهيئة مقاعد الدراسة لأبناء الشعب وتوجيههم نحو الغاية السامية والمستقبل المأمول الذى تنشده الأمة . وأخذت تتوسع فى إنشاء دور التعليم ، وعلى رأسها التعليم الجامعى فأنشئت جامعة الإسكندرية ثم جامعة عين شمس . كذلك الجامعة الشعبية ، وقامت بالعمل على مكافحة الأمية بين طبقات الشعب .

وما قامت حكومة الثورة حتى شمرت عن ساعد الجد فى نشر التعليم والتمكين للمعارف قديمها وحديثها ، وعملت على تعميم التعليم الابتدائى ، وأنشأت مئات من المدارس الإعدادية والثانوية وكلها بالمجان وعدداً كبيراً من المعاهد العالية عدا كليات الجامعات ، كما استكملت هذا العام ١٩٥٧ م معدات افتتاح الدراسة بجامعة أسيوط ، ففتحت الجامعة أبوابها للطلاب . وقد توسعت الحكومة فى التعليم العسكرى والرياضى توسعاً بارزاً ، وفتحت أبواب التعليم كلها أمام البنات ما عدا التعليم العسكرى . وغيرت اسم « وزارة المعارف » بوزارة « التربية والتعليم » .

وغنى عن البيان أن نشير إلى أن متخرجى المدارس على اختلافها هم أصحاب الفضل الأول فى إيقاظ البلاد وبعثها والسمو بها والقيام بمرافقها والسهر على مصالحها : وإليك كلمات وجيزة عن أهم المؤسسات العلمية فى البلاد :

(١) الأزهر : حافظ الدين وكهف العربية . وهو من أقدم جامعات العالم . أسسه جوهر الصقلى مولى المعز لدين الله الفاطمى وتم بناؤه عام ٣٦١هـ . ودرس فيه المذهب الشيعى أولا وبعض العلوم الكونية ، ثم توقف التعليم فيه فى عصر الأيوبيين ، حتى كان عصر المماليك فأعيدت الدراسة إليه فى عهد الظاهر بيبرس وازدهرت أيما ازدهار ، وقصده الطلاب وطنيين وغرباء وكانت تدرس به علوم الدين واللغة والأدب . ثم عصف الحكم العثمانى به وبغيره من مساجد القاهرة واستولى العثمانيين على أوقافها فأقفلت أبوابها وبطلت الدراسة فيها إلا بقية يسيرة بقيت بالأزهر كانت وصلة طيبة ودعامة حسنة للنهوض بالعلوم والآداب فى العصر الحديث . ولما جاء نابليون تودد إلى علمائه اعترافاً منه بمنزلتهم لدى الشعب ، وأدخل بعضهم فى « الديوان الخاص » ولما بدت النهضة العامة فى عهد محمد على وأنشئت المدارس استمدت كثيراً من طلبتها من طلبة الأزهر وعلمائه ، ومنهم أيضاً أختير طلاب البعوث فكانوا أسساً أولى قامت عليها النهضة .
ثم اطرد تقدم المدارس المدنية لحاجة الدولة إليها فوقف الأزهر حيث كان مدة حتى تناولته يد الإصلاح فنظمت امتحاناته ورتبت إجازاته ثم أسست له من بعد مكتبة ، ومجلس إدارة — تحول بعد إلى مجلسه الأعلى — ثم أدخلت العلوم الرياضية بين مواده الدراسية . وفى عام ١٩٣٠ م أعيد تنظيم الأزهر وغيرت مناهجه وانقسم التعليم فيه ثلاث مراحل ابتدائية وثانوية وعالية ، وأنشئت للدراسة العالية ثلاث كليات واحدة للغة العربية ، وواحدة للشريعة ، وواحدة لأصول الدين وبكل منها أقسام للتخصص ، وتعددت معاهده الابتدائية والثانوية فى العواصم والمراكز ، وبذلك تحول الأزهر إلى جامعة إسلامية كبرى . ولكنه مع هذا لا يزال فى حاجة إلى إصلاح شامل يحفظ له طابعه القديم ويعينه على مسايرة التقدم الحديث ليؤدى رسالته خير الأداء .

ويضم الأزهر اليوم بين جوانبه آلافا من الطلاب وطنيين وغرباء من مختلف الأمصار الإسلامية حتى الصين وأندونيسيا . وانبث متخرجوه فى كثير من منشآت البلاد كدور التعليم ودواوين الحكومة والقضاء ، والمحاماة والصحافة ووظائف الوعظ والإمامة وغيرها . وهكذا ترى أبناء الأزهر يساهمون فى نهضة بلادهم بأكبر نصيب ، وتعرف البلاد لبعض رجاله فضلهم على الحركات السياسية ونجاحها . ودأب الأزهر أخيراً على تزويد البلاد العربية والإسلامية ببعض متخرجيه لنشر التعليم والدين واللغة فى أرجائها .

ومن أبرز رجاله فى العصر الحديث : حسن العطار ، ومحمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وممن تولوا مشيخته أصحاب الفضيلة : حسونة النواوى وسليم البشرى ، ومحمد أبو الفضل الجيزاوى ، ومحمد الأحمدى الظواهرى ، ومحمد مصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرزاق ، ومأمون الشناوى ، وعبد المجيد سليم ، وابراهيم حمروش ، ومحمد الخضر حسين ، واليوم يجلس فى كرسى مشيخته الأستاذ الأكبر فضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج ، وهو من رجال البعوث الأزهرية إلى فرنسا ، وأمل الأزهر أساتذة وطلاباً معقود عليه .

(ب) دار العلوم :

هى حصن العربية وباعث آدابها ومحيي علومها ومقوم لسان الجيل . أسسها على مبارك عام ١٢٨٩هـ « ١٨٧٢م » وألحقت أول الأمر بدار الكتب ، واختير طلبتها من نابغى طلاب الأزهر ، وروعى فى مناهجها أن يزودوا بقسط من علوم الدين واللغة والرياضة ليجمعوا بين قديم العلم وحديثه وليتأهلوا لتدريس اللغة والدين فى مدارس الحكومة .

وقد تغيرت مناهج الدار مرات كثيرة . وروعى أن يكون التعليم فيها بالمجان ، وأن يزود طلبتها بالكتب الدراسية والمراجع العلمية ويمنحوا أحياناً مكافآت مالية عوناً لهم على طلب العلم .

وقد ألحقت الدار أخيراً بجامعة القاهرة وصارت إحدى كلياتها ، وتستمد

طلبتها الآن من خريجى المعاهد الدينيـة الثانوية ، ومن طلبة الثانوية العامة من المدارس المدنية ، كما أنها فتحت أبوابها للبنات ، وقررت بها المصروفات المدرسية أسوة بكليات الجامعة .

وقد انتشر متخرجو الدار فى مدارس الحكومة ودور الصحف ودواوينها يعاونون على نهضة البلاد بمزاولة تدريس اللغة والدين ، وبالكتابة ونشر الآداب ونحو ذلك . وامتاز كثير من أبنائها بالبروز فى ميدان العلم والأدب والتأليف والسياسة ، ومنهم : عبد العزيز جاويش ، وعاطف بركات ، وحفنى ناصف ، ومحمد الخضرى ، ومحمد عبد المطلب ، واحمد الاسكندرى ، وعبد الوهاب النجار وعلى الجارم .

(حـ) جامعة القاهرة :

مؤسسة العلم الحديثة ، والممسكة بيمينها مشعل النور والحرية ، والباعثة فى نفوس النشء روح التفكير النزيه الحر ، والداعية إلى حب العلم لذاته . وقد نبتت فكرة إنشائها عام ١٩٠٦ م وعاون على تنفيــذها الزعيمان مصطفى كامل وسعد زغلول : واكتتب لها مصطفى كامل الغمراوى بك والأميرة فاطمة اسماعيل . وافتتحت عام ١٩٠٨ م وسميت « الجامعة الأهلية » . وفى عام ١٩٢٥م ضمتها الحكومة وكفلتها ، وتعددت كلياتها ولا تزال تنمو وتزدهر ، وتعـد أماً للجامعات الأخرى الجديدة « جامعة الإسكندرية ، وعين شمس ، وأسيوط » لأنها غذتها بالرجال وقد ثبتت أقدامها — على حداثتها — فى مجال بناء النهضة الحديثة بمن خرجته وتخرجه من أبنائها فى مختلف العلوم والفنون من طب وهندسة وزراعة وصيدلة وكيمياء وقانون وآداب وغير ذلك ، مما هو ملموس لنا . وقد قدرت الجامعات الأجنبية إجازاتها ، ووفد عليها كثير من أبناء الأمم العربية والشرقية لطلب العلم .

(ب) البعوث العلمية

لا شك أن إيفاد البعوث إلى الأقطار الأوربية وغيرها للالتحاق بجامعاتها والتزود من ثقافتها ، سياسة تعليمية رشيدة . ومصر كانت — ولا تزال — فى حاجة قصوى إلى ارتياد مناهل العلوم الأجنبية لتقيم عليها حضارتها . وأوربا قطعت أشواطاً واسعة فى ميدان هذه العلوم ، وسلخت مئات السنين حتى أصبحت جامعاتها سرجاً منيرة تضىء لمن يستضىء .

وما آل حكم مصر إلى محمد على حتى بُذلت الهمة للسير بالبلاد نحو الرقى والحضارة ، وكان فى مقدمة الوسائل إلى ذلك ، إرسال البعوث العلمية إلى أوربا تعجيلا لتأهيلهم وإسراعاً إلى إعدادهم ، ليعودوا فيكونوا دعائم قوية يسمق عليها بنيان النهضة .

وقد أشرنا فيما سلف إلى البعوث العلمية الأولى إلى إيطاليا عام ١٨١٦ م ، وإلى انجلترا عام ١٨١٨ م ، وإلى فرنسا عام ١٨٢٦ ، وهذه البعثة الكبرى ، وكان من طلابها : مصطفى مختار الذى صار ناظراً لديوان المعارف ، ومصطفى مخزنجى الذى صار مهندساً للقناطر والجسور ، ومحمد بيومى الذى صار مدرساً بمدرسة الطب ، ورفاعة الطهطاوى الذى صار رئيسا لديوان الترجمة ، وحسن الإسكندرانى الذى صار ناظراً للحربية .

ثم أرسلت بعثة طبية إلى فرنسا مكونة من اثنى عشر طالبا من طلبة الطب اختارهم مدير المدرسة كلوت بك ، وسافر معهم بنفسه إلى فرنسا . ومن رجالها : محمد السكرى ، ومحمد الشباسى ، ومحمد الشافعى وكلهم تولوا التدريس فى مدرسة الطب بعد عودتهم .

وتوالت البعوث فى عهد محمد على حتى بلغ عدد أعضائها — كما أشرنا — نحو ٣١٩ طالبا ، صار منهم بعد عودتهم قادة للجيش وأطباء للجند ، ومعلمون للمدارس المختلفة ، ومهندسون يقيمون ما تحتاج إليه البلاد من قناطر وغيرها .

كما أنشئت مدرسة خاصة بباريس التحق بها أربعون طالبا من بينهم بعض الأمراء لتعلم اللغة الفرنسية والعلوم الحربية غير أنها أقفلت عام ١٨٤٠ م .

وفتر أمر البعوث بعد محمد على ، حتى عادت الحكومة إلى هذه الخطة فى عهد إسماعيل ، ثم ركدت ريحها فى عهد الاحتلال . ولكن أبناء البلاد الذين شعروا بقيمة التزود من الثقافة الأوربية لم يدخروا جهداً فى سبيل ذلك ، فسافر كثير منهم على نفقته الخاصة إلى جامعات فرنسا وانجلترا وألمانيا وغيرها . ثم عادت الحكومة المصرية إلى انتهاج هذه السياسة الرشيدة فصارت ترسل فى كل عام عدداً من المتفوقين فى مدارسها العالية إلى جامعات أوربا . واستمرت هذه السياسة بين المد والجزر ، حتى أنشئت جامعة القاهرة وغيرها من الجامعات ، فاتسع نطاق البعوث إلى الخارج لاستكمال التخصص وأرسل الطلاب من نابهى المتخرجين فى الجامعات والمعاهد العالية وأنشأت لهم وزارة التربية والتعليم إدارة خاصة تشرف عليهم .

ومما يذكر أن الأزهر اتبع سياسة إرسال البعوث إلى أوربا فى عهد الأستاذ الإمام المراغى ، ثم عاد إلى توقفه القديم .

ولا ريب أن رجال هذه البعوث كانوا — وما زالوا — فى مقدمة دعائم النهضة الحديثة . فنهم السياسى القدير ، والكاتب النحرير والخطيب المفوه ، والصحفى المحنك والمؤلف المنتج والأديب المجدد والمترجم النابغة والطبيب النطاسى والمهندس البارع والقائد المجرب .

ومن أجل ما قدموه وأبقاه لبلادهم ما ترجموه من المؤلفات الأجنبية إلى العربية ، فقد نقلوا عشرات من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، فأفادت اللغة من وراء ذلك أفضل فائدة . وعلى رأس المؤلفين : رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك .

(حـ) المطابع

تمهيد : مآثر الطباعة أكثر من أن تعد ، فهى خير أداة ظهرت توفر أسباب العلم وتعمل على نشره بين كافة الطبقات ، وتعمل على حفظه وبقائه ، وهى تخرج الكثير من الكتب التى أصبح فى مقدور كل امرىء اقتناؤها أو الاطلاع عليها ، وبذلك سهلت الاتصال بعلم المتقدمين والمحدثين ، ويسرت طرق التعليم ، كما ترتب على وجودها انتشار المطبوعات على اختلاف أنواعها وبخاصة الصحف والمجلات .

والطباعة إحدى الصناعات القديمة ، ظهرت من قبل فى بلاد الصين وغيرها واستخدموا لها الآجر والأخشاب والأحجار . أما الطباعة بالحروف المعدنية فقد ظهرت فى أوربا خلال القرن الخامس عشر الميلادى على يد جوتنبرج الألمانى وأول كتاب ظهر بها ، التوراة سنة ١٤٥٠ م ثم شاع استعمال الطباعة فى البلاد الأوربية .

أما الطباعة العربية فقد ظهرت فى إيطاليا فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وطبع بها القرآن الكريم ثم أحرق ، وجزء من التوراة ، وغيرها .

ثم انتشرت الطباعة العربية بعد ذلك فى كثير من مدن أوروبا وبخاصة حينما ظهرت طوائف المستشرقين، فعنوا بطبع كتب الشرق ومخطوطاته ، واشتهر فى ذلك باريس وليدن وروما وليون وغيرها .

ثم أخذت الطباعة العربية تفد إلى الشرق ، فدخلت القسطنطينية فى القرن الثامن عشر الميلادى .. وأول مطبعة أنشئت فيها مطبعة سعيدبن محمد حلبي فطبع بها بعض كتب اللغة العربية والأدب والتاريخ ، فضلا عن مؤلفات تركية وفارسية . وأخذت دور الطباعة تنتشر فى القسطنطينية منذ ذلك الحين ، وازدهرت بها الطباعة العربية ، وأهم مطابعها بعد ذلك مطبعة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق الصحفى اللغوى الأديب المشهور ، أسسها فى أواسط

القرن التاسع عشر الميلادى وأصدر عنهـا جريدة « الجوائب » وكثيراً من الـكتب العربية .

وقد وفدت الطباعة إلى سوريا فى القرن الثامن عشر الميلادى على يد الدعاة الدينيين ، واشتهرت بها مطبعة الآباء اليسوعيين ، وهى أكبر مطابع سوريا حتى اليوم ، وطبع بها عدد لايحصى من كتب الأدب والتاريخ واللغة وكتب التبشير .

واشتهرت فى بيروت « المطبعة الأمريكية » التى أسسها الدعاة الأمريكيون « البروتستانت » ، وطبع بها كثير من كتب الطب والرياضة وغيرهما ممـا ألفه الدعاة أو ترجموه .

ثم أخذت الطباعة العربية تفد على مصر وسائر بلاد الشرق ومنها الهند .

المطابع فى مصر :

ودخلت الطباعة إلى مصر مع الحملة الفرنسية فقد كان لديها مطبعة مجهزة بحروف عربية وإفرنجية وأطلقوا عليها « المطبعة الأهلية » ووكلت إدارتها إلى المسيو « مارسل » أحد المستشرقين الفرنسيين . وأول دار طباعة مصرية حقيقية مطبعة بولاق التى أنشئت فى عهد محمد على عام ١٨٢١ م وعرفت فيما بعد بالمطبعة الأميرية . وعهد بإدارتهـا إلى « نقولا مسابكى » أحد السوريين المتخصصين فى فن الطباعة وعاونه فى العمل والتحرير عدد من شبان الأزهر . وكانت تقوم بطبع الأوراق الخاصة بالحـكومة والتعليمات الحربية وجريدة الوقائع المصرية . وكذلك طبع بها كثير من الـكتب المترجمة حينذاك فى الفنون العسكرية والصباغة والتاريخ وغير ذلك . كما طبع كتاب فى قواعد اللغة العربية .

وفتر نشاطها بعد وفاة محمد على مدة ثم عاودها نشاطها منذ عهد الخديو اسماعيل وقويت مشاركتها للنهضة بما طبعته من عشرات الـكتب القديمة والحديثة ، المؤلفة والمترجمة ، فى الطب والرياضة والطبيعة وفنون الحرب والتاريخ ، وفى الأدب والشعر والتفسير والحديث وغير ذلك ، وأكثرها باللغة العربية ، هذا فضلا عن المطبوعات الحـكومية والوقائع المصرية . — ولا تزال الدار

عامرة حتى اليوم تقوم بنصيبها الشاق من تقديم الزاد الثقافى للأمة ولا سيما من الكتب الدراسية ، فضلا عن المطبوعات الحكومية الأخرى .

وتدخل عليها التحسينات آناً بعد آن . وهى اليوم تعد نموذجا عالياً بين دور الطباعة العربية فى العالم .

وقد ظلت هى الوحيدة فى الميدان حتى أنشأت بطريركية الأقباط « المطبعة القبطية الأهلية » عام ١٨٦٠م وطبعت فيها كتباً دينية وأدبية ، ولا تزال موجودة حتى اليوم . ثم أنشأ عبد الله أبو السعود مطبعة عام ١٨٦٦م طبع بها جريدته « وادى النيل » .

وقد أخذت المطابع تفد تباعاً على مصر وتنتشر بمدنها ولا سيما القاهرة حتى أصبحت اليوم لا تحصى عددا . وكلها يشارك فى طبع الكتب العلمية والأدبية والفنية والقصص ودواوين الشعراء ، ومن أفضلها مطبعة دار الكتب المصرية .

ومما أخرجته : مقدمة ابن خلدون وتاريخه وخزانة الأدب للبغدادى ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين للجاحظ ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، والأغانى لأبى الفرج ، والقاموس المحيط للفيروزابادى ولسان العرب لابن منظور ، ومقامات الحريرى ، وغير ذلك مما يطول تعداده .

ولبعض دور الصحف مطابع ممتازة حديثة ومنها: «الأهرام» «وأخبار اليوم».

ومما ينبغى ذكره أن أصحاب المطابع والناشرين منهم بخاصة ، جريا وراء الربح والمال ، يضايقون المؤلفين ويتحكمون فى مؤلفاتهم ، ولا يقبلون على نشرها إلا إذا أنسوا منها رواجاً وضمنوا منها ربحاً مضاعفاً ، غير ناظرين إلى قيمة المؤلفات من الوجهة العلمية أو الأدبية ، ولهذا لا يقدمون منها للنشر إلا الكتب الدراسية أو القصص وما إليها وذلك لرواجها بين جماهير القراء وأنصاف المثقفين ، ومن هنا يتبين لنا خطر هؤلاء الناشرين وأثرهم فى التوجيه الثقافى . وعلى الدولة معالجة ذلك .

(ء) الصحف

يقال إن الاشتغال بالصحافة مهنة قديمة . ولكنها فى شكلها الحديث يد بيضاء من أيادى الطباعة ومظهر رائع من مظاهر المدنية الجديدة وآية من آيات هذا الزمان . اشتغل بها الأوربيون أولا ، ومن ثم انتقل الاشتغال بها إلى الشرق ومصر .

والصحف منبر حر للرأى العام فى كل أمة ، تتلاقى فيها الآراء وتشتجر الأفكار وتتحاج المبادىء والنظريات . وقد صارت إحدى وسائل نشر الثقافه والعلم والأدب والفن . وميدان واسع للنقد بأنواعه ، وهى قوة توجه الشعب وتردع المستبد وتعلن بالجديد . ومن أهم أعمالها تسجيل الحوادث والأخبار الداخلية والخارجية ، فهى بذلك مسجل لحياة الأمم ونزعاتها ، وإحدى وسائل الاتصال بينها .

وقد أصبحت الصحافة فى بلادنا إحدى الصناعات العتيدة التى يتشرف بها المنتسبون إليها ، وعنيت بها بعض الكليات الدراسية العالية فأنشأت لها معهداً خاصاً يتخرج به مختصون فى هذه المهنة . وللصحفيين فى بلادنا نقابة عظيمة الشأن ترعاهم وتدافع عن حقوقهم .

وأول عهد مصر بالصحافة كان فى أيام الحملة الفرنسية ، إذ كانت الحملة تنشر نشرات عدة بأوامرها للأهالى ، وقيل إنها أصدرت — أو كادت تصدر — صحيفة تدعى « التنبيه » يشرف على إخراجها السيد إسماعيل الخشاب الشاعر وأديب عصره .

ثم أصدر محمد على جريدة « الوقائع المصرية » عام ١٨٢٨ م ، فكانت بحق أولى الصحف المصرية . وبعد أن شاركت زمنا فى نشر العلوم والآداب اقتصرت على الأخبار الحكومية الرسمية . وكان يشرف عليها فى مطالع أيامها أفذاذ من الأدباء منهم: الشيخ حسن العطار ، ورفاعة الطهطاوى ، ثم محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان .

وظلت « الوقائع » وحيدة فى الميدان حتى عام ١٨٦٥ م فأصدر الدكتور محمد على البقلى مجلة طبية شهرية سماها « اليعسوب » ثم تلاه عبد الله أبو السعود فأصدر جريدة « وادى النيل عام ١٨٦٦ م وكانت تصدر مرتين فى الأسبوع . ثم أصدر إبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال جريدة « نزهة الأفكار » سنة ١٨٦٩م مرة فى الأسبوع. ثم ظهرت «روضةالمدارس» عام ١٨٧٠ م وكان يكتب فيها زهرة مصر وجمع من عباقرتها أمثال رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وإسماعيل الفلكى وحسين المرصفى وعبد الله فكرى. ثم أصدر الأقباط جريدتين هما « الوطن » عام ١٨٧٧ م و « مصر » عام ١٨٩٥ م .

هذه بعض الصحف الأولى فى أول عهد مصر بالصحافة ، ولم تكن منتظمة الظهور . ثم صدرت الأهرام سنة ١٨٧٥ م لسليم تقلا وبشارة تقلا ، ثم المحروسة سنة ١٨٨٠ م لإسحاق نقاش وسليم نقاش . والمقطم ، سنة ١٨٨٨ م لفارس نمر ويعقوب صروف . وأصحاب هذه الصحف من أبناء الجالية السورية وهم أسبق فى هذا الميدان من المصريين .

ثم ظهرت أول جريدة وطنية عام ١٨٨٩ م وهى : « المؤيد » للشيخ على يوسف فكانت لساناً للأمة وترجماناً عن المسلمين . ثم « اللواء » لمصطفى كامل زعيم الوطنية الأول ورئيس الحزب الوطنى ، فكانت أولى الصحف الحزبية السياسية .

وتوالى بعد ذلك صور الصحف المصرية وتنوعت ، ومنها « الجريدة » لأحمد لطفى السيد ، و « الأخبار » لأمين الرافعى ، ، و « التنكيت والتبكيت » لعبد الله النديم ، و « كوكب الشرق » لأحمد حافظ عوض . و « الأفكار » و « النظام »و « الجهاد » و « المصرى » . وكان من بينها المجلات الشهرية مثل « الهلال » و« المقتطف » والأسبوعية مثل « الرسالة » و « الثقافة » .

وقد كان لنشاط الحركات السياسية وتعدد الثورات والأحزاب ، ولاتساع الحركة التعليمية وانتعاش روح التفكير أثر بارز فى تعدد الصحف وتنوعها

وازدهارها ، فقد كانت مرآة لكل أولئك ، وكانت بالتالى مؤرخاً ومعلماً لطبقات الأمة بما تنشره منه .

وقد احتجب كثير من الصحف والمجلات التى ذكرناها إما للعقبات المالية وإما بأمر الحكومة لما كان فيها من مهاترات حزبية ونقدات جارحة . والمشهور اليوم : الأهرام والجمهورية والشعب والأخبار الجديدة وأخبار اليوم والمساء والقاهرة ، ومجلة الرسالة الجديدة ، والمجلة ، ومجلة الأدب، وغير ذلك .

ويجدر بنا أن نشير إلى لغة هذه الصحف والمجلات . ونسجل أنها كانت تسير قدماً نحو الكمال . وقد تدرج نثرها كما تدرج النثر الكتابى بعامة ، فى كل نواحى نشاطها ، وأنها كانت إحدى أسباب الجنوح إلى السهولة والوضوح والجزالة معاً فى الأسلوب ، ذلك لأن من أهم ما كانت تعنى به ، لغتها وأسلوبها وإسباغ ثوب من السهولة والوضوح عليهما ، مع الأناقة ولطف الاختيار والترابط وحسن العرض ورعاية الذوق البلاغى والمحافظة على قواعد اللغة مع رغبة واضحة فى تجديد التعبير ومحاولات موفقة فى ذلك . فكان لها الأثر الصالح فى ترقية أساليب قرائها ، وبخاصة الشباب المتأدب بها ، إذ أفادته الكثير من أساليب اللغة وتراكيبها السلمة الجميلة ، ولبعضها كالأهرام والمقطم «كان» أحياناً مقالات افتتاحية أو نحوها ، فى معالجة موضوع وطنى أو اجتماعى أو سياسى ، هى نماذج من النثر الرفيع ، جدة فى المعانى وحنكة وكياسة فى التعبير عنها . والآن فى كل من الأخبار الجديدة والجمهورية والمساء والشعب ثلة ممتازة من الكتاب منهم المحدث والمخضرم ، يدبجون الصفحات الأخيرة منها بمقالات هى آية من آيات الكتابة — فى غالب الأيام — يعالجون فيها شتى الموضوعات من سياسية أو اجتماعية أو فنية أو أدبية أو علمية أو فلسفية أو غير ذلك .

إلا أنه مما يؤسف له أن بعض الصحف لا يخلو من الإسفاف أحياناً ،

ويحشو عباراته بالعامى والدخيل والعبارات السوقية ، بل اجترأ البعض فدعا إلى نبذ الفصحى واصطناع العامية جملة فى أساليب الصحافة وغيرها. وهى دعوة خطيرة ينبغى أن يتنبه لها الداعون وأولو الشأن فى الدولة .

النهضة فى بلاد الشام

١ — تمهيد :

كانت بلاد الشام تابعة لمصر فى عصر المماليك ، ثم وقعت فريسة فى يد الأتراك العثمانيين فسادها الاضطراب . ولما وقع النزاع بينهم وبين محمد على حاربهم فيها بقيادة ابنه إبراهيم ، فاحتازها نحو تسع سنوات إلى سنة ١٨٤٠ م. ثم عادت بعدها إلى العثمانيين فعاد إليها الفساد والاضطراب ، وظلت حتى احتلها الفرنسيون فى الحرب العالمية الأولى ، ثم جلوا عنها بعد الحرب العالمية الثانية ، بعد ثورات جامحة من أهلها وتضحيات كثيرة . وبذلك أصبحت حرة مستقلة وهى مكونة من جمهوريتى سوريا ولبنان . ولا تزال عين الاستعمار — ولا سيما الأمريكى — متطلعة إليهما . — وفى خلال تلك الفتن المتوالية هاجر كثير من أهلها إلى ديار أخرى فاستوطنوها وصاروا من أهلها وزاولوا نشاطهم فيها ، كمصر وأوربا وأمريكا . وكانت لهم يد طولى فى نشر العربية وآدابها فى تلك الأوطان .

٢ — النهضة الأدبية والاجتماعية :

ظلت بلاد الشام تضرب فى ظلام دامس تغشيها الجهالة كما غشت البلاد المصرية فى عهد العثمانيين . غير أنها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، أخذت تفيق من سباتها وتنبعث فيها حياة أدبية واجتماعية جديدة ، وذلك لجملة عوامل ، منها : وفود التجار الأجانب إليها لاستيطانها واستغلال أسواقها ، فنشروا عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم بها ، وقد عاونتهم الامتيازات . ومنها توالى المطبوعات الأدبية والعلمية عليها ، عربية وغير عربية ، من مطابع مصر والآستانة وأوربا ، فكان لها الأثر الحميد فى يقظة فكرية عاون على

نشاطها كثير من المثقفين الوطنيين الذى تلقوا علومهم فى أوربا — هذا إلى انتشار المبشرين المسيحيين فى أرجاء هـذه البلاد وافدين من أوربا وأمريكا رغبة فى نشر مذاهبهم الدينية . وكان قدومهم مبكراً فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، ومنهم المرسلون الأميركان « البروتستنت » ، ومنهم اليسوعيون « الكاثوليك » . وكان التنافس —ولا يزال— بينهم شديداً ، أفادت منه البلاد فوائد قيمة . وقد استتروا بستار التمريض والطب ، وبالتعليم ، نشراً لدعايتهم ، لذلك أنشئوا المستشفيات والمدارس والأديرة والكنائس فى طول البلاد وعرضها ، واتخذوا اللغة العربية — وهى اللغة الوطنية — لغة للتعليم تقرباً إلى الشعب ، فكان لها بذلك حياة جديدة رافهة .

وقد سارع رؤساء الطوائف الدينية المحلية كالمارونية والروم الأرثوذكس ، إلى مباراة هؤلاء المبشرين الطارئين ، فى نشر المدارس لأبناء طوائفهم حرصاً على مذاهبهم ، فكان فى هذه المنافسة كسب فكرى جديد . وقد وجدت هذه الأسباب فى أهل الشام نفوساً مستجيبة وعقولا ملبية ومتابعة ويقظة ، لما فيهم من ميل طبيعى إلى الأدب والعلم والتفكير . فنهضت البلاد نهضة محمودة وظهرت فيها الطباعة والصحافة وانتشرت المدارس الحديثة والنوادى والجمعيات الأدبية والعلمية وما إلى ذلك ، وإليك كلمة عن أهم مظاهر هذه النهضة :

١ — المدارس : قبل إنشاء المدارس الحديثة فى بلاد الشام ، كانت الدراسات الإسلامية فيها تتلقى على شيوخ العلم فى المساجد ، وكان لبعض الطوائف النصرانية بها مدارس مبعثرة هنا وهناك حيث تكثر جالياتهم .

ولما وفد المبشرون الدينيون نشروا المدارس الحديثة للبنين والبنات فى مدن شتى مثل دمشق وحلب وحماه وحمص وطرابلس . واقتدى بهم رؤساء الطوائف الدينية المتوطنة ثم بعض كبار الوطنيين الغيورين ثم حكومة البلاد . فكثر عدد المدارس وزاد المتخرجون فيها ، وكان لهم الفضل الكبير على النهضة الشامية الحديثة ، وكان لبيروت نصيب من ذلك كبير لكثرة ما أنشىء بها من المدارس .

وأهم هذه المدارس :

(أ) المدرسة الإنجليزية : أنشأتها مسز بوين طمسن سنة ١٨٦٠ م في بيروت للبنات .

(ب) الجامعة الأميريكية : أنشأها المبشرون الأميركان في بيروت عام ١٨٦٦ م وبها كلية للطب ، وكلية لطب الأسنان ، وكلية علمية . وتخرج بها عدد كبير من الأطباء والصيادلة والمعلمين والكتاب والأدباء ، فزاول بعضهم تحرير الصحف والمجلات ، وشاركوا في إدارة شئون البلاد . وكانت العربية لغة التعليم بهذه الجامعة فانتشرت آدابها قديمها وحديثها بين الشآميين ، وأقدم كثير من متخرجيها على الترجمة والتأليف بهذه اللغة . غير أنها غيرت منهجها هذا وجعلت الإنجليزية لغة التعليم ، فضعف متخرجوها الجدد عن سابقيهم في العربية .

(حـ) الكلية اليسوعية : أنشاها الآباء اليسوعيون في بيروت عام ١٨٧٤ م ويتعلم الطلاب فيها باللغة العربية عدة علوم منها : الطبيعيات والرياضيات وعلوم التجارة والفلسفة والتاريخ والفلك والطب وغير ذلك ، فضلا عن اللغات الأجنبية ، وقد عدلت هي الأخرى عن التعليم بالعربية ، أخيرا .

(د) المدارس الوطنية : منها ما أنشأه الأفراد . ومنها ما أنشأته الحكومة . ومنها الإسلامي وغير الإسلامي ، وهي كثيرة منتشرة في أنحاء سوريا ولبنان . ومنها « المدرسة الوطنية » أنشأها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٣ م فازدهرت بها الدراسة ثم أقفلت عام ١٨٧٦ م . و « الكلية العثمانية » وقد نمت واتسعت منذ عام ١٩٠٠ م .

٢ — الطباعة : السوريون أسبق الأمم العربية إلى اصطناع الطباعة العربية . لقد عرفتها سوريا في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي . وظهرت في « حلب » مبكرة إذ طبع بها الإنجيل عام ١٧٠٦ م . ثم ظهرت في مدن لبنان وغيرها ، وأخذت في مشاركة النهضة بما تطبعه من كتب ثقافية ومدرسية وصحف أدبية وعلمية .

ومن أهم المطابع : « مطبعة القديس جاورجيوس أنشئت عام ١٧٥٣ م وهي أقدم مطابع بيروت ، و « المطبعة الأمريكية » أنشأها المبشرون الأمريكان

فى بيروت عام ١٨٣٤ م ، و « المطبعة الكاثوليكية » أنشأها الآباء اليسوعيون علم ١٨٤٨ م وهى من أرقى مطابع سوريا وأسبقها فضلا فى نشر كتب الأدب والتاريخ واللغة والدين والدراسة . و « المطبعة السورية » لخليل الخورى صاحب جريدة « حديقة الأخبار » و « مطبعة البستانى » التى نشرت جريدة « الجنة » و « الجنان » وكتبه « محيط المحيط » فى اللغة و « دائرة معارف البستانى » . وتوالى إنشاء المطابع وكثر ما تقدم إلى موائد الأدب والعلم من أسفار قيمة .

٣ — الصحافة : كانت مصر أسبق بلاد الشرق إلى إنشاء الصحف العربية . على نحو ما بينا . ثم ظهرت الصحف العربية فى القسطنطينية منذ عام ١٨٥٥ م . وفى سنة ١٨٦٠ م ظهرت بها جريدة « الجوائب » للأديب الكبير أحمد فارس الشدياق وظلت زمناً طويلا معرضاً لأرباب الأقلام والأفكار ، وعاشت نحو ربع قرن . وتوالى بعدها صدور الصحف العربية .

ولكن الصحافة العربية بكرت فى بلاد الشام إذ ظهرت، بها نشرات المبشرين الدينيين منذ عام ١٨٥١م . وهكذا بدأت بها الصحافة دينية تبشيرية . ثم ظهرت « حديقة الأخبار » لخليل الخورى عام ١٨٥٨م وتعتبر أولى الصحف العربية فى سوريا واتخذتها الحكومة لساناً لها مدة ، وعاشت أكثر من نصف قرن .

ثم نشطت الصحافة السورية نشاطاً ملحوظاً منذ عام ١٧٧٠م إذ صدرت بها « الزهرة » ليوسف شلفون و « البشير » للآباء اليسوعيين ، و « الجنة » ، و « الجنان » لبطرس البستانى ، و « النحلة » للقس لويس صابونجى ، وغيرها .

وكان المسيحيون — كما رأيت — أكثر نشاطا من المسلمين فى باب الصحافة ومن الصحف الإسلامية « ثمرات الفنون » وكان يديرها السيد عبد القادر القبانى ، وغيرها.

والآن تبدى دمشق وبيروت نشاطاً صحفياً كبيراً بدافع التقدم العلمى الجديد ، وبدافع الأحداث السياسية المتلاحقة . وتتسم صحافتها بالنزعات الأدبية الأصيلة وبخاصة المجلات الأسبوعية أو الشهرية ومن بينها مجلة الآداب التى تصدر فى بيروت .

ومن أركان النهضة السورية الحديثة ، وأعلام الأدب والشعر والصحافة والعلم والتأليف : الشيخ ناصيف اليازجى وابنه ابراهيم اليازجى . والدكتور

فنديك المستشرق الأمريكى ، والمعلم بطرس البستانى وابنه سليم البستانى، وأحمد فارس الشدياق ، وأديب اسحق ، وجبران خليل جبران ، ومحمد كرد على .

ملحـــوظات :

١ — نلاحظ أن النهضـة المصرية الحديثة كانت فى أول أمرها عسكرية حكومية علمية ، متأثرة بحضارة أوربا ونظمها ثم هدأ نشاطها العسكرى ، ونهض الأدب بجوار العلم ، وسارا قدما نحو الغاية ، وبالرغم من الاحتلال الإنجليزى سرى حب النهوض فى النفوس وتحمس الشعب وتنافس أبناؤه فصارت النهضة نابعة من الأمة نفسها ، ولم تنكص فى يوم من الأيام ، بل تقدمت فى شتى مرافقها . والمشاهد اليوم أن الأمة حكومة وشعباً متساندان فى العمل على التقدم السريع فى كل مضمار سواء أكان فى العلم والأدب ، أم فى الاقتصاد والمال ، أم فى تصنيع البلاد وتثمير أموالها واستخراج كنوز أرضها ، أم تثبيت حريتها واستقلالها وسيادتها . كما أن حكومة الثورة معنية كل العناية بالتعليم العسكرى وتجهيز جيش مصر بالمعدات الحديثة مع التدرب عليها ، وكذلك بنشر التعليم الرياضى ، إيماناً منهـا بأن العصر عصر الشجاعة والقوة . وقد قطعت فى ذلك أشواطاً واسعة . هذا مع عنايتها بألوان التعليم الأخرى .

أما النهضة السورية الحديثة فقد بكرت بعض التبكير عن النهضة المصرية لوفود التجار الأجانب والمبشرين الدينيين إليها . وكانت منذ بدئها أدبية أهلية غير حكومية . ثم أخذت تتعثر نظراً لقسوة الحكم العثمانى وما انتاب البلاد من فتن وثورات ، وما دخل إليها من نفوذ أجنبى ، فتأخرت بلاد الشام عن مصر ، وأصبحت اليوم تستمد من صحافتها ومطبوعاتها العلمية والأدبية ، ومن أساتذتها .

٢ — ونلاحظ أيضاً أن النهضة المصرية لم تتسم بسمة دينية منذ مطلع فجرها ، ولعل هذا سبب التأخر فى إصلاح الازهر إصلاحا شاملا ، على أن المحاولات تبذل فى مناسباتها لإصلاحه ، ثم للاستفادة من النزعات الدينية السليمة فى النهضة ، ولهذا أنشىء منذ سنوات « المؤتمر الإسلامى » للعمل على بث الثقافة الإسلامية فى مصر وغيرها من الأمصار الإسلامية ، واستخدام ذلك وسيلة لربط هذه الأمصار برباط وثيق يعاونها على التكتل ضد الأجنبى المستعمر والمستغل .

أما النهضة السورية فكان للمنافسات الدينية أثر ملموس فى صبغ النهضة

بصبغة دينية ، وقد نبعت فى أول أمرها من المستشفيات والمدارس والأديرة والكنائس . وقد عاون على ذلك كثرة النصارى ببلاد الشام . وقد برز كثير من هؤلاء وشاركوا فى بناء نهضة بلادهم ، وظهرت الصحافة المسيحية قبل الإسلامية ، ثم نهضت الجماعات الإسلامية فعملت على نشر التعليم الإسلامى والثقافة العربية ، ولكنها لا تزال حتى اليوم فى حاجة إلى المزيد والمعونة .

٣ — ونلاحظ أن اللغة العربية اتخذت لغة للتعليم فى مصر فى بدء النهضة ، وصارت اللغة الرسمية للدولة ولذلك بعثت وخلقت خلقاً آخر ، وهى وإن شاركتها اللغات الأجنبية — إنجليزية وفرنسية — فى الميدان أحياناً ، كان لها فى النهاية الغلبة عليها . ثم تعصبت لها الأمة حكومة وشعباً ، وهكذا صارت أداة العلم والأدب ، وألفت بها الكتب الجديدة ، وعربت إليها الكتب الأجنبية ، ويحاول كثير من أهل الفضل والهمة من العلماء تطويعها للعلوم الكونية الجديدة . ولا تزال حتى اليوم ، لها السيادة الأولى فى شتى مرافق الدولة والشعب .

أما النهضة السورية فقد اتخذت العربية لسانا لها منذ بدئها ، وكانت لغة التعليم فى المدرستين الكبيرتين ببيروت وهما الجامعة الامريكية والكلية اليسوعية ، مع عناية محمودة بآدابها ، شعرها ونثرها ، والعمل على تقويم لسان الناشئة بها ، وقد أقدم على التأليف بها أو الترجمة إليها كثير من أساتذة المدرستين ، فتخرج على يدهم كثير من مثقفى سوريا وأدبائها الذين كانوا نموذجا طيبا فى فهم اللغة وآدابها ومزاولة الكتابة والنظم بها ، كما كانوا متعصبين لها وذادة عنها . وكان من أثر ذلك أن سبقوا المصريين فى ميدان اللغة والأدب والصحافة ، حتى إن منهم الطليعة الفاضلة التى أنشأت الصحف بالبلاد المصرية .

إلا أن المدرستين المذكورتين — وكانتا إلى حد كبير مصدر النور والعلم ببلاد الشام — عدلتا منذ حين عن التعليم باللغة العربية ، إلى الإنجليزية والفرنسية ، فكان ذلك سببا فى ضعف المتخرجين فى العربية ضعفاً واضحا ، وكان فى جملة الأسباب التى عاقت النهضة الأدبية عن مساماة نظيرتها بمصر ، كما هو مشاهد فى الآونة الحاضرة .

النـــــــثر

ينقسم النثر ثلاثة أنواع : محادثة . وخطابة ، وكتابة ، وإليك كلمة عن كل نوع :

المحـــــادثة

١ — المحادثة أو لغة التخاطب هي تلك اللغة العامة التي يتخاطب بها سائر أفراد الشعب في أحوالهم المعاشية . وإذا كان قياس رقي هذه اللغة — في نظرنا — هو مبلغ قربها أو بعدها من العربية الفصيحة المعربة ، وجدنا أن لغة المحادثة في بلادنا كانت عامية ملحونة محرفة وغاية في الانحطاط والضعف والضيق ، في أول العصر الحديث ، كثيرة الامتزاج باللفظ الدخيل من تركي وغيره . تشهد بذلك ، تلك النماذج الكتابية التي نراها في منشورات نابليون وكتاب الجبرتي المؤرخ ، وأوامر محمد علي باشا ، فإن الكتابة فيها بادية الهزال واضحة القلق ، وهي — إلى حد كبير — صدى اللغة العامة الذائعة على ألسنة الشعب حينذاك . وهذا أمر طبيعي إذ أن الشعب المصري ابتلي بمحن كثيرة متلاحقة كاحتلال العثمانيين واستبدادهم وإقفال دور التعليم ونضوب موارد الثقافة ، والانقطاع عن العالم الخارجي . فخمل أدبه وتطامن تفكيره وضعفت لغته .

٢ — ثم كان ليقظة البلاد في مطالع العصر الحديث ، وتنبيه خواطرها ، وتثقيف بنيها ، أثر ما في الترفيه عن هذه اللغة العامية . غير أن هذا لم يبد بدواً محموداً إلا منذ عصر إسماعيل ، حيث نشطت الآداب وتيقظ الذوق الأدبي ، وبدأت عوامل الثقافة الأدبية في الانتشار . فكان لذلك صدى في لغة الشعب . فارتقت رقياً ما ، ورفه عنها بعض الترفيه : وآية ذلك انتشار شعرها — الزجل — ورواج سوقه وتفوق بضاعته عند الخاصة والعامة ، في ذلك الجيل . وقد بلغ الزجالون في زمن إسماعيل وتوفيق منزلة طيبة شجعتهم على مزاولة فنهم ،

ومنهم : محمد جلال عثمان بك ، والسيد عبد الله النديم ، والشيخ محمد النجار ، والشيخ أحمد القوصى .

٣ — ومنذ تيقظت البلاد يقظتها السياسية الكبرى وأقبلت على التعليم بجمع نفسها ، وتفشت فيها عوامل الثقافة بجميع وسائلها من طباعة وصحافة وإذاعة وحفلات تكريم وتأبين وانتخاب ومناسبات سياسية مختلفة ، وشهدت عدداً لا يستهان به من الخطباء المفوهين والكتاب القادرين يخطبونها أو يكتبون لها بلغة عربية سليمة فصيحة مبينة سهلة المأخذ واضحة العبارة ، يصوغون فيها أعقد خفايا السياسة ، وخفى مشاكل القضية المصرية ، فيزيلون عنها العقادة ، ويكشفون الخفاء ، لأن همهم إبرازها سافرة للشعب حتى يفهمها ويقضى قضاءه فيها — كل ذلك كان له أثر بالغ فى لغة المحادثة الشعبية ، فاتسع نطاقها وكثرت ألفاظها وتنوعت أساليبها وتهذبت عباراتها . وأخذت العامة يرددون فيها الألفاظ والتراكيب التى يسمعونها من الخطباء ، وما يقرؤه عليهم قارئوهم فى المجالس والمقاهى من أخبار الصحف ومقالات الزعماء وأحاديثهم ومقالات الكتاب .

وهناك أسباب أخرى رفهت عن العامية فى زماننا . منها : تنظيم طرق التقاضى واشتراط إقامة المحامين فى بعض القضايا ، وكثرة قضايا العامة التى تدفعهم إلى الاختلاط بأهل القضاء والمحاماة فيشافهونهم ويتأثرون بحديثهم ويتلقون منهم ألفاظاً وأساليب عربية فيها مصطلحات عدة . مثل رفع الدعوى ، والادعاء والاستئناف ، والتأجيل ، والمعارضة ، والإشكال ، ورد القاضى ، وعرض الحال ، والطعن ، وغير ذلك ، فتجرى هذه الألفاظ على ألسنتهم فى أحاديثهم العادية بل ونكاتهم البلدية .

ومنها انتشار الأغانى والأناشيد والجدل والحوار فى الصحف والمذياع ، ودور الخيالة على ألسنة المغنيين والممثلين ، وكذلك فى دور التعليم بين الفرق التمثيلية والموسيقية ، ومهما ركت هذه الأغانى ، فهى أرفه وأرفع من لغة الشعب العامية وأقرب منها إلى العربية الفصيحة ، فهى وسيلة — إذن — للترفيه عن لغة الشعب وأداة لإصلاحها .

ونذكر بخاصة — أن بعض هذه الأغانى مصوغ فى قالب عربى أكثر فصاحة وإعراباً ، بل منها العربى الفصيح المعرب ، ومنها الشعر الجيد الراقى كشعر أمير الشعراء شوقى بك ، ونسمع بأنفسنا أفراداً من العامة يرددونها كما هى، عربية معربة وإن ندت معانيها عن أفهامهم — وإذا راعينا أن شعبنا كثير العناية بهذه الأغانى والأناشيد ، عجول إلى حفظها، سريع إلى ترديدها شعرنا بأهميتها وضرورة العناية بها وبإصلاحها وصقلها وحسن اختيارها ، لتكون وسيلة ناجعة إلى صقل منطق الشعب بصقال العربية السليمة .

من هذا وذاك نشعر أن لغة التخاطب بيننا قد ارتقت رقياً لا بأس به ، وأصبحت الآن أقرب إلى الفصيحة منها أول العصر الحاضر . وقد ترفع كثير من الأدباء عن نظم الزجل ، مؤثرين عليه نظم الشعر الفصيح ، فهو أمتع وأخلد وبخاصة لما رأوا السادة والقادة وعامة المثقفين ، بل والناشئة المتأدبة تميل عن سماع الزجل إلى سماع الشعر الفصيح — وهذا كله مما يبشر بمستقبل سعيد رافه ، تعود فيه ألسنة الشعوب العربية إلى التخاطب بلغة القرآن والحديث .

ومما يجدر بنا ذكره بهذه المناسبة ، ما سمعناه من كثيرين من الخبيرين ، من أن لغة عوام مصر — على ما بها وعلى تشعب لهجاتها واختلاف أدائها بين شمال مصر وجنوبها ، وبين شرقها وغربها — خير من لغات عوام الشعوب العربية الأخرى ، وأقرب منها إلى الفصيحة .

على أن لغتنا العامية اليوم — على الرغم من تفصحها ورقيها واتساعها عما كانت عليه أول العصر — لا تزال ملحونة ، تعانى ضروباً من التحريف فى حروف كلماتها أو شكل حروفها ، أو اشتقاق مفرداتها ، أو طرق التعبير عن المعانى والأفكار والتصورات المختلفة ، كما أنها تزخر بعدد ضخم من الألفاظ والتراكيب الدخيلة من إنجليزية وفرنسية ونحوها . وذلك لشدة اتصالنا واختلاطنا اليوم بالجاليات الأجنبية ، فى المصانع والأسواق والمساكن وبعض المؤسسات العلمية والاقتصادية وغيرها . على أن هذه لوثة لا تخلو منها إحدى لغات البشر ، وفى اللغة الفصيحة نفسها لوثة مثلها .

و - ش — ولا يزال يعيش بيننا — عدد من الأدباء الزجالين ، ينظمون الزجل فى شتى الأغراض كالغزل والمدح والرثاء والوصف ، وأفضل مانظموه فيه ، نقد الحياة الاجتماعية الحاضرة وما فيها من أوضاع . ونحن نقرأ زجلهم أو نسمعه ، فى الصحف أو المذياع أو نحوهما من وسائل النشر .

ولعل من حسن الحظ ، أن اللغة العامية فى زماننا — دون سائر اللغات العامية العربية ، فى العصور المنصرمة — قد قيضت لها الإذاعة الصوتية على أمواج الأثير . وأهم من هذا ، تسجيلها تسجيلا كهربائياً ممثلة فى الأغانى والأناشيد الشعبية ، والقصص والفكاهات والمحاكيات ونحوها مما يفيض بالجدل والحوار . وهذا التسجيل يعين المؤرخ — فيما بعد — على وعى هذه اللغة وتصورها تصوراً أكثر صدقاً ودقة ، مما تصورنا به اللغات العامية البائدة ، إذ لم يبق منها أثر إلا مبعثرات من الأزجال وشنات من الأمثال ونحوها فى بعض كتب الأدب ، روعى فى تدوينها شىء من فصاحه الفصحى ، وذلك لا يعين على حسن تصورها تصوراً يرتاح إليه مؤرخ الأدب .

الخطابة

كانت الخطابة على اختلاف أنواعها فى حالة يرثى لها منذ زمن بعيد . سواء أكانت فى مصر أم فى الشام أو غيرهما من بلدان الشرق العربى . وقد زادت حالتها سوءاً فى عهد العثمانيين لعدم الداعية إليها ، ولكثرة الأدواء التى انتابت اللسان العربى وأهله . فظل أمر الخطابة مقصوراً على خطب الجمع والأعياد ، وما إليها من خطب دينية . بل لقد دب الضعف فى هذا النوع أيضاً ، وقلت القدرة على إحسانه . ومن هنا نشأت دواوين للخطب الدينية تنتقى منها الخطبة المناسبة للجمعة أو العيد الذى يلقى فيه . وظلت كذلك حتى عهد محمد على ومن بعده ، جدت لها عوامل أثرت فيها .

وقد تعددت أنواع الخطابة ، فمنها الدينية والسياسية والعلمية ، وغير ذلك وإليك كلمة عن كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة :

١ ـ الخطابة الدينية

كانت الخطابة الدينية فى أول العصر مقصورة على المسجد تتلى فوق المنابر، من خطباء دب فى نفوسهم الضعف . فأذاعوا الخوف والهلع فى قلوب الناس من القبر وعذابه ، ويوم القيامة وحسابه . وزهدوهم فى الدنيا ، ولم يتناولوا شئونها بالشرح والإرشاد إليها ، والتشجيع على مزاولة احلالها ، والتبصير بحرامها . كل ذلك فى عبارات مسجوعة وأساليب محشوة بكلمات وتراكيب غريبة فوق مستوى السامعين ، الذين لا يفيقون وقت السماع إلا على لفظ الجلالة ، أو ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام .

حتى كان عصر إسماعيل ، وفيه هبط مصر العالم الحكيم ، والمصلح الدينى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى . فالتف حوله طائفة من متيقظى الأزهريين وغيرهم ، منهم محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الكريم سليمان ، ومحمود سامى البارودى ، وأنشئت النوادى وحفلت المجالس التى يخطب فيها هذا الداعية ، ويجادل ويحاور فى العقائد الدينية وفى الأوضاع الإجتماعية والسياسية ، ويدفع طلبته إلى الجدل والحوار والمناظرة ، فنهضت الخطابة الدينية نهوضا محموداً وأصبح أسلوبها خالياً من قيود السجع والبديع إلا بمقدار ، حاوياً الكثير من الأفكار والمبادىء الحيوية المبنية على تعاليم الإسلام ، والتى ترمى إلى الإصلاح الدينى ، كما أنها لم تعد مقصورة على خطب المساجد فى المناسبات الدينية .

ومع أن الحكومة المصرية عن لها أن تخرج هذا الداعية ، جمال الدين الأفغانى عام ١٨٧٩ م فى عهد الخديو توفيق ، لم يمح خروجه الأثر الصالح الذى تركه بها وبتلاميذه .

غير أن الثورة العرابية شبت واشتغل الناس بأمرها ، وتتابعت من بعدها الحركات السياسية حتى جيلنا الحالى ، فغلبت ماعداها . ففت ذلك فى عضد الخطابة الدينية وفتر أمرها ، إلا ما كان يرد منها على لسان المرحومين محمد عبده ومصطفى كامل .

نهوضها وعوامله:

وظل لها هذا الفتور حتى برزت فئة صالحة من شبيبة خريجى دار العلوم ، ومنهم عبدالعزيز جاويش وعبد الوهاب النجار ، وانتعشت حالةالتعليم بالأزهر وانشئ قسم الوعظ والإرشاد فى إحدى كلياته — كلية أصول الدين — وأنشئت بالأزهر إدارة خاصة بالوعظ والإرشاد ، وخصصت وظائف عدة للوعاظ فانتشروا فى المدن والقرى ، وخرجت إلى ميدان الحياة العملى شبيبة أزهرية ناضجة هذبت تهذيباً حديثاً ، وشاركت — وهى تطلب العلم — فى الحركات القومية فمرنت على الخطابة ، وعاود علماء الدين نشاطهم فنظروا إلى الدين نظرة جادة ، وشعروا بضرورة إصلاح أمور الناس به وإعادتهم إلى حظيرته ، فنهض أعلام منهم — ومن غيرهم — يلقون العظات فى المحافل والمجتمعات والإذاعة والمناسبات المختلفة ، ويتناولون آى القرآن الكريم بالتفسير والشرح ، دروساً فى شهر رمضان من كل عام ، أو على أمواج الأثير فى صباح أيام من الأسبوع. وانتشرت النوادى والجمعيات الدينية التى جعلت من همها مكافحة الفساد وتبصير الناس بتعاليم دينهم التى بها يعيشون سعداء فى الدارين، كجمعية الشبان المسلمين، وجمعية مكارم الأخلاق . نقول لما قيضت للخطابة هذه العوامل والأسباب ، نشطت نشاطاً ملحوظا ، وبلغت اليوم مبلغاً محموداً .

وأصبحنا نرى من الوعاظ وخطباء المنابر ، والعلماء الذين يتصدون للدعوة الدينية ، منطقا سليما بارعا وعبارة متدفقة مؤثرة ، وأسلوباً رائعاً مملوءاً بالحجج القاطعة والبراهين الدامغة ، لا يعنون فيه بزخرف من البديع ولا بهرج من السجع، مع لباقة فى الاستشهاد بآى القرآن وحديث الرسول وقصص التاريخ، فضلا عن دقة ما يتخيرونه من الموضوعات الحيوية الشديدة الصلة بحياة الأمة، بل الأمم الإسلامية الحاضرة بعقيدتها واجتماعياتها ومعاملاتها ، وارتباط بعضها بالبعض ونحو ذلك ،

ونحن مع اعترافنا بهذا النهوض الملموس ، لا نزال نرجو له المزيد والشمول،

إذ نرى بأعيننا مبلغ ما يسود مجتمعاتنا الإسلامية من شرور ، ومن جهل بتعاليم الإسلام الصحيحة ، ومن عدم فهم للروح الدينية السليمة ، مما يحتاج إلى طب حاذق ، وعلاج حاسم ، يجتث أثره ويمحو خطره ، ومن هنا نشعر بأن المجتمع الإسلامى لا يزال فى حاجة قصوى إلى خطباء دينيين ممتازين مزودين بألوان من الثقافة قديمها وحديثها ، واسعى الأفق رحبي الصدر ، يشخصون الداء و يصفون الدواء .

ومن الخطباء الدينيين غير من ذكرنا ، الإمام محمد مصطفى المراغى الذى كان شيخاً للأزهر ، وكثير من نجباء الأزهر الحاليين .

نموذج من الخطابة الدينية .

خطب الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر خطبة يوم الجمعة ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٥٦ هـ . فوق منبر الأزهر ، فقال : بعد أن حمد الله وصلى على نبيه الكريم :

« أما بعد فيقول الله تعالى : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » ويقول الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . على هذا الأساس نشب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل ، كريما لا يقبل الضيم . وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صرح مجده ، وطوفوا به الآفاق . نافذ السلطان رفيع المكان ، ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات ، وضلوا السبيل ، حسبو الأمر مغانم تقسم وأسلابا توزع ، ودنيا مملوءة بالملذات ، فيها دعة وسكون ، وترف ومجون ، وطال عليهم الأمد فى ذلك ، فقست قلوبهم ، وصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهى فساءت حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه » إلى آخر ما قال .

٢ — الخطابة السياسية

لم تعرف الشعوب العربية هـذا الضرب من الخطابة منذ أمد طويل ، وهو الذى يوقظ وجدان الجماهير وينبه خواطرهم ، ويذكى نار الحماسة فى صفوفهم ، ويلفتهم إلى حقوقهم السياسية فى داخل وطنهم أوخارجه ، وإلى قضاياهم الوطنية وإلى ما ينبغى لهم عمله إزاءها ، ويشرح أعمال حكامهم مؤيداً أو معارضا ، إلى غير ذلك .

وظلت مصر ، فى جملة البلاد العربية ، لا تعرف هذا اللون الخطابى ، حتى كان عصر إسماعيل ، فبدأ نجم الخطابة السياسية فى أفق البلاد ، وما زال يعلو فى سمائها شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت أروع أنواع الخطابة ، وأكثرها تأثيراً فى حياة البلاد وتوجيهها إلى مستقبلها ، وحتى أصبحت سلاح كثير من قادتها وزعمائها إلى غاياتهم . ولا نبالغ إذا قلنا إنها لون جديد من ألوان الآداب .

ونجمل فيما يلى بعض أسباب نهوض الخطابة السياسية فنها تباعاً :

١ — إنشاء مجلس شورى النواب فى عصر إسماعيل عام ١٨٦٦ م وهو إحياء للمجلس المخصوص الذى ألفه محمد على فى أواخر عهده . وقد بدرت فى هذ المجلس بادرة الخطابة السياسية . ولكنها كانت ضعيفة ركيكة الأسلوب ، لم تخرج عن نطاق المجلس الذى كانت جلساته سرية .

٢ — ومنها وفود السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١ م حتى عام ١٨٧٩م ، والتفاف كثير من النابهين والطلاب والشبيبة من حوله . وكان لا ينى يخطب بينهم فى الإصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى والسياسى داعياً إلى نهوض البلاد والشرق الإسلامى ، باثاً فى نفوس تلاميذه روح الإقدام والجرأة وعشق الحرية وحب الوطن وبغض المستبد ، فكان بذلك مدرسة خطابية أطلقت عقال الألسنة وجرأتها على القول والارتجال ، فنهضت بذلك الخطابة السياسية . ثم نفى الرجل ، وبقيت روحه الوثابة ذاكية فى نفوس تلاميذه وأصدقائه أمثال محمود سامى

البارودى ، وإبراهيم اللقانى ، ومحمد عبده، وسعد زغلول . وإبراهيم الهلباوى .

٣ — ومنها قيام الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م التى جاءت فى أعقاب حركة جمال الدين فى مصر ، وقد أذكت روح الخطابة فى زعمائها وأظهرت قدرتهم الكامنة على ضبط مواقفهاوانتهاز فرصها ، وحسن الارتجال فيها ، ومنهم السيد عبد الله النديم ، وأحمد عرابى ، والبارودى .

٤ — ومنها ظهور مصطفى كامل الذى توفى فى سن الرابعة والثلاثين عام ١٩٠٨ م . وكان منذ حداثته قوى العارضة ذكى الفؤاد شجاع النفس ، شديد الإيمان بوطنه وإسلامه . نزل إلى ميدان الخطابة وهو طالب ، فكافح عن البلاد ونافح ، وما زال ينافح بفائض من البياض وساطع من البرهان ، ورائع من الحجة ومتدفق من العبارة ، حتى جذب الأنظار وخلب القلوب . فالتفت حوله شبيبة البلاد ونابهوها ، وتشبهوا به فى الخطابة فكان وحده أستاذاً لمدرسة خطابية واسعة الأطراف تخرج بها كثير من زهرة شباب مصر ، كانوا دعائم لنهضتها السياسية الكبرى . وكان أول زعيم وطنى ملك أفئدة الناس وألهب حماستهم بخطابته ، وخلب عقولهم وراعها وأيقظها ورد عليها كرامتها ، وغرس فى النفوس حب الوطن ، ولم تطفأ من بعده تلك الجذوة التى شب ضرامها وأورى زندها . وعاشت آثارها الصالحة حتى عادت أكثر اضطراما، وأشد اتقاداً، وذلك فى سنة ١٩١٩م. ومن أصدقاء هذا الزعيم خليفته محمد فريد ، وعبد العزيز جاويش وحافظ رمضان .

وفى تلك الحقبة كان قد أنشىء مجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية فساعد على نمو الخطابة السياسية .

٥ — ثورة المصريين السياسية سنة ١٩١٩ م بقيادة الزعيم سعد زغلول ، وقد كان لسانها وترجمانها ، ومذكى نيرانها بمنطق فصيح وعبارة حماسية وحجة قوية وجمل مواتية متتابعة ، حتى لقد قال هو عن نفسه ما معناه ، «إن المعانى تنثال على خاطره تباعا سراعا ، حينما يقف على المنبر مرتجلا » . وكانت الخطابة أسهل عليه من الكتابة ، وإذا وقف خطيباً استمر الساعات الطوال .

بلا توقف ولا تعلثم أو خطأ فى اللغة ، بعبارة فصيحة واضحة قوية — وهو الشيخ المسن — فيملأ النفوس حماسة ، والقلوب حمية . وله الفضل فى شبوب حب الوطن وروح التضحية وإيقاظ الشعور فى مصر ـ وبسبب ذلك كله كان أستاذاً لمدرسة خطابية جديدة ، تخرج بها أفضل خطباء الثورة المصرية وزعمائها . وقد كان من عادته الخطابية أنه عند الوقف ، يقف بحركة الإعراب ، لا بالسكون كما هى عادة الخطابة العربية . كما كان يرقق قافاته فتصير كافات ، وذلك لضعف فى حنجرته . فقلده كثيرون من الخطباء فى هاتين الخصوصيتين ، ولا سيما أولاهما .

٦ — انتعاش الحياة السياسية فى مصر وسوريا وغيرهما من بلاد الشرق العربى وبخاصة بعد منح الدساتير وإنشاء المجالس النيابية ، عن طريق الانتخابات العامة ، ولذلك أثر كبير فى شحذ الهمة ونجابة الخطابة ، والسمو بالخطابة السياسية إلى مستوى عال لم يعهد من قبل . ونحن نشاهد أن أيام الانتخابات فى بلادنا مواسم خطابية جليلة الشأن كثيرة الإنتاج ، يتوقح فيها كثير من الناس حتى عوامهم ، على منابر الخطابة ، فيخطبون ويرتجلون ويناظرون ويحاورون . وقد أصبح التبريز فى الخطابة السياسية والقدرة على امتلاك زمامها وتوجيه عنانها ، من أهم وسائل النجاح فى حياة الخطيب ، فإنها توصله إلى كرسى النيابة أو تروج مبدأه أو دعوته أو نحو ذلك . وكثير ممن كانوا نوابا وشيوخا خطباء ، أرخت لهم الخطابة من خطامها ، فكان النصر حليفهم والنجاح أليفهم .

وقد بلغت الخطابة السياسية اليوم مبلغاً تغبط عليه ، من عبارة سهلة وأسلوب مرسل قليل السجعات ، ومعانى رائعة واضحة . وهى فى مجموعها سجل خالد للنهضة الوطنية وآمال المصريين . وقد شهدنا أخيراً عدداً من رجال الثورة الحاضرة وقادتها الأحرار يعتلون المنابر ويخطبون الناس فى جليل الأمور ، فيملكون النفوس ويبلغون الغرض ببيانهم الرائع وكلامهم البليغ ومنطقهم السليم وحجتهم البارعة ، وعلى رأسهم قائد الثورة الرئيس جمال عبد الناصر .

ولا بد من الإشارة إلى أن الخطابة كانت تتخللها العامية أحيانا ، لفظاً وتركيبا

ولحنا . بل كان بعض الخطباء يخطبون بالعامية ، أو بالعامة آنا ، وبالعربية آنا آخر ، كالسيد عبد الله النديم وإبراهيم الهلباوى . ولكن هذه المنقصة زالت شيئاً فشيئاً بفضل انتشار التعليم ، وتفصح العوام ، وبفضل عباقرة الخطباء من زعماء ونواب ومنهم مصطفى كامل ، ومحمد فريد وسعد زغلول ، وإسماعيل أباظة ، ومصطفى القاياتى ، ومحمد أبو شادى ، وعبد العزيز جاويش ، وعبد اللطيف الصوفانى ، وعبد الخالق ثروت ؛ وغيرهم كثيرون وبين ظهرانينا عدد لا يستهان به من الخطباء السياسين . ومنهم زعماء الثورة الحاضرة .

وينبغى لنا أن نذكر أن من خطبائنا من يعتمد على إعداد الخطبة قبل إلقائها فيحفظها أو يقرؤها ، وهذه منقصة خطابية ينبغى أن يتنزه عنها الخطيب كما أن بعض الخطباء فى داخل المجالس النيابية كانوا يخطبون بلغة قراهم ثم يظهرها كتاب المجلس أو محررو الصحف ، عربية تلبس ثوبا قشيباً ملؤه الفصاحة والبيان . وحبذا لو راعى خطباؤنا العربية السليمة .

نموذج من الخطابة السياسية :

١ — من خطبة للمرحوم مصطفى كامل باشا المتوفى سنة ١٩٠٨ م قال :

« إن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل ، فلبست ثياب اليأس ، وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز ، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم . فلا تنادى فى المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قدمات من زمن طويل ، وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلا جديداً . وترى رجال هذه الفئة البائسة يرمون كل رجل يقوم بالدفاع عن البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر ، قائلين :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى

وعندى أن الرجال اليائسين ، وإن كانوا أقل من القليل ، يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه . إذ أن قتل العواطف الشريفة ، وإخماد نار الغيرة الوطنية أكبر جناية تجنى على الوطن وأهله . فليكن من واجبنا أن نترك

هؤلاء اليائسين فى سفن يأسهم ، تصعدهم أمواج الأفكار، وتهبط بهم حتى يصلوا إلى شاطىء الخير وبر الرفاهية ، فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم» ..الخ

٢ — من خطبة للزعيم سعد زغلول باشا المتوفى سنة ١٩٢٧ م ، خطبها بالإسكندرية بعد قطع المفاوضات مع رئيس الوزارة الإنجليزية فى شأن المعاهدة المصرية الإنجليزية ، قال منها :

« نعم لم تتحقق أمانى البلاد فى هذه المرة . ولكن ماشعرت به من اتحادكم ، وما أحسسته من حرارة حماستكم ، وما علمت به من تصميمكم أن تصلوا إلى حقكم ، يشجعنى على أن أسير معكم إلى النهاية .

« ومنذا الذى لا يتشجع بهذه العزائم المعقدة ! بهذه الأصوات المرتفعة من أعماق القلوب ؟ بهذه الحماسة المتأججة فى الصدور ؟ لما سميتموه سعياً كريما . ذلك السعى الذى لم يتكلل بالنجاح . نعم عزائم تحملنى على أن أستميت فى الحصول على استقلالنا .

« قطعت المحادثات وعدت إليكم حافظاً كل حقوقنا ، فاستقبلتمونى هذا الاستقبال الباهر . إننا لم نخسر شيئاً . بل كسبنا أن واجهناهم بحقوقنا وأدلتنا عليها . وأنهم يأبونها علينا بغير حجة ولا دليل . وأننا لا نعتمد إلا على أنفسنا . فالواجب علينا مضاعفة جهودنا وتمتين اتحادنا ، وأن نتشدد فى التمسك بحقوقنا ، وألا ندع فرصة تمر إلا طالبنا فيها بحقوقنا . فما مات حق وراءه مطالب » .

٣ — ومن خطبة للرئيس جمال عبد الناصر ألقاها يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤ بمناسبة عيد الثورة الثانى :

« أيها المواطنون :

« أحييكم وأهنئكم وأهيب بكم، وأجدد العهد لكم ، أحييكم تحية ملؤها الحب والإعجاب بكم ، تحية تستيقظ فيها ذكريات جهادكم وجهاد أجدادكم من أجل حريتكم وكرامتكم .

« وأهنئكم بالعيد الثانى لثورتكم ، ثورتكم التى عملتم لها سنين طويلة ، وبذلتم

فى سبيلها تضحيات ثقيلة ، وارتقبتم انبلاج نهارها وشبوب نارها ، فى صبر المؤمن وإيمان الواثق بحقه وبالله العلى العظيم . وأهيب بكم أن تضاعفوا الجهد وتواصلوا السعى وأن توقنوا أن ثورتنا فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ليست إلا نقطة الابتداء دفنا فيها الماضى ، ليخرج المستقبل إلى النور ، والمستقبل وديعة فى أيدينا وأمانة فى أعناقنا إن شئنا جعلناه بهيجاً مشرقا ، وإن شئنا أحلناه حزيناً مخزيا .

« وأجدد العهد باسمى واسم إخوانى ، على أن نكون لكم وبكم، وأن نكون لكم خداما يعملون لوطنكم ، ويسهرون من أجل أولادكم ، ويفنون فى سبيل مجدكم ، وأن نكون خداما صغارا ، إن طمعوا فنى شرف الخدمة ، وإن زاحموا فنى سبيل العمل الصالح . متأسين بقول خاتم الرسل والنبيين : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » .

٣ — الخطابة العلمية

الخطابة العلمية هى التى تعنى بمسائل العلوم والآداب والفنون ، والأمور الاقتصادية والأحوال الاجتماعية ونحو ذلك . فتتناولها بالشرح والتحليل والتعليل والتعليق الدقيق ، وعرض مايتراءى فيها من محاسن أو مساوىء . ويكون ذلك فى حفل عام وعلى ملأ من الجمهور المستمع . فالخطابة هنا محاضرة أودرس شفوى بلقية أستاذ ضليع فى مادته مواتى فى منطقه ، تجوده بديهته ، وتسعده ذاكرته ، فيستنبط الكليات من جزئياتها ، ويستدل على الجواهر بأعراضها ، وهكذا .

ونظراً إلى صعوبة هذا الضرب الخطابى ، وأنه لا يعتمد على الوجدان والعاطفة : ولا ينبع من القلب إلا بمقدار ، وأنه من عمل الذهن الخصيب ، والعقل الموهوب ، وأنه يعتمد على الحقائق دون الخيالات ، وعلى الوقائع دون الأوهام ، افترق عن الضربين السالفين الدينى والسياسى ، إذ معينهما النزعة العاطفية والهزة الوجدانية . لذلك يضطر الخطيب المحاضر أن يراجع ذاكرته

ويجمع حقائق موضوعه ويعمل على تنظيمها وعلى تهذيب عرضها ، قبل أن يقدم ويقف على منبر الخطابة أومقعد الدرس .

وكثيراً ما ينكص المحاضر عن الإلقاء الشفوى المرتجل ، إلى الإلقاء من أوراقه بعد إعدادها ، ولكنا رأينا ـ ونرى ـ كثيراً من ذوى الدراية والذراية من أهل العلم ، من يرتجل الخطبة الجامعة النافعة فى أحد الموضوعات العلمية الشاقة العسيرة ، عفو الساعة ورهن الإشارة ببديهة حاضرة ، وذاكرة قوية ولسان مطواع . « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وبعد فما مدى هذا الضرب الخطابى فى بلادنا فى عصرنا الحديث ؟

الخطابة العلمية عفى الزمان أثرها وطوى خبرها منذ أمدبعيد ، ولم يسعدها بالظهور فى العصر الحديث إلا فى أيام إسماعيل .

ومنذ عصره قيضت للخطابة العلمية جملة أسباب جذبت بضبعها ، وأعجلت من خطوها ، وأضفت عليها ثوباً من الحياة قشباً ، فاتسع نطاقها وامتدت آفاقها ، وأصبحت إحدى وسائل النهوض العلمى والأدبى والاجتماعى ، وبدت فيها روح البحث والابتكار ، فى عبارة سهلة ميسورة ، وديباجة قوية جزلة ، وألفاظ كريمة منتقاة ، بريئة من كلف السجع ومجلوب البديع ، مع عناية تامة بإبراز المعانى سافرة الأوضاح ، مكشوفة المعالم ، قريبة المأخذ خالصة من العقادة ، على الرغم من دقتها وعمقها وسموها ، مع حسن تسلسل وترتيب .

ونجد لك بعض هذه الأسباب فى شىء يسير من التفصيل ، فمنها :

١ — إنشاء المدارس الحديثة وانتشار الثقافة والتعليم ، وهذه هى الدعامة الأولى التى بفضلها يسمو كل بنيان علمى وأدبى واجتماعى ، وقد سبق لنا الحديث عنها وبينا أطوار الحركة التعليمية فى بلادنا ، ونصيب جيلنا الحاضر من هذه الدور التعليمية ، ومن الثقافة ، كبير .

٢ — استخدام طرق التربية الحديثة فى دور التعليم ، وهى تدفع إلى اعتماد المدرسين على الذاكرة مع حسن المنطق وجمال البيان . ـ لا على قراءة الكتب

وتداول شرحها مع الطلاب ، كما هى الطريقة القديمة . وتبدو هذه الطريقة الحديثة فى الكليات العالية بخاصة ، حيث يعتمد المدرسون فى تدريسهم على إلقاء المحاضرات الشفوية على الطلاب .

٣ — ويتصل بذلك تمرين الطلاب أحياناً على الخطابة فى بعض الموضوعات العلمية والأدبية والاجتماعية ، والمناظرة فيها سواء أكان ذلك فى حجر الدراسة أم فى حفلات عامة .

٤ — والامتحانات الشفوية ، ومناقشة الرسائل العلمية المقدمة من طلاب الدراسات العليا فى الجامعات ، مناقشة علنية ، كان لهما أثر محمود فى تشجيع الطلاب وجرأتهم على الخطابة العلمية .

٥ — تأليف الجماعات العلمية والتمثيلية والخطابية من طلاب المدارس والجامعات ، ومن الطوائف الأخرى، موظفين أو عمالا مثلا ، وتشجيعهم على الخطابة وتمرينهم على المناظرة ، وإذكاء روح المنافسة بينهم فى ذلك بشتى الوسائل . ولا يخفى ما لفن التمثيل من أثر فى شحذ الملكة الخطابية وتمكينها من النفوس والألسنة ، وقد أصبح فى كل معهد دراسى — غالباً — فرقة للتمثيل .

٦ — انتشار الجمعيات الأدبية التى جعلت فى مقدمة غاياتها إذكاء روح البحث بين أعضائها فى الموضوعات العلمية والتاريخية والاجتماعية ونحوها وتناوب الخطابة فيها ، والنقاش حولها ، وقد سبقت الإشارة إلى مابذله السيد جمال الدين الأفغانى فى سبيل تنشيط الخطابة بكافة ضروبها ، فقد ذكت غراسه ، وكان هبوطه إلى مصر فاتحة عهد خطابى جليل ، إذ التف حوله جمع من أدباء مصر وسوريا، فأدخلهم فى عداد جمعيته الماسونية الخاصة، وكانوا يتناوبون الخطابة فى موضوعات مختلفة . منها : الدينى والعلمى والخلقى والتاريخى والسياسى . وكان مدرسة خطابة وحوار متنقلة ، لا يمل الخطابة والحوار فى منزله وفى المقهى وفى المحافل المختلفة .

هذا وقد تأسست جملة جمعيات أقفل بعضها وبقى البعض ، ونذكر منها مايلى:

(١) الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى: أنشئت سنه ١٨٧٨م فى الإسكندرية — وهى غير الجمعية الخيرية الحالية — وكان الباعث على إنشائها الرغبة فى بث

الروح السياسى والبعث الاجتماعى فى نفوس المصريين ، وكان أعضاؤها يتبادلون الخطب ليلا فى الموضوعات العلمية والتاريخية ، وكان من أعضائها السيد عبدالله النديم ، وأحمد سمير ، وأديب إسحق ، وإبراهيم اللقانى وغيرهم ، وقد أقفلت عند اندلاع الثورة العرابية .

(ب) جمعية الاعتدال ، أنشئت فى القاهرة سنة ١٨٧٦ م وغرضها بث روح الفضيلة والمرانة على الخطابة فى الموضوعات الاجتماعية . وتولى رئاستها الدكتور فارس نمر وحفنى بك ناصف ، وكان من أعضائها أحمد زكى باشا وعلى يوسف ، ويعقوب صروف وغيرهم ، وقد عاشت زهاء ثلاث سنوات :

(حـ) ومن الجمعيات المعاصرة لنا . جمعية الشبان المسلمين بالقاهره ، ولها فروع بالإسكندرية وغيرها من مدن القطر ، وينتظم فيها عدد ضخم من علية المصريين وشبيبتهم ، ورأسها فى أول إنشائها المرحوم عبد الحميد سعيد . ومنها جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية ، ورأسها فى أول إنشائها الشيخ عبد العزيز جاويش ، ثم أسعد لطفى نقيب الموظفين إذ ذاك ، وقد كان أعضاؤهما يتبارون — ولا يزالون — فى كثير من الموضوعات النافعة علمية وأدبية وغيرها ، وتنزع هاتان الجمعيتان نزعة دينية — ولو إلى حد — غير أن جمعية الأخلاق ، قد تحولت أخيراً إلى إدارة مدرسية تعنى بنشر التعليم فحسب .

٧ — انتشار النوادى الأدبية ، ولبعض الجمعيات السالف ذكرها — مثل جمعية الشبان المسلمين — ناد فسيح يرحب بكل خطيب ومناظر . ومن هذه النوادى أيضاً ، نادى المدارس العليا وهو خاص بالمتخرجين فى المدارس العليا وتلقى به المحاضرات فى كل فن من تاريخ وأدب وغيرهما ، وقد افتتح سنه ١٩٠٦م ورأسه المرحوم عمر بك لطفى ، غير أنه أقفل بعد سنين بقيام الحرب العالمية الأولى — وحاول بعضهم إعادة فتحه فلم تنجح محاولته . ومن النوادى المعاصرة : نادى المعلمين بالجزيرة بالقاهرة ، ونادى موظفى الحكومة بالإسكندرية ، ولكل نوع من خريجى الكليات والمعاهد العليا رابطة — غالباً — لها ناد تلقى فيه المحاضرات والمناظرات فى شتى الموضوعات .

٨ — تنظيم القضاة واشتراط النيابة والمحاماة عند نظر القضايا ، وعلانية الجلسات ، ولهذا أينار رؤساء النيابة ووكلاءها ، ورجال المحاماة « الدفاع » ينشطون في ميدان الخطابة نشاطاً ملحوظاً ، وقد أنجبت هذه الحياة الجديدة ، وشهدنا عدداً من رجال النيابة والمحاماة ، نماذج عليا في الخطابة ، وفي الخطابة العلمية ، بما يفيضون به من بحوث فنية وموازنات قانونية ، وتحليلات نفسية ، واستنباطات منطقية معززة بالوقائع والشواهد ، ومن هؤلاء الحسيني بك ، واللقاني بك ، وسعد زغلول ، وغيرهم كثيرون من المعاصرين الأحياء .

٩ — إعداد ميزانية الدولة وعرضها على مجلس النواب والشيوخ — والآن على مجلس الأمة — لمناقشتها ، وأثناء هذا العرض نظفر بجملة خطب رنانة علمية فنية دقيقة يلقيها وزراء الدولة . ومقررو اللجان المختلفة بالمجلسين ، ويرد عليهم فيها بعض النواب المختصين ، وجميعهم يدعم خطبه بالبحوث الدقيقة المزودة بالأرقام الحسابية والأدلة المادية ونحوها .

١٠ — تطوع بعض أفذاذ العلماء بإلقاء المحاضرات والمناظرات في شتى الموضوعات العلمية وما يتصل بها في القاعات الكبرى أو المسارح الفسيحة كقاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية ، ومدرج الجمعية الجغرافية ، ومسرح حديقة الأزبكية ، وقاعة المحاضرات بجامعة القاهرة والجامعة الأزهرية وغيرهما ، ويعتبر ذلك مظهراً حياً للخطابة العلمية وقدوة حسنة للشبيبة الناشئة تقتفي أثرها وتنسج على منوالها .

١١ — عقد المؤتمرات العلمية ونحوها ، وقد شهدت البلاد — وتشهد في كل عام تقريباً — عدداً منها ينبري فيها جمع من فحول العلم والأدب بخطب فارهة ، ومحاضرات قيمة كالمؤتمر الطبي ، ومؤتمر الثقافة وغيرهما .

ومن الخطباء في هذا الباب : الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وعمر لطفي ، وعبد العزيز جاويش ، وإسماعيل أباظة ، والمرحوم أحمد أمين ، وعبد الحميد العبادي وكثير من وزراء زماننا ونوابه وعلمائه الأحياء ، ومنهم طه حسين ، وكثير من أساتذة الكليات العالية وقادة الثورة الحاضرة ، ووزرائها ورجالها .

نموذج من الخطابة العلمية :

١ — من خطبة للإمام الشيخ محمد عبده فى الاحتفال السنوى للجمعية الخيرية سنة ١٩٥٢ م ، قال فى التعليم :

« إن رغبة النـاس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأخذ الشهادة ، لأنها شرط الاستخدام فى الحكومة ، والسبب فى رغبة الناس فى خدمة الحكومة ، هو أنهم لعدم ثقتهم بأنفسهم ولجهلهم بطرق الكسب الواسعة ، وضعف همتهم عن سلوكها يود كل واحد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه ، وإن كان وشلا آسناً . الخ » .

٢ — من خطبة للأستاذ إبراهيم رشاد مدير قسم التعاون بوزارة المـالية — كان — خطبها مساء ١٦ فبراير سنة ١٩٣٧ م بقاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية . وموضوعها : « واجبنا التعاونى بعد المعاهدة » قال منها :

« الآن وقد تهيأت الظروف الملائمة للحركة التعاونية من نظام ديمقراطى مستقر ، وتضامن وثيق بين الأمة والحكومة واستتباب وطيد بعد المعـاهدة والاستقلال ، فما الذى نحن فاعلوه نحو التعاون وتعضيده ونشره ؟ إن العهد الحاضر من شأنه أن يحملنا تبعة أعمالنا ، ولا يدع لنا بابا للفرار من مسئولياتها فإذا ضعف التعاون بعد الآن أو جمد فى مكانه ولم يتقدم ، فإن اللوم يوجه إلى الأمة والحكومة معاً . وبلفظ آخر يقع الذنب على المصرى وحده ، وهذه الحقيقة الواضحة جديرة بأن تشحذ همة البلاد جميعها شعباً وحكومة ، وأن تحثها على بذل أقصى الجهود لتمكين النظام التعاونى حتى ينتج آثاره الإصـلاحية فى الريف والحضر على السواء » الخ .

الكتابة وأشهر الكتاب

١ — تمهيد :

انصرم عهد العثمانيين ، وبدأت تنقشع سحب ظلمته ، وتنجاب غياهب دجنته والكتابة الإنشائية معتلة الأسلوب مختلة التراكيب ، يجرى اللحن فى أفواه

الكتاب مجرى الغريزة . وبجاج الأغراض الكتابية ضيقة النطاق أمام نواظرهم لضعف الثقافة وانتشار الجهل وقلة المستجيب وفداحة الظلم ، حتى أصبح الكاتب المجيد هو الذى يحفظ عبارات متعثرة يوهم بها أنه يقلد الأقدمين .

ولكن ماعتمت الكتابة أن درجت بها الأيام فى مدارج الرقى قليلا قليلا ، ونقلتها عوامل النهوض من طريق الموت إلى طريق الحياة . وتهيأ لها من أسباب القوة ما أنحى على ضعفها فأزاله ، ولوى على عثارها فأقاله ، فأخذت الغضارة تدب فى عودها ، والنضارة تبدو على جسدها . حتى بدت اليوم فى ثوب قشيب كالدوحة الفينانة ، وارفا ظلها ، ممتدة أغصانها ، مفترة أزهارها طيبة ثمارها .

٢ — وإليك موجزاً عن أدوار تدرجها مقفاة بنماذج تشرحها :

(ا) فى أيام الحملة الفرنسية :

هذه فترة خمود وجمود ، ووقفة بين موت وحياة . وصلت فيها الكتابة إلى نهاية ما انتابها من ضعف وضيق وهزال ، غرضاً ومعنى وأسلوباً . ولعل خير ما يستشهد به هنا ، ما كان يذيعه نابليون على المصريين من المنشورات المحررة باللغة العربية ، يكتبها فئة من المستشرقين والمترجمين الذين وفدوا مع الحملة ، وكذلك ما كان ينشر فى صحيفة « التنبيه » من الأخبار التى يحررها السيد إسماعيل الخشاب — كما أشرنا من قبل — هذا إلى بعض الرسائل الإخوانية .

ومن النماذج ما ورد فى بعض منشورات نابليون . قال :

« والواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم . وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا . وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة . والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك ، قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال السلطان العثمانى ، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى . لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية » .

(ب) فى أيام محمد على :

جدت فى أيام محمد على بعض العوامل التى كان لها أثر فى إنهاض الكتابة . منها اتخاذ العربية أداة للتفاهم والكتابة فى دواوين الحكومة بدلا من التركية ، كما أصبحت — إلى حد — لغة التعليم فى المدارس ، وترجمت إليها كتب ومحاضرات علمية يحتاج إليها طلاب المدارس المذكورة . وقد قام بالترجمة أيضا عدد من رجال البعوث المصريين، بعد عودتهم إلى وطنهم . كما صدرت الوقائع المصرية ، وقام بتحريرها الشيخ حسن العطار أحد علماء الأزهر ، بمعونة زميله الشيخ شهاب الدين إسماعيل المكى .

بهذا وغيره طرأ النضج على الكتابة العربية ، وأخذت تدخل دور النقاهة ، ولو كانت هناك حركة أدبية ترمى إلى إحياء آداب اللغة ، بجوار تلك الحركة العلمية الواسعة ، لأفادت الكتابة الأدبية من وراء ذلك فائدة عظمى ، على نحو ما وقع ببلاد الشام التى بكر إلى استيطانها تجار الأجانب ومبشروهم الدينيون ، فكان لهم أثر يذكر فى نشاط آداب اللغة ونهوض الكتابة — كما بينا . وحقاً ، كان بمصر أمثال لهؤلاء التجار المبشرين ونشروا مدارسهم فى كثير من مدن القطر ، ولكن مجيئهم كان متأخراً عن مجئ نظرائهم إلى بلاد الشام ، كما أن عنايتهم باللغة وآدابها كانت أقل من عناية أولئك ، فضلا عن نفور جمهور المسلمين بمصر من تعليم ابنائهم فى مدارس هؤلاء الدعاة .

ومهما يكن من شئ فقد اتسعت أغراض الكتابة ، فكتبت بها الرسائل الديوانية والإخوانية ، وكانت أداة التعليم والصحافة والترجمة . وباطلاع بعض بنيها على علوم الغربيين ، أثرت الكتابة بنقل بعض الأفكار والمصطلحات .

غير أن أسلوبها ظل ركيكا بعيداً عن الصبغة الأدبية النابهة ، والنزعات البليغة مع تقيدها بأنواع من البديع والسجع ، وغلبة العامية على لغة المترجمين ، كرفاعة بك الطهطاوى ، ولغة المؤلفين كعبد الرحمن الجبرتى .

ولما كانت نهضة محمد على عسكرية اصطبغت بالصبغة العلمية دون الادبية فلم تكن هناك عناية مبذولة فى سبيل اللغة لذاتها ، بل اتخذت أداة للتعبير عن المعانى الضرورية فحسب ، وأى عبارة تفهم ، تجزىء وتكفى . وقد أخذ

محمد على بعض كتابه من مثقفى الأقباط ، واشتهر من بينهم كاتبه « المعلم غالى » .

وإليك بعض النماذج :

من الكتابة الديوانية :

أرسلت على لسان محمد على إلى أعضاء البعثة المصرية بفرنسا رسالة فيها :

« قدوة الأماثل الكرام ، والأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم . تنهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوبة فيها مدة تحصيلكم . وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر ، مبهمة ، لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المده ، وما فهمنا منها شيئاً . وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون . فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة ، عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم . وهذا الأمر عمنا غماً كثيراً . فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار عمله ... الخ » .

من الرسائل الإخوانية :

كتب الشيخ حسن العطار رسالة إلى أصدقائه ، قال فيها :

« سلام عاطر الأردان » تحمله الصبا سارية على الرند والبان . إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد . صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان التى حلى بها معصمه وجيده . الذى موصول إحسانه بكل فضل عائد ، كنز المعارف عقد دور الفوائد . الخ » .

من الكتابة العلمية :

كتب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » يصف دخول الفرنسيين إلى الجامع الأزهر . قال : « إن الفرنسيين دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصوراته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات . وهشموا خزائن الطلبة . والمجاورين والكتبة .

ونهبوا ما وجدوه من المتاع، والأوانى والقصاع. والودائع والخبآت. بالدواليب والخزانات. ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها. وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه عروه، ومن ثيابه أخرجوه ... » الخ.

(حـ) منذ أيام إسماعيل إلى الآن :

ومنذ أيام إسماعيل، تعددت أسباب رقى الكتابة على اختلاف أنواعها. فقد انتشرت المدارس شيئاً فشيئاً، وتعددت ألوانها، وكثر طلابها، وأصبح نشر التعليم سياسة عليا تحتل جانباً ضخما من اهتمام الدولة، وميزانيتها، واحتلت اللغة العربية دور التعليم، مكتسحة ما عداها من اللغات الأجنبية، إلا فى بعض مواد الطب والحقوق ونحوها، مما يعتبر استعمال اللغات الأجنبية فيه ضرورة لا محيد عنها. وهى لغة التعليم فى الأزهر ودار العلوم، وقد أصبحت دروس الإنشاء وإعداد البحوث بعبارة عربية سليمة، إحدى وسائل التعليم ومواده فى كثير من دور التعليم. ولا ننسى فى هذا المقام جهود رجال تعليم اللغة العربية من متخرجى الأزهر ودار العلوم، فإنهم يبذلون قصارى جهدهم وسامى همتهم فى تهذيب لغة الناشئة وتزويدها ببليغ التراكيب، ونفى الدخيل الزائف من ألفاظ وأساليب.

ومما له أثر ملحوظ فى رقى الكتابة بأنواعها : نشاط حركة الترجمة والتأليف، ورواج البضاعة الأدبية منذ عهد إسماعيل، وطبع كثير من كتب العلم والأدب القديمة الممتازة بأفكارها وأساليبها، مثل كليلة ودمنة لابن المقفع، ومقدمة ابن خلدون، وخزانة الأدب للبغدادى، والبيان والتبيين للجاحظ. فاطلع عليها الأدباء والمنشئون والصحافيون، وترسموا خطاها، واقتدوا بأساليبها.

ولقد رأس تحرير الوقائع المصرية، وقام بالكتابة فيها بعض أئمة الإنشاء كالإمام محمد عبده، وسعد زغلول، وعبد الكريم سلمان، وقد أفسحت صدرها فى بعض فترات حياتها، للكتاب والباحثين، حتى أصبحت معرضاً لثمار قرائحهم

مسرحا لجولات أقلامهم ، وهيمن قلم تحريرها زمناً كبيراً على لغة الصحافة ، وأخذت الصحافة فى الانتشار ، ويشرف على تحرير كل صحيفة أديب أو أكثر ، عمن امتازوا بلباقة التعبير وقوة التصوير وجمال الإنشاء . هذا إلى انتعاش الحركة الفكرية والسياسية .

بهذا وغيره اتسعت آفاق الكتابة وتعددت أغراضها ، وارتقى النثر الكتابى وتهذبت عبارته ، وبعدت عن قيود البديع والسجع . وكثرت معانيه وتجددت وشرفت ، وانصرفت عناية الكتاب إلى الابتكار فى المعانى وإجادة أدائها ، دون العناية ببهرج الكلام وزخرف القول .

ولما كانت الكتابة قد تعددت أنواعها بتعدد أساليبها وأغراضها ، فكان منها النثر الأدبى ، والنثر العلمى ، والنثر الصحفى ، وغير ذلك ، رأينا أن نصف كلا منها فى عجالة موجزة فنقول :

النثر الأدبى

النثر الأدبى هو الذى يعنى فيه الكاتب باختيار الألفاظ والأساليب ، مع حسن الملاءمة بينها حتى تصور المعانى والأفكار تصويراً جميلا رائعاً بارعاً ، يكون له أثره البالغ فى النفوس والعواطف .

ولنتكلم هنا عن الأغراض التى طرقها هذا النثر ، متتبعين تدرج الأسلوب فى كل منها ، على وجه التقريب ، فمنها :

١ — كتابة الدواوين :

وهى الكتابة الحكومية « الرسمية » من رسائل ومنشورات وبحوث وغيرها ، مما يقتضيه العمل الحكومى .

وقد روعى فيها أول العصر ، شىء من الإطناب وبعض من البديع والسجع ، مع قلة الاكتراث بالعامى من الكلمات ، أو السقيم من العبارات .

ولما كان عصر إسماعيل ، وظهرت طائفة من الأدباء المثقفين ، أخذت

الحكومة تعهد إلى بعضهم بالإشراف على كتابة الدواوين . فارتقت أساليبها بعض الرقى ، وبدا عليها شيء من الرونق والنضارة ، وعادت إلى مثل ما كانت عليه الكتابة الديوانية فى العصر المملوكى ، بل ربما كانت أجزل منها وأقل تكلفاً ، وأخذ البديع والسجع يزايلانها شيئاً فشيئاً ، مع عناية واضحة بالألقاب من نحو : باشا ، وبك ، وأفندى . وعزتلو ، وعطوفتلو .

ومن الكتاب : عبد الله باشا فكرى « توفى سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م » وكان يكتب بعض الرسائل الخديوية ، ووضع شيئاً من المصطلحات الديوانية . ومنهم الإمام محمد عبده « توفى سنة ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م » وكان يشرف على تحرير الوقائع المصرية ، ويراقب كتابة موظفى الدواوين . ومنهم الشيخ حمزة فتح الله « توفى سنة ١٣٣٦هـ —١٩١٨م » ، وكان مفتشاً أول للغة العربية بوزارة المعارف ، وله فضل يذكر فى إصلاح لغة التعليم ، وتنقيتها من أوضار العامية والدخيل .

ثم تغلغلت اليد الإنجليزية فى مصالح الحكومة ودواوينها . وأصبح كثير من رؤسائها من الإنجليز أو غيرهم من الأجانب — وذلك فى عهد الاحتلال — وانتابت مصر ثورات وقلاقل متعدده . فكان لذلك أثر سيء فى كتابة الدواوين . وإذا راعينا أن التعليم ، والعناية بالعربية فى دوره ، قد فترا فى ذلك العهد ، وأن الغاية من التعليم أصبحت مقصورة على تخريج موظفين للدولة يسيرون دولاب العمل كالآلات الصماء ، وأنه سلك فى دواوينها كثير من الناشئة التى لم تنل حظاً محموداً من التعليم والمعرفة باللغة وأساليبها ، بل كان منهم من يتظرف بالجهل بها ، وبمعرفة اللغة الأجنبية ، ويتراخى عن تحرى وجوه الصواب فى الكتابة . نقول إن ذلك كله كان له أسوأ الآثار وأوخم العواقب فى الكتابة الديوانية فى معظم دواوين الدولة ، وبخاصة فى أقسام الشرطة وإدارات القرعة العسكرية والطرق الحديدية والبريد ونحوها من الدواوين ذات الصلة المباشرة بالجمهور .

ولابد لنا فى هذا المقام من استثناء بعض الدواوين الممتازة فى الدولة

كديوان الملك — كان — ومكاتب الوزاره ودور القضاء. فإن ما كان — أو لا يزال — يصدر عنها من أحاديث وبيانات وحيثيات ورسائل ومنشورات وأوامر وإشارات ونحو ذلك، يكتب — عادة — بعبارة عربية جيدة سليمة، فيها أناقة وحسن اختيار، ودقة أداء، ووضوح معنى، وجمال تصوير، مع الترتيب وجوده التسلسل الفكرى. إلا أنها تتقلب بين الإيجاز والإطناب حسب المناسبات، فطوراً تكون موجزة فى سطور قليلة، كالمراسيم والأوامر الملكية - كانت - وطوراً تكون مطنبة كثيرة الشروح والمترادفات، مملوءة بالحجج والبراهين، كبيانات الوزراء وحيثيات القضاء واتهامات النيابة.

وكان يعنى فى المكاتبات الرسمية بذكر الألقاب. وقد تحولت بعض التحول ومنها عدا صاحب الجلالة، صاحب الرفعة لحامل قلادة فؤاد الأول. وصاحب الدولة لرئيس مجلس الوزراء، وصاحب المعالى للوزير مادام فى الوزاره وصاحب السعادة، وصاحب العزة، وصاحب الفضيلة.

وقد جاء عهد الثورة فألغى كل هذه الألقاب بما فيها لقب «بك»، و «باشا» وقرر لفظ «السيد» لقباً لكل مواطن.

٢ — الرسائل الإخوانية.

بقيت منها صبابة إلى أول عصر النهضة الحديثة، ثم قوى أمرها واشتد تساعدها منذ أيام اسماعيل. وأخذ الأدباء يتشبهون فى كتابة رسائلهم بنظرائهم فى كتاب الرسائل فى العصور السالفة. فاتشحت رسائلهم بكثير من الرونق، وتجلت فيها أفانين من ضروب البيان، وترقرق فيها ماء الحياة، مع بقاء التقيد بالسجع ويسير من البديع، وفى مقدمة كتاب الرسائل: عبد الله فكرى، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وابراهيم اليازجى، وعبد العزيز جاويش، وعبد الكريم سلمان.

وفى أيامنا هذه فترت همة الأدباء عن التراسل بهذه المكاتبات الأدبية الأنيقة الشائقة، ولعل مرجع ذلك إلى أن روابط العلم والأدب بينهم، أصبحت أهم

من روابط الصداقة والمودة التى كانت تدفع السابقين من الكتاب إلى مثل تلك الرسائل ، كما أن الأدباء انصرفوا إلى الأغراض الكتابية الأروع والأجدى والأنسب لعقلية معاصريهم وأحوالهم ، كالمقالات الوصفية والنقد الأدبى والقصص — لهذا لم تعد الرسائل الإخوانية أحد مظاهر الكتابة الأدبية الرائعة فى جيلنا الحاضر . ولا ينصرف إليها أحد من الأدباء النابهين إلا لضرورة ملحة كتعزية أو تهنئة أو شكر ، وما يكتبونه من ذلك ، لا يقل روعة وجمالا وتأثيراً وحسن ترسل ، عما كانت عليه الرسائل الإخوانية فى صدر الدولة العباسية .

أما ما يتراسل به أديبان على صفحات الصحف ، ويملآنه بما تفيض به خواطرهما النفسية ونظراتهما الناقدة ، فهو بحوث علمية ومناظرات كتابية ، ومساجلات أدبية ، أكثر من أن يكون رسائل إخوانية .

وأما ما يتراسل به سائر أفراد الشعب فى أمورهم المعاشية ، وتمتلىء به صناديق البريد ، فالغالب عليه أنه يكتب بلغة عامية أو نحوها ، وهو لا يدخل لنا فى حساب .

وإليك نموذجين من الرسائل الإخوانية :

(١) كتب الأستاذ الإمام محمد عبده ، وهو فى بيروت جواباً عن كتاب لصديق قال فيه :

« لك فى قلوبنا من الود ما يذكيه سناؤك ، وفى مناطقنا من الحمد ما يوحيه كمالك ، وفى صدورنا من الإجلال ما يرفعه بهاؤك . ما بيننا من المودة ، لا تحده مدة ، ولا تخلق له جدة . نعيذه من حاجة للتجديد ، واستدعاء للمزيد . فلا المواصلة تربيه ، ولا المماهلة توهيه . نعم إن ما نحفظ لك فى الأنفس هو تجلى فضلك ، ومثال علائك ونبلك . وذلك الخالد بخلود الأرواح ، الباقى فى تفانى الأشباح . . . الخ » .

(ب) كتب الأستاذ توفيق الحكيم إلى صديقه الدكتور منصور فهمى رسالة بعنوان : « خطبة انتخابية نموذجية » ، قال فيها : « ترى يا صديقى : ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة ، لو حدثتنا النفس الملعونة بالنزول من أبراج

شكرنا العاجية إلى الجلوس تحت قبة البرلمان الذهبية . ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟ أما أنا فكنت أقول هكذا :

سادتى الناخبين : باسم الديمقراطية أتقدم إليكم ملتمساً عطفكم ! إنى أحب الديمقراطية ؟ ومنْ ذا الذى لايحب الديمقراطية ؟ تسألونى مامعنى هذه الكلمة التى تسمعونها هذه الأيام كثيراً ؟ تعريفها بسيط : إن الديمقراطية : هى أن رهطاً من الجياع الحفاة يمنحون مرتباً شهرياً قدره أربعون جنيهاً لرهط آخر من الثراة العتاة . . لعل هذا المنطق يدهشكم ، ولكن هذه الحقيقة ! » الخ .

٣ — المقامات :

المقامات وليدة العصر العباسى ، ولها تاريخ حافل وحياة موصولة عاشت فيها إلى أن أدركت العصر الحديث ، وهى فى جملتها قصص موجزة فى أسلوب بديعى مسجوع ، فيها فكاهة ونقد ووصف وعظة .

وقد كانت العناية بها فى أوائل هذا العصر ، وإقبال الأدباء على كتابتها ، مظهراً من مظاهر بعث الوعى الأدبى . ويبدو أن الأدباء ، حينما تيقظت فيهم نوازع الأدب ، أحبوا أن يقتدوا بالسابقين من المنشئين ، ومنهم كتاب المقامات كالحريرى الذى طبعت مقاماته المشهورة ، مبكرة .

وممن ظهرت المقامات على يديه : ناصيف اليازجى من أدباء لبنان ، وله كتاب « مجمع البحرين » ويشتمل على عدة مقامات ، وأحمد فارس الشدياق ، وله كتاب وصف فيه أسفاره اسمه : « الساق على الساق فيما هو الفارياق » وهو معجم لغوى طريف كثير المترادفات ، اتبع فى عرض لغوياته ، أسلوب المقامات القصصى ، وفيه نقد ومجون .

ومحمد المويلحى صاحب كتاب « حديث عيسى بن هشام » وهو مجموعة رسائل قصصية فيها كثير من الأدب والنقد الاجتماعى المر اللاذع .

غير أن الأدباء المنشئين انصرفوا عن تدبيج المقامات — من بعد — كما انصرفوا عن كتابة الرسائل الإخوانية إلى ما هو أهم وأجدى ، كالسياسة

والصحافة والنقد والتأليف — وبخاصة بعد أن ترسلوا ، وزالت عنهم قيود البديع والسجع ، تحت تأثير الثقافة الحديثة ..

ومع ذلك ظهرت منذ سنوات قريبة مقامات قصصية ناقدة ، فكاهيه ، تناولت شئون السياسة الحزبية تحت عنوان « مخالب القطط » لأحد المعاصرين ؛ ولكنها لم تسم فى أسلوبها وروعتها إلى ما سبقها .

وإليك نموذجين :

٢ — كتب الشيخ ناصف البازجى اللبنانى « المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ » من « المقامة الخزرجية » . قال :

« قال سهيل بن عباد : دخلت بلاد العرب ، فى التماس بعض الأرب ؛ فقصدت نادى الأوس والخزرج ، لأتفرج وأتخرج ، وآخذ من ألسنتهم بعض المنهج . فلما صرت فى بهرة النادى ، أخذ بمجامع فؤادى . فجلست بين القوم ساعة، وأنا أحدق إلى الجماعة . وإذا شيخنا ميمون بن خزام ، قد تصدر فى هذا المقام . وهو يقول: من أراد أن يعرف جهينة ، أو شاعر مزينة . فيحضر ليسمع وليرى ، فإن كل الصيد فى جوف الفرا » . . . الخ .

٣ — وكتب أحمد فارس الشدياق « المتوفى سنة ١٣٠٥هـ » فى كتابه : «الساق على الساق » تحت عنوان « فى شرور وطنبور » قال :

« قد كان أبو الفارياق آخذاً فى أمور ضيقة المصادر ، غير مأمونة العواقب والمصاير . لما فيها من إلقاء البغضة بين الرءوس ، وشغب أهل البلاد ما بين رئيس ومرءوس . فقد كان ذا ضلع مع حزب من مشايخ الدروز ، مشهور بالنجدة والبسالة والكرم ، غير أنهم صفر الأيدى والأكياس ، والصندوق والصوان والهميان والبيوت ، ولا يخفى أن الدنيا لما كان شكلها كروياً ، كانت لا تميل إلى أحد إلا إذا استمالها بالمدور مثلها ، وهو الدينار . فلا يكاد يتم فيها أمر بدونه . فالسيف والقلم قائمان فى خدمته . والعلم والحسن حاشدان إلى طاعته » الخ .

٤ — النقد الأدبي واللغوى :

وإنما قوى واشتد ساعده بظهور الصحف . فقد كان بعض محرريها يتناول بعض عظماء البلاد وأهل الحل والعقد فيها بالنقد . ومن ثم انتقل النقد إلى أبطال الأدب القدامى والجدد معاً ، ينثر كلامهم مع تعليقات المحرر عليه ، فيمتزج فى هذه التعليقات النقد الأدبي للمعنى والأسلوب ، بالنقد اللغوى للمفردات .

وقد كان لكثير من خريجى الأزهر ودار العلوم ولغيرهم من محبي الأدب جولات صادقة فى هذا الميدان ، ونذكر منهم : الشيخ حسين المرصفى « المتوفى سنة ١٣٠٧ صاحب كتاب (الوسيلة الأدبية) وهى فى العلوم العربية ، والشيخ حمزة فتح الله ، المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ . صاحب كتاب (المواهب الفتحية) وهو فى علوم العربية أيضاً . وكلا الكتابين مملوء بالبحوث اللغوية والنقد الأدبي والشروح . ومن أدباء لبنان ابراهيم اليازجى اللبنانى بن الشيخ ناصيف اليازجى وكان مدرساً للغة العربية فى بيروت ، وأصدر صحيفة (الضياء) وكان ينشر فيها أبحاثاً جليلة فى اللغة والتعريب وأغلاط العرب القدماء وأغلاط المولدين ، وغير ذلك ، وقد توفى سنة ١٩٠٦ م .

ويبدو أن النقد اتجه فى أول أمره إلى شرح المعانى والتعليق عليها تعليقاً هيناً فيه كلام عن النص الأدبى من ناحية اللغة والنحو والصرف ، ثم دخل النقد البلاغى فى الميدان .

إلا أننا نشاهد اليوم حركة نقد واسعة النطاق ، تحاول أن ترسى النقد على قواعد علمية راسخة تأسيا بالنقد الإفرنجى ، وقد نحت به نحو تحليل النصوص وبيان ما فيها من ضروب الجمال ومبلغ نصيبها من فن الأدب الأصيل . وقد أصبح النقد بحالته الجديدة إحدى دعائم الدروس الأدبية التى لا غنية عنها . ولعل سبب اتجاه النقاد هذه الوجهة اطلاعهم على ما طبع من كتب النقد القديم كالعمدة لابن رشيق والصناعتين لأبى هلال العسكرى ، وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى وإطلاعهم على كثير من كتب الأدب والنقد الأجنبية ، وتقرير دراسة الأدب وتاريخه ونقده بمعاهد التعليم .

وأسلوب النقاد — فى جملته — مرسل سهل التركيب دقيق التعبير ، معنى بتوضيح الفكرة وإبراز جمال التصوير ، ومبلغ هذا الجمال ، وهو محرر من قيود البديع والتزام السجع — وبخاصة أسلوب النقاد المعاصرين — فلا غرابة إذن إن كان هذا النهج الأسلوبى الجميل قانونا لهم يزنون به الآثار الأدبية ، فلهم فضل فى توجيه الأدباء شعراء ومنشئين ، إلى العناية بالمعنى ، وإلى الفكرة المنظمة ، والرأى الواضح ، والخيال الجديد والتصوير المبتكر ، والبعد عن المعاظلة فى الأسلوب ، والتعقيد ، والتجافى عن اللفظ الغريب ، والجاف ، والمهجور ، والسمو عن مفردات العامة ، وما ابتذل بدورانه على ألسنتهم ، إلى غير ذلك .

أسلوب النقاد مزيج من الأسلوب الوصفى والإنشائى معاً ومامنهم إلاوله ملحوظة فى أن يطبع نقده بطابع شخصيته ، وأن تكون نقداته دراسات قوية منتجة . وبين ظهرانينا كثير من صناديد النقاد والأدباء .

ومنهم : المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى فى « حصاد الهشيم » وطه حسين فى « حديث الأربعاء » و « الأدب الجاهلى » وعباس العقاد فى « ساعات بين الكتب » وأحمد الشايب فى « الأسلوب » وعبد الحميد حسن فى « الأصول الفنية للأدب » .

٥ — فى القصة :

من القصة : التاريخى والروائى الغرامى ، والفاجع الهزلى ، ومنها المسرحى . فهى أنواع عدة - وتعتبر القصة العصرية فناً حديثاً فى الأدب العربى ، يمتاز به عصرنا ، لما امتازت به من وصف تحليلى دقيق ، وشرح طريف للهواجس النفسية ، والانفعالات الوجدانية ، مع بيان للأدواء الاجتماعية ، إلى غير ذلك . مع ما تمتاز به من حسن السبك وحبك الأطراف وطرافة الوقائع . وقد أضفى عليها هذه المميزات : اتصال أدبائنا بالأدب الأوربى واطلاعهم على القصص الغربية وترجمة كثير منها ، وتقليدها بالتأليف على مثالها . وقد شجعهم على ذلك انتشار الصحف وإفرادها باباً من أبوابها للقصة ، وإقبال الناشئة بشغف على

قراءتها طلباً للتسلية والتعليم ، وانتشار المسارح التمثيلية ودور الخيالة وجذبها قلوب الجماهير إليها .

هذا ويحاول كثير من منشىء القصة ، تمصيرها ، بإظهار الروح المصرية فيها، لتكون مرآة لحياة الشعب. كما ارتقى أسلوب القصة ـ مؤلفة ومعربة ـ وجزلت عبارتها وحلت تراكيبها. وسلست ألفاظها ، حتى أصبحت ـ بحق ـ حبيبة إلى نفوس قرائها مشوقة إلى استيعابها . ومن كتابها من قارب حد الكمال فى اسلوبه وحسن عرضه . ومنهم المغفور لهم : المنفلوطى وله « العبرات » و « مجدولين » و « محمد السباعى » وكان يترجم فى كل أسبوع قصة عن الأدب الروسى وغيره ، وينشرها فى البلاغ الأسبوعى . وإبراهيم عبد القادر المازنى وله كتاب « إبراهيم الكاتب » وحافظ إبراهيم الشاعر وله كتاب « البؤساء » معربة عن فيكتور هوجو . وعلى الجارم وله « غادة رشيد » و « شاعر ملك » ، وحسين هيكل وله قصة « زينب » ولكن لغتها عامية .

ومن كتاب القصة الأحياء : طه حسين ، وله « أندروماك » وقصص تمثيلية معربة عن اليونانية و « الأيام » ، ومحمود تيمور وهو أكثر المعاصرين قصصاً ، ومن قصصه « أنا ابن جلا » و « اليوم خمر » وعباس محمود العقاد وله رواية « سارة » . وتوفيق الحكيم وله « أوديب الملك » و « مسرح المجتمع » و « الرباط المقدس » . وغيرهم كثيرون بين مؤلفين ومعربين .

ونأسف ، لأنه لا يزال يندس بين كتاب القصة كثير من أدعياء الأدب ، يؤلفون أو يترجمون ، بأسلوب فج وعبارة هزيلة ، وعامية فاشية ، فضلا عن موضوع قصصهم ، فإنهم يختارونها من القصص الغرامية ذات المواقف المسفة الفاحشة ، لا يعالجون بها مشكلة ولا يحلون عقدة ، وإنما يستثيرون غريزة ، ويستحثون شهوة . والجمهور ، لضعف ثقافته ، وجهله بغايته ، مقبل على رواياتهم بشره ونهم ، حتى أصبحت فى مقدمة أنواع زاده العاطفى والعقلى ، وزاحمت بذلك كثيراً من كتب العلم والأدب اللباب .

٦ — المقالات الوصفية :

برز هذا الغرض الكتابي بروزاً قوياً في العصر الحديث . ووجد أنصاراً كثيرين ، ولا غرابة ، فإنهم وقد نالوا قسطا محموداً من الثقافة قديمها وحديثها عربيها وغربيها ، ورأوا الحوادث حولهم تترى ولا عدد لها ، والمناظر أمامهم تتوالى ولا حصر لها ، وبدت الحياة لنواظرهم جديدة مثالفة ، وروداً متأنقة ، فهزت نفوسهم ، وأطلقت عنان أقلامهم ، بالوصف الشائق والكلم الرائق ، يتردد بين حسن التخيل وبراعة التصوير وجمال التنسيق وروعة الأداء ، في عبارة خلابة وإشارة جذابة ، وإفصاح معجب ، وإلمام مطرب ، وتدفق وسلاسة ، وتأنق وكياسة ، وترسل جرف أمام تياره حسك السجع وأشواك البديع ، أو ألانها بيد صناع ، وكف تعرف طريق الإبداع ، ففتحت عن أزهار حالية القسامة بادية الوسامة . وبدت المقالة حينذاك قصيدة منظومة ، نثرها الشعر ، وكلماتها الدر .

وقد تعددت موضوعات هذه المقالات ، واتسعت فيها لجاج الأحاديث أمام المنشئين ، فوصفوا الأشخاص والحيوانات والأماكن والرحلات والمواكب والحفلات الاجتماعية والهواجس النفسية والحوادث الواقعية والظواهر الطبيعية ، إلى غير ذلك . ويملئون أوصافهم بالتحليل والتعليل ، والنقد والشرح والتفصيل ، وإيضاح الغامض ، وكشف المبهم ، وتقريب البعيد ، وسوق الحكمة ، وضرب المثل ، وإزجاء العبرة ، وتقديم النصيحة ، إلى غير ذلك .

والصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية حافلة بشتى المقالات الوصفية . فهي إذاً فن لا يزال له سطوته على أدباء الجيل الحاضر ، ولا يزال يجد له من بين القراء أنصاراً وأحبابا .

وكثير من كتابه لا يقلون براعة يراعة ، وبيان بنان ، ومحبوب أسلوب ، عن كتاب الصدر الأول العباسي .

ومن كتابة : أمين فكرى فى كتابه « إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا » ومصطفى نجيب فى « أحلام الأحلام » ، وتوفيق البكرى فى « صهاريج اللؤلؤ » والمنفلوطي فى « النظرات » ، وداود بركات فى « فيما رأت عيناى » ومحمد لبيب البتانونى فى « الرحلة الحجازية » . وعبد العزيز البشرى فى « فى المرآة » ، ومصطفى صادق الرافعى فى « وحى القلم » وأحمد محمد حسنين فى « فى صحراء ليبيا » ، وأمير الشعراء شوقى فى « أسواق الذهب » ، وغيرهم .

وقد عنى بعض أفاضل المدرسين ، فوضعوا كتباً ضمنوها عدة موضوعات هى مقالات وصفية ، صالحة ، يتثقف بها النشء ويقتدى بها .

ومن المقالات الوصفية نوع افتراضى مبنى على الخيال المحض ، به كثير من عوامل التشويق وروعة التخيل وغرابته مثل « رحلة إلى القمر » و « مصر بعد مائة عام » .

وإليك نماذج من هذا الضرب الكتابى :

١ — كتب المغفور له أحمد شوقى أمير الشعراء المتوفى سنة ١٩٣٢ م فى كتابه « أسواق الذهب » تحت عنوان « الوطن » .

« الوطن » موضع الميلاد ، ومجمع أوطار الفؤاد ، ومضجع الآباء والأجداد الدنيا الصغرى . وعتبة الدار الأخرى . الموروث الوارث ، الزائل عن حارث إلى حارث . مؤسس لسان ، وغارس جنان ، وحى من فان ، دواليك حتى يكسف القمر ، وتسكن هذه الأرض من دوران .

أول هواء حرك المروحتين ، وأول تراب مس الراحتين ، وشعاع شمس اخترق العين . مجرى الصبا وملعبه ، وعرس الشباب وموكبه ، ومراد الرزق ومطلبه . وسماء النبوغ وكوكبه ، وطريق المجد ومركبه ، أبو الآباء ، مدت له الحياة فخلد ، وقضى الله ألا يبقى له ولد . فإن فاتك منه فائت ، فاذهب كما ذهب أبو العلاء ، عن ذكرى لا تفوت ، وحديث لا يموت .

مدرسة الحق والواجب ، يقضى العمر فيها الطالب ، ويقضى ، وشىء منها

عنه غائب . حق الله وما أقدسه وأقدمه . وحق الوالدين وما أعظمه . وحق النفس وما ألزمه . إلى أخ تنصفه ، أو جار تسعفه ، أو رفيق فى رحال الحياة تتألفه ، أو فضل للرجال تزينه ولا تزيفه . فما فوق ذلك من مصالح الوطن المقدمة ، وأعباء أماناته المعظمة ، صيانة بنائه . والضنانة بأشيائه ، والنصيحة لأبنائه ، والموت دون لوائه . قيود فى الحياة بلا عدد ، يكسرها الموت وهو قيد الأبد .

رأس مال الأمم ، فيه من كل ثمر كريم . وأثر ضئيل أو عظيم ، ومدخر حديث أو قديم ، وينمو على الدرهم كما ينمو على الدينار . ويربو على الرذاذ كما يربو على الوابل المدرار . بحر يتقبل من السحب ، ويتقبل من الأنهار .

فياخادم الوطن ، ماذا أعددت للبناء من حجر ، أو زدت فى الغناء من شجر ، عليك أن تبلغ الجهد ، وليس عليك أن تبنى السد . فإنما الوطن كالبنيان فقير إلى الرأس العاقل ، والساعد العامل . وإلى العتب الوضيعة ، والسقوف الرفيعة . وكالروض محتاج إلى رخيص الشجر وثمينه ، ونجيب النبات وهجينه ، إن كان ائتلافه فى اختلاف رياحينه . فكل ما كان منها لطيفا موقعه ، غير ناب به موضعه ، فهو من نوابغ الزهر قريب ، وإن لم يكن فى البديع ولا الغريب » . . . الخ .

٢ — وكتب المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « وحى القلم » بعنوان . « موت أم » ، قال :

« رجعت من الجنازة بعد أن غبرت قدمى ساعة فى الطريق التى ترابها تراب وأشعة . وكانت فى النعش لؤلؤة آدمية محطمة . هى زوجة صديق طحطحتها الأمراض ، ففرقتها بين علل الموت ، وكان قلبها يحييها ؛ فأخذ يهلكها . حتى إذا دنا أن يقضى عليها ، رحمها الله فقضى فيها قضاءه . ومنذا الذى مات له مريض بالقلب . ولم يره من قلبه فى علته ، كالعصفورة التى تهتلك تحت عينى ثعبان سلط عليها سموم عينيه ! .

كانت المسكينة فى الخامسة والعشرين من سنها . أما قلبها ففى الثمانين ، أوفوق ذلك . هى فى سن الشباب ، وهو متهدم فى سن الموت .

وكانت فاضلة نقية صالحة . لم تتعلم ولكن علمتها التقوى الفضيلة . وأكمل النساء عندى ، ليست هى التى ملأت عينيها من الكتب ، فهى تنظر إلى الحياة نظرات تحل مشاكل وتخلق مشاكل ، ولكنها تلك التى تنظر إلى الدنيا بعين متلألئة بنور الإيمان ، تقر فى كل شىء معناه السماوى ، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً ، وتأخذ ما تعطى من يد خالقها رحمة معروفة ، أو رحمة مجهولة. وهذه عندى تسمى امرأة ، ومعناها المعبد القدسى . وتكون الزوجة ، ومعناها القوة المسعدة . وتصير الأم ، ومعناها التكلة الإلهية لصغارها وزوجها ونفسها.

ومهما تبلغ المرأة من العلم ، فالرجل أعظم منها بأنه رجل ، ولكن المرأة حق المرأة ، تلك التى خلقت لتكون للرجل مادة الفضيلة والصبر والإيمان. فتكون له وحياً وإلهاماً وعزاء وقوة ، أى زيادة فى سروره ، ونقصاً من آلامه .

ولن تكون المرأة فى الحياة أعظم من الرجل ، إلا بشىء واحد ، هو صفاتها التى تجعل رجلها أعظم منها . . . الخ .

٣ — وكتب المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فى كتابه « النظرات » تحت عنوان « الغنى والفقير » ، قال :

« مررت ليلة أمس برجل بائس ، فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً ، فرثيت لحاله وسألته : ما باله ، فشكا إلى الجوع ! ففثأته عنه ببعض ما قدرت عليه . ثم تركته ، وذهبت إلى صديق لى من أرباب الثراء والنعمة فأدهشنى أنى رأيته واضعاً يده على بطنه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير . فسألته عما به ، فشكا إلى البطنة ! فقلت : يا للعجب ! لو أعطى ذلك الغنى ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقما ولا ألما .

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ، ويطفىء غلته ، ولكنه كان محبا لنفسه مغاليا بها ، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير . فعاقبه الله على قسوته بالبطنة ، حتى لا يهنىء للظالم ظلمه ولا يطيب له عيشه . وهكذا يصدق المثل القائل : بطنة الغنى انتقام لجوع الفقير .

ماضنت السماء بمائها ، ولا شحت الأرض بنباتها ، ولكن حسد الغنى

الضعيف عليهما ، فزواهما عنه واحتجنهما دونه ، فأصبح فقيراً معدما ، شاكيا متظلما . غرماؤه المياسير الأغنياء ، لا الأرض والسماء . الخ .

٧ — وصف عصور الأدب العربى :

تردد وصف عصور الأدب العربى ، والحديث عن أعلامه ، فى كثير من المؤلفات القديمة . ولكنه لم يكن بهذا النظام والترتيب والتقسيم والتبويب الذى دخل عليه فى العصر الحديث ، والذى يعتبر نتيجة للثقافة الأجنبية ومظهراً للاطلاع على الآداب الغربية ، وطرق الغربيين فى الكلام عن أدبهم وأدبائهم . فتاريخ الآداب فى حالته الراهنة يعتبر أحد الفنون الأدبية الجديدة .

وقد عاون على العناية بتاريخ الأدب العربى ورجاله ، إدخاله فى عداد مناهج الدراسة فى التعليمين الثانوى والعالى ، وكان كلما طال عليه الزمان وتوالت الأيام ، أدخلت التغيرات والتحسينات على مناهجه ، وتبع ذلك زيادة العناية بدراسته وإقبال صفوة المدرسين والأدباء على النظر فيه والتأليف فى شتى نواحيه وتوضيح معالمه ، وإبراز خصائصه ، حتى غدا — إلى حد كبير — محوراً هاماً تدور حوله النهضة الأدبية وتتمثل فيه

ومن أهم مظاهر العناية به تخصيص إحدى الكليات فى كل جامعة من الجامعات القائمة والمقترحة ، للدراسات الأدبية بكافة أنواعها ، وعلى رأسها تاريخ الأدب العربى ونقده ودراسة نصوصه .

وقد استفاد هذا الفن فائدة كبرى من تلاقح الثقافتين الغربية والعربية فى العصر الحديث ، وتزود الأدباء من كثير من العلوم الأخرى كالتاريخ وفلسفته والجغرافيا ، وعلم المنطق والفلسفة ، وعلمى النفس والاجتماع ، وعلم الأخلاق ؛ وغير ذلك ، فكان لها أثر بارز فى دراساتهم الأدبية على اختلاف أنواعها ، إذ اصطنعوا طرق الشك والإثبات ، وقواعد النقد ، والتحليل النفسى ، والتعليل الخلقى والاجتماعى ، ونظروا فيه إلى آثار البيئة والثقافة والطبائع ، وامتزاج الشعوب ، والأديان وطرق الحكم ، إلى غير ذلك من الأمور ذات

الأثر الواضح فى صبغ الأدب وتوجيهه . وقد تأثرت بها أساليبهم نفسها . فبدا بعضها وبه خشونة العلم بدلا من رقة الأدب .

ولخريجى الأزهر ودار العلوم ، فضل السبق إلى الكتابة فى هذا الفن . ثم شاركهم كثير من الأدباء وخريجى الجامعات المصرية ونذكر منهم جميعاً :

حسين المرصفى ، وحمزة فتح الله ، وحسن توفيق ، وعاطف بركات ، وحفنى ناصف ، وأحمد الاسكندرى ، ومصطفى عنانى ، وعلام سلامة ، هؤلاء وأندادهم الرعيل الأول والطليعة المباركة التى ذللت عقابه وعبدت صعابه ، وما منهم إلا وله كتاب أو مذكرة أو بحث فى عصر من عصور الأدب هذا العصر .

ومنهم جورجى زيدان منشىء الهلال ، وله كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » فى أربعة أجزاء ، أرخها إلى سنة ١٩١٤ م ويعتبر من أهم المراجع الحديثة فى بابه .

ومنهم أيضاً : طه حسين فى كتبه : فى «الأدب الجاهلى» و «حديث الأربعاء» و « ذكرى أبى العلاء » . وأحمد أمين فى كتابيه «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» وهو ينحو نحو الدراسة العقلية للأمم الإسلامية ، والعقاد فى كتابه « ابن الرومى من شعره » ولكل من مصطفى صادق الرافعى ، ومحمود مصطفى ، وأحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة « القديمة » ، مجلد أو أكثر فى تاريخ الآداب العربية ، ولكاتب هذه السطور كتاب «عصر سلاطين المماليك»، وغيرهم كثيرون .

النثر الصحفى

الصحف ـ كما بينا ـ معرض لكل ذى رأى نافع للبلاد ، يعرض فيها رأيه ويعلن الناس بما عنده، لذلك ينشر فيها العالم والأديب والناثر والشاعر والاجتماعى والسياسى . ولهذا تقرأ على صفحاتها أساليب شتى فى موضوعات متنوعة .

وتستعين بعض الصحف على تصحيح ما ينشر فيها وتفصيحه ، بعدد من ذوى الخبرة من أهل اللغة ، وكثيراً ما يكون فيها لهؤلاء الجنود المجهولين ، أفضل الأثر فى تقويم أسلوبها .

ولكن ليس كل ما ينشر فى الصحف يعتبر من باب « النثر الصحفى » . وحقاً يوجد بين كبار الصحفيين من يتصدى للكتابة فى موضوع علمى أو أدبى أو اجتماعى أو غير ذلك . وفى رأينا أن كتابتهم تلك ، تلحق بالنثر العلمى أو الأدبى أو الاجتماعى ، كل حسب نزعته وموضوعه ، وبخاصة ما تنشره المجلات المقصورة على العلم والأدب .

وإنما يطلق « النثر الصحفى » — فى رأينا — على أخص ما تنشأ لأجله الصحف ، ونعنى به نوعين هما : الكتابة السياسية والكتابة الإخبارية .

فالكتابة السياسية : هى ما يكتب فى الصحف انتصاراً لحزب معين ، ونشراً وتحبيذاً لمبادىء ذلك الحزب ، أو معارضة لغيره . ونظراً إلى أن الكاتب السياسى يسعى دائماً إلى كسب قلوب الناس وعواطفهم ، ليضموا صوتهم إلى صوته . . يستخدم ضروباً شتى من ضروب الإغراء وألوانا من البراهين ، فى أساليب حماسية وجمل طنانة رنانة سهلة يفهم العامة معانيها ، وهى لذلك أقرب شبهاً بالخطابة السياسية .

ومن الكتابة السياسية : أحاديث الزعماء السياسيين ، ورجال الأحزاب ونحوهم ، وما يكتبونه فى كل ما يتصل بشئون البلاد السياسية ، وقضيتها الوطنية ، وكفاح المستعمرين . والكتابة السياسية فى بلادنا حديثة ، وهى وليدة الصحافة الحزبية ، والثورات الوطنية معاً .

وبين كتابنا السياسيين اليوم ـ وأمس ـ من هو قوى الحجة عف اللسان سليم العبارة صحيح المنطق ، ولكن بجواره الكاتب الموهم المبالغ المفترى المضلل ، ومنهم من يتدلى أسلوبه إلى هوة من سفساف القول وفارغ الحديث من غير عفة ولا تورع ، وكان يكثر هذا السقط إبان الأزمات السياسية ، واشتداد الخلافات الحزبية .

والكتابة الإخبارية : هى ما تكتبه الصحف لتؤدى إلى قرائها أخبار العالم كله ، وأهم حوادثه اليومية ، سواء منها الداخلى أو الخارجى ، والحكومى وغير الحكومى ، ويلحق بهذا النوع ، الإعلانات التجارية .

وهذا الضرب من الكتابة من أهم ـ إن لم يكن أهم ـ ما تعنى به الصحف ، وتنشأ لأجله ، وبخاصة الصحف اليومية . ويغلب على محررى هذا الباب أن يؤدوه بعبارة سهلة لينة بعيدة عن التكلف والتزويق ، والتأنق والتنميق ، حتى تتضح معانيها منها ، فى يسر وسرعة إثر قراءتها ، وقد تلتاث بالعامية ، ويعتريها شىء من الخيال والمبالغة ، إذا كان فيما تحمله من الأخبار طرافة وغرابة .

ويعتبر النثر الصحفى ضرباً جديداً من ضروب النثر ، لم تعهده اللغة من قبل بحالته الراهنة ، وقد نشأ بنشوء الصحافة العربية وانتعاش الحركة السياسية ، وكلما اتسع نطاق الصحافة ، وبعد أفق السياسة وثوراتها ، اتسع نطاقه وبعدت آفاقه ، وقد لونه السجع زمناً ثم زايله ونأى عنه . فأصبحت عباراته مترسلة لا قيود فيها ، وكان من حسن طالع أهل الصحافة ، طبع عدة كتب أدبية ذات أسلوب من السهل الممتنع ، فكانت لهم نماذج حسنة ، رفهت عن أسلوبهم وقومت من عباراتهم وذلك مثل كليلة ودمنة ، ومقدمة ابن خلدون — على أنه بتوالى المرانة وقدم الصناعة ، برزت بين الصحفيين شخصيات ممتازة طبعت بطابعها ، وبين الحين والحين تقرأ فى الأهرام والمقطم — كان — مثلا ، مقالات تعالج بها مشكلة سياسية ، هى آية من آيات البيان ، وقد سبق لنا حديث فى الصحافة والصحفيين ، فراجعه .

ومن كبار الصحفيين : حسن العطار ، ومحمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ممن حرروا فى الوقائع المصرية ، وأحمد فارس الشدياق صاحب « الجوائب » ،

وإبراهيم المويلحى صاحب «نزهة الأفكار» والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، ومصطفى كامل صاحب «اللواء» ، ثم من بعده فى تحريرها عبد العزيز جاويش ، وأحمد لطفى السيد صاحب جريدة «الأمة» ، وأمين الرافعى صاحب «الأخبار» وداود بركات ، وأنطون الجميل فى «الأهرام» وعبد القادر حمزة صاحب «البلاغ» وإبراهيم عبد القادر المازنى فى «السياسة» و «الأساس» وحسين هيكل فى «السياسة» وغيرهم من المتوفين كثيرون .

ويعيش بيننا من الكتاب السياسيين والصحفيين جمع حاشد نذكر منهم : طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وفكرى أباظه ، وأحمد حسن الزيات ، وأحمد الصاوى ، ومحررو أخبار اليوم والأخبار الجديدة ومنهم مصطفى أمين ، وعلى أمين ، ومحمد التابعى ، وسلامة موسى ، ومحمد زكى عبد القادر ، ومحررو الجمهورية ومنهم أنور السادات ، وكامل الشناوى ، وجلال الدين الحمامصى . ومحررو القاهرة ومنهم حافظ محمود ، ومحررو الشعب ومنهم حسين فهمى ، ومحررو المساء ومنهم خالد محيي الدين . وكثير من محررى المجلات .

وإليك نماذج من الكتابة الصحفية :

١ — ورد فى أول عدد من أعداد «الوقائع المصرية» صدر بالعربية سنة ١٢٤٤ ﻫ ما يأتى :

«الحمد لله بارى الأمم ، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم ، أما بعد فإن تحرير الأمور الواقعة ، من اجتماع جنس بنى آدم ، المندمجين فى صحيفة هذا العالم ، ومن ائتلافهم وحركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم التى حصلت من احتياج بعضهم بعضاً ، هى نتيجة الانتباه والتبصر والتدبير والإيقان وإظهار الغيرة العمومية . . . الخ .

٢ — كتب الشيخ عبد العزيز جاويش المتوفى فى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩م ، مقالا فى جريدة «اللواء» بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٨م بعنوان : مدرسو اللغة العربية المصريون فى بلاد الانكليز «رد به على إحدى الصحف الإنجليزية التى

حملت عليه لأنه كان شديد الخصومة للإنجليز ، بعد عودته من بلادهم إلى مصر ، ولم يراع أنه كان مدرساً للعربية فى بلادهم ، داعية ألا يستعان بأمثاله مرة أخرى فقال من هذا المقال :

« نصح إلى المستر دنلوب ، أيام سافرت إلى أكسفورد ، أن اقتدى بمأراه من الأخلاق الفاضلة فى تلك الأمة العظيمة . فماذا جرى ؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم ، فزادونى تمسكا بدينى . رأيتهم شديدى الحرص على لغتهم ، فزادونى حرصاً على لغتى . أبصرتهم يتفانون فى الدفاع عن بلادهم ، ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف فى أموالهم ورقابهم ، فأخذت أحاكيهم فى هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه ، رأيتهم يحبون الصراحة ، ولا يخشون معتبة ، ولا يتهيبون متعبة ، مادام الحق لهم ، فأخذت أحاكيهم فى تلك الفضائل ، التى نصح بها إلى عمادهم بنظارة المعارف العمومية ! أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل ، ويحضون على الفضيلة ، فعدت إلى بلادى ، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع ، فكان حقاً على الانجليز أن يرفعوا عقيرتهم ، ويقوم خطباؤهم وشعراؤهم بالإفاضة والإسهاب فى مدح من نجح فى تقليدهم ومحاكاتهم فى فضائلهم ، ممن يرحلون إلى بلادهم من المصريين ! » . . . الخ .

٣٠ — وأرسل الوفد المصرى إلى حكومات الدول الكبرى والصحف الأوربية ومجلس عصبة الأمم احتجاجاً برقياً على تعسف الإنجليز بالبلاد المصرية عقب مقتل السردار عام ١٩٢٤م ، وقد نشرته الصحف المصرية ، وجاء فيه :

« تسود فى مصر هذه الأيام قوة غشومة مسلحة تعتمد عليها حكومة متمدينة فى القرن العشرين ، لإذلال أمة ناهضة متمدينة ، كل ذنبها أنها تنشد حريتها الطبيعية المقدسة ، وتطالب بحقوقها الطبيعية المغتصبة — لعله ليس فى العالم كله أمة أسفت وتألمت لقتل السردار أكثر من الأمة المصرية ، ولقد أظهرت جميع طبقاتها بشكل واضح جلى ، أسفها واستنكارها لهذا الحادث الفظيع . وهى مع ذلك قد دفعت تعويضاً باهظاً ، وقبلت أن تعتذر ، رغم قيامها بواجبها . من تعقب

المجرمين بكل همة ونشاط . ورغم أن هذه الجريمة الشنعاء يقع أمثالها فى كل بلد مهما ارتقت شئونه ،وانتظمت إدارته، بل وقعت بالفعل فى شوارع (لوندرا) نفسها جناية لا تقل عن هذه الجناية خطورة ، وهو قتل الفيلد مارشال ويلسون رغم ما أنذرت به الحكومة الانجليزية من أن حياته مهددة ـ فلم يقل أحد بأن النظام الذى حكمت به انجلترا قد عرضها لاحتقار الأمم؛ ولم يقل أحد بأن انجلترا عاجزة عن حكم نفسها . ومع ذلك فحكومة بريطانيا العظمى الحالية — بالرغم من كل هذه الاعتبارات — لا تريد أن تستغل هذا الحادث لإذلال مصر ، وتنفيذ مطامعها الاستعمارية ، على مرأى ومسمع من الدول المتمدينة ، الخ .

٤ — وكتب الأستاذ جلال الدين الحمامصى فى صحيفة الجمهورية الغراء بتاريخ ١١ يناير سنة ١٩٥٥ تحت عنوان« حكم الشعب » :

ستظل الأوضاع الدستورية للبلاد موضع أخذ ورد حتى يستقر الدستور الجديد وحتى تتكاتف كل القوى الشعبية لحماية هذا الدستور من أى اعتداء .

وحكم الدستور ، أو بمعنى آخر حكم الشعب ، وضع لا يختلف فيه اثنان .. لأنه أفضل النظم وأسلمها ، ولا يمكن لمصرى أن يقبل غير هذا الحكم .. ذلك لأن الشعب كافح فى سبيله كفاحا متصلا. ودفع ثمناً لهذا النوع من الحكم دمه وأعصابه وجهده . ومن الواضح أن زعماء العهود السابقة استغلوا الشعب للحكم باسم الدستور وإرادة الأمة . ومن الثابت أيضاً أن أحداً من هؤلاء الزعماء لم يفكر فى جوهر الدستور بقدر ما فكر فى مصالحه الشخصية ، حتى أولئك الذين كانوا فى يوم ما حماة الدستور .

وعلى هذا الأساس منحهم الشعب ثقته ، حتى هؤلاء لعبوا به وخضعوا للأطماع الشخصية ، فأهدر الدستور ، وأهدرت إرادة الشعب .

هذه تجارب يجب الإفادة منها ، فإن التجربة هى أساس كل نجاح وكل

استقرار . والتخبط فى الظلام مصيره أن نعود مرة أخرى ، بل مرات إلى أسوأ مما كنا فيه .

فنحن نريد حياة دستورية سليمة تشترك فيها طبقات الشعب جميعا ، بلا قيد وبلا تحديد ، وبلا تفريق بين طبقة متعلمة وطبقة غير متعلمة . ونريد إلى جانب ذلك حكما نيابياً يسقط الحكومات ولا تسقطه الحكومات .

ولست أشك فى أن هذا هو هدف الثورة الآن . ولست أتردد فى الرضا بالانتظار . لأن الثورة التى حققت كل وعودها ؛ فقضت على الإقطاع وأقامت الحكم على أسس سليمة ، وأجلت المحتل عن أرض البلاد ، هذه الثورة جديرة بأن تعطى فرصة لتحقق الوعد بإقامة حكم الشعب على قواعده المستقرة .

إن الآراء التى حملها إلى البريد بشأن الحكم النيابى آراء سديدة ، إن دلت على شىء فعن وعى شعبى رائع يؤكد أن عودة الدستور لن تكون عودة مؤقتة ، بل عودة دائمة ، تجعل حكم الشعب هو الحكم الأول والأخير .

النثر العلمى

نقصد بالنثر العلمى : كتابة التدوين والتصنيف ، التى تعنى بوصف الحقائق العلمية ، وتفصيل نظرياتها ، تفصيلا لا يعتمد على مبالغات أو تهاويل ، أو أخيلة فاسدة ، أو تصويرات مخترعة ، أو نحو ذلك .

وينبغى لنا أن نمهد للحديث عن أحوالها ، بنظرة يسيرة عاجلة ، إلى حركة التدوين نفسها .

وحركة التدوين قسمان : حركة ترجمة وتعريب ، وحركة تأليف وابتكار .

أما حركة الترجمة : فقد بدأت فى أوائل العصر ، إذ كانت ترجمة علوم الغرب فى مقدمة ما عنيت به مصر منذ أيام محمد على . ولذلك أرسلت البعوث العلمية إلى أوربا ، حتى تعجل إلى بلادها بترجمة علوم الغرب إلى لغتها ، ليفيد منها أبناؤها ، ويسرعوا إلى ورد الثقافة من مناهلها الأصلية ، حتى تجد منهم البلاد دعائم قوية لنهضتها .

وقد كانت الهمة منصرفة إلى تكوين جيش عظيم ، فاحتاجت البلاد إلى جملة من أطباء ومهندسين وقادة ، وأهل فن وصناعة ونحوهم ، لتنشئة هذا الجيش وتزويده بوسائل قوته ، لذلك اتجهت العناية إلى ترجمة علوم الطب والهندسة والحرب ، وفنون الزراعة والصناعة ، وما إلى ذلك .

وفترت الترجمة بفتور النهضة ، ثم عادت إلى نشاطها منذ عهد إسماعيل ، واتسع نطاقها شيئاً فشيئاً حتى تناولت فنون الآداب وغيرها .

وقد دعا اتساع أفق العلم ، وانتشار التعليم العالى ، وكثرة إيفاد البعوث إلى الخارج ، وشدة اتصالنا بالأمم الأجنبية ، إلى العناية بترجمة كثير من كتب العلوم كالتربية وتاريخها وعلم النفس وعلم الاجتماع والمنطق والفلسفة والآداب والقصص والقوانين والاقتصاد والطبيعيات والرياضيات والتاريخ والتقويم ، إلى غير ذلك . وبلغت الترجمة اليوم مبلغا لا بأس به ، ولكنه يحتاج إلى المزيد .

أما حركة التأليف :

فإنها ـ عادة ـ تتبع حركة الترجمة : لذلك نبتت على إثرها وأخذت تنمو وتنشط حتى نضجت اليوم واستوت على سوقها ، وأصبحت فى دور الينع والإثمار . ونستطيع تقسيمها إلى ثلاث مراحل متصلة إحداها بالأخرى . ورجال المرحلة الأولى هم الذين تثقفوا فى عهد محمد على ، وأدركوا عصر إسماعيل وتوفيق ـ والثانية هم شبيبة عصر إسماعيل وتوفيق الذين عاصروا الاحتلال وأدركوا عصر الاستقلال . والثالثة طبقة الأحياء المعاصرين لنا .

١ — أول ما عنى المؤلفون بالتأليف فيه : التاريخ والتقويم والخطط والتحشية على كتب اللغة والدين ، ووصف الرحلات ، ووضع موجزات فى متن اللغة ، وعلم النحو والصرف والبلاغة ، وكانت العناية بفنون العربية ، بالتأليف فيها ببلاد الشام أسبق منها فى مصر ـ وقد مر بيان أسباب ذلك ـ هذا ويلاحظ أن من مؤلفى هذه المرحلة الأولى عددا من رجال الأزهر ، كالعطار وعليش والبيجورى والأبيارى :

وكان الأسلوب العلمى فى هذه المؤلفات ـ فى الغالب ـ ركيكا غثا ملتاثا بالعامية ، ملحوناً أحياناً ، ولا غرابة إن كان بعيداً عن منازع البلاغة ، وصنع البيان . ويتفشى أسلوب السرد والوصف الساذج فى كتب التاريخ والخطط مع شيء من السجع والبديع ، كما يتفشى أسلوب السرد والاعتراضات ، والتنبيهات ، والشروح اللفظية ، وشرح المختصرات ونحو ذلك . فى كتب الحواشى .

وكذلك كان حال الأسلوب فى الكتب المترجمة ، سـواء أفى القانون أم السياسة أو فنون الحرب أو الطب أو الهندسة أو غير ذلك .

ومن المؤلفين : ١ ــ الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر « توفى سنة ١٨١٢ م » وله كتاب «التحفة البهية فى طبقات الشافعية» ضمنه أعلام هذه الطائفة من القرن التاسع إلى سنة ١٢٢١ هـ .

٢ ــ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى « ١٨٢٥ م » وله كتاب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » .

٣ ــ على باشا مبارك « ١٧٩٣ م » وله كتاب « الخطط التوفيقية » .

٤ ــ أمين باشا فكرى «١٨٩٩م » وله كتاب « جغرافية مصر والسودان »

٥ ــ الشيخ إبراهيم البيجورى « ١٨٥٩ م » وكان شيخاً للأزهر . وله جملة حواشى فى الفقه والتوحيد واللغة .

٦ ــ ناصيف اليازجى اللبنانى « ١٨٧١ م » وله « فصل الخطاب » وهو فى الصرف والنحو ـ وله غيره .

٧ ــ بطرس البستانى « ١٨٨٣ م » وله « دائرة المعارف » وهى موسوعة فى الأدب والعلم والتاريخ ، على حروف المعجم ، أتم منها ست مجلدات ، وأتم بنوه أجزاء أخرى ، وله أيضاً معجم « محيط المحيط » ، وله كتب أخرى فى النحو والصرف والحساب وغيرها .

٨ ــ ومن المشهورين أيضاً : الدكتور محمد على البقلى ـ ومحمد الدرى ، ومحمود الفلكى ، وشفيق منصور

ومن المترجمين :

١ — رفاعة الطهطاوى « ١٨٧٣ م » وله كتب فى القانون والطب والهندسة والجغرافيا وغيرها ، منها « القانون المدنى » عربه عن الفرنسية .

٢ — إبراهيم النبراوى « ١٨٦٢ م » ترجم كتباً فى الطب منها « كتاب الأربطة الجراحية » عربه عن الفرنسية .

٣ — أحمد حسن الرشيدى « ١٨٦٥ م » وله كتاب « طالع السعادة » . وهو فى الولادة وأمراض النساء والأطفال ، عربه عن الفرنسية .

٤ — محمد بك الشافعى : عاش إلى نحو « سنة ١٨٦٥ م » وله كتاب : « أمراض الأطفال » لكلوت بك ترجمه عنه .

٥ — ومنهم أيضاً : محمد الشباسى ، وعيسوى النحراوى ، وأحمد ندا ، ومحمد بيومى ، واشتهر بنقل الرياضيات ، والسيد صالح مجدى واشتهر بنقل العلوم الحربية .

* * *

٢ — ولما اتسع نطاق التعليم منذ عصر إسماعيل ، وتيقظت البلاد ، وأقبل بنوها على الثقافة وزادت البعوث ، واتسع نطاق الترجمة والتأليف معا ، وجد الناشئون حينذاك ذخيرة طيبة فيما خلفه لهم الأوائل ، من كتب مترجمة ومؤلفة ، وزاد الإقبال على تدوين كتب الأدب والقصص وكثير من العلوم الكونية ، وشىء من علوم اللغة والدين .

وظفر الأسلوب العلمى بكثير من تهذيب عباراته ، وتقويم تراكيبه ، بل ظفر بشىء من الطلاوة ، والجدة ، ونبذ تكلف السجع والبديع ، وأخذ فى الانقياد لمشيئة المترجم أو المؤلف ، حتى يصوغ به مايشاء من الحقائق والمعلومات .

ومن المؤلفين :

١ — الشيخ محمد عبده « ١٩٠٥م » وله رسالة التوحيد .

٢ — قاسم أمين « ١٩٠٨ م » وله « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » .

٣ — عبد الرحمن الكواكبي الحلبي « ١٩٠٢م » وله كتاب « أم القرى » في طرق إصلاح المسلمين .

٤ — عمر لطفي « ١٩١٢ م » وله « الدعوى الجنائية » « والوجيز في شرح القانون الجنائي » و « إنشاء الشركات التعاونية » .

٥ — أحمد حمدى « ١٩٠٣م » وهو ابن الدكتور محمد على البقلي ، كان جراحا وله « تحفة الحبيب » وله غيرها .

٦ — إسماعيل سرهنك « ١٩٢٤ م » وله « حقائق الأخبار عن دول البحار » في ثلاثة أجزاء .

٧ — رفيق العظم « ١٩٢٥م » وله « أشهر مشاهير الإسلام » في الحرب والسياسة ، أخرج منه أربعة أجزاء .

٨ — جورجي زيدان « ١٩٢٧م » وله تاريخ آداب اللغة العربية ، وتاريخ تمدن الإسلام ، وغيرهما .

٩ — الشيخ محمد الخضرى « ١٩٢٧ م » وله كتاب « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » وتاريخ التشريع ، ومهذب الأغاني ، وغير ذلك .

١٠ — الشيخ عبد الوهاب النجار — توفى من بضع سنوات — وله « قصص الأنبياء » .

١١ — أحمد تيمور ، وله ضبط الأعلام · والأمثال العامية .

ومن المترجمين :

١ — حسن محمود ، وقد كان رئيساً لمدرسة الطب ، وتوفى سنة ١٩٠٦ م وله كتب منها مؤلفة ومعربة ومن تعريبه : « الرمد الصديدى » .

٢ — يعقوب صروف : أحد أصحاب المقطم والمقتطف وتوفى سنة ١٩٢٧م وله مترجمات كثيرة ، منها « سر النجاح » .

٣ — فتحى زغلول ، ومن تعريبه « روح الاجتماع » لجستاف لوبون .

٤ — محمد السباعى ، ومن تعريبه « الأبطال » لتوماس كارليل .

٥ — عبد العزيز باشا محمد ، ومن تعريبه « التربية الاستقلالية » لألفونس اسكيروس .

٣ — هذه المرحلة الثالثة : هى مرحلة جيلنا الحاضر ومن فيه من الأحياء مؤلفين ومعربين ، ممن عاصروا أهل المرحلة الثانية أو تتلمذوا لهم ، وهم كثرة لا يحصون عداً . وإن نظرة عابرة إلى ما تكدس من المطبوعات العلمية الحديثة فى المكاتب ، وإلى ما تنشره الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ، كالأهرام والرسالة ، من أخبارها وتقاريظها ، والإشارة إلى متضمناتها ، وإلى ما تنشره مجلة « السجل الثقافى » التى تصدرها إدارة السجل الثقافى بوزارة التربية والتعليم من إحصائيات سنوية للكتب المعربة والمؤلفة الحديثة ، وإلى ما كانت تنشره مجلة « الكتاب » الصادرة عن دار المعارف ، من قبيل هذه الإحصائيات ، لترينا مبلغ عدد المؤلفين والمعربين المعاصرين ، وتنوع ما يتناولونه من المطبوعات ، فى الأدب والاجتماع والقانون والاقتصاد والتاريخ والتربية والسياسة والطب وعلم النفس والطبيعة والكيمياء ، وعلوم الدين والتصوف والفلسفة والفنون والصناعات المختلفة ، وعلوم اللغة ، وغير ذلك .

وقد لان الأسلوب العلمى وانقاد لهؤلاء المؤلفين والمعربين ، أكثر من لينه وانقياده لسابقيهم ، وبدت فيه نضارة العبارة ، وجمال الإشارة ، وحسن العرض ودقة المقدمات وصدق النتائج ، والترتيب والتبويب ، وعمق النظرة ، واستقصاء الأطراف ، والاعتماد على النصوص المأثورة ، والتعرض للروايات المختلفة ، وترجيح إحداها على الأخرى ؛ بالدليل العلمى والحجة المادية ، إلى غير ذلك . وقد زايلتها المحسنات البديعية والسجعات إلى غير رجعة . وإن كانت فقارها تترجح بين الطول والقصر .

ويضيق المقام إذا ذهبنا نسجل أسماء هؤلاء وأسماء مؤلفاتهم ، فنجتزىء بما يأتى على سبيل المثال :

فمن المؤلفين : طه حسين وله : مستقبل الثقافة ، والفتنة الكبرى . — والعقاد وله : كتب العبقريات — وحسين هيكل وله : فى منزل الوحى ، وحياة محمد . وأحمد أمين وله — فضلا عن فجر الإسلام وضحى الإسلام — زعماء الإصلاح ، وفيض الخاطر . ومحمد رفعت ، ومحمد شفيق غربال ، ولهما كتب ومحاضرات عدة فى التاريخ . وزكى مبارك وله « الأخلاق عند الغزالى » و «التصوف فى الإسلام» . وعبد الرحمن الرافعى وله « تاريخ الحركة القومية » فى عدة أجزاء .

ومن المترجمين : الدكتور منصور فهمى وله رواية « هيرمان ودوروتيا » عن جوتى الألمانى . وأحمد لطفى السيد وله «الأخلاق» و « السياسة » لأرسطو . ومحمد فريد أبو حديد ، وله « فتح العرب » لبتلر . وأحمد حسن الزيات ، وله « آلام فرتر » .

ومما يسر المؤرخ أن يسجله مانراه اليوم من إقبال عشرات من الشباب المثقف — وبخاصة الأساتذة الشبان بالجامعات القائمة — على الترجمة والتأليف والبحث ونشر الكتب والمقالات العلمية والأدبية فى شتى الموضوعات ، مما يبشر بمستقبل علمى جليل .

ولنا بعد ذلك ملاحظات يسيرة على الأسلوب العلمى منها :

١ — أن بعض الكتب تثقل كاهله المصطلحات العلمية وطرق الأداء الأجنبية ، وذلك بتأثير الثقافة الغربية ، والرغبة الجامحة فى سرعة الأخذ عنها ، وصعوبة تحرى ما يرادفها من الألفاظ العربية الصحيحة ، وبخاصة فى كتب الطب والطبيعة والكيمياء والهندسة وما شابهها . والأمل معقود على جهود العلماء والمجمع اللغوى ، فى ملافاة ذلك .

٢ — إن من النثر العلمى ، نوعا يسمى « النثر الاجتماعى » ويعنى بالنظر فى شئون الأمة من ناحية حياتها المعاشية ، والنظر فى أسباب انحطاطها وعوامل رقيها ، وعاداتها وتقاليدها ، وأدوائها وآلامها وآمالها فى إصلاح مرافق حياتها .

فيصف الكاتب الاجتماعى كل ذلك وصفاً دقيقاً ، مبيناً ضروب الفساد ووسائل العلاج ، ليسير بأمته فى سبيل سعادتها ، وهو بهذا فى حاجة إلى اصطناع الأساليب الخطابية ، رغبة فى التأثير والإقناع . فيضخم الفساد ، ويحبب العلاج ، ويستمد من الماضى ذكرياته المجيدة ليبث الحماسة نحو الإصلاح ، ويستثير كامن الغيرة والنخوة إلى النهوض ، وبهذا صار قريباً من النثر الأدبى .

وقد ولد هذا الفن الكتابى الجديد فى عصرنا الحديث لجملة أسباب ، منها : مجىء جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، ومحاضراته ومناقشاته فى مشاكل المجتمع المصرى . وإنشاء النوادى والجمعيات للبحث فى هذه المشاكل ونحوها . وانتعاش الحركة الثقافية ، وتذوق الثقافات الأجنبية . ورؤية الأحوال المعيشية للأمم والجاليات الأجنبية ، وما تتمتع به من رفاهة وسعادة ، ومقارنتها بما يعانيه المجتمع المصرى من فساد واضطراب ، هذا وغيره نبه خواطر بعض القادة إلى ضرورة الإصلاح الاجتماعى ، ومعالجة الفرد والأسرة .

ومن موضوعاته — على سبيل المثال — الروابط الزوجية ، وتحرير المرأة ، والسفور والحجاب ، وتعليم الفتاة ، ونشر الحركة التعاونية ، وإنشاء النقابات ومعونة الفلاح ، ومعالجة العطلة ، ومحاربة أعداء الأمة الثلاثة : الجهل والفقر والمرض . الخ .

ومن كتابه : قاسم أمين ، وعمر لطفى ، وفتحى زغلول ، وملك ناصف ، وعلى يوسف ، وغيرهم .

كلمة ختامية فى النثر :

يبدو لنا مما بيناه فى موضوع النثر ، خطابة وكتابة ، أنه بلغ اليوم شأواً بعيداً ، فاتسعت أغراضه ، وتنوعت أساليبه ، وتجددت معانيه وتصوراته ، وولدت منه أنواع لا عهد للعربية بها . وأصبح لدينا من الكتاب — بخاصة — من ألينت الكتابة ليراعه ، وانقادت لقلمه ، فاستطاع أن يسكب فى قوالبها ما شاء له عقله وخياله من وقفات ناظره ، وسنحات خاطره ، دون مجاهدة ومجالدة ، وبلغ بعضهم فى صفاء أسلوبه وسماحته ودقة أدائه وجمال قوته ، مبلغاً

لا يقل عما بلغه كتاب العربية فى أزهى عصورها . بل إذا قلنا إن بين كتابنا من فى مكنته تقليد أكثر من واحد من زعماء الكتابة العربية فى العصور الماضية على اختلاف منازعهم وتفرق مذاهبهم ، لم نبعد عن الحق . وكثير منهم برزت له خصوصيات فى كتابته ، استبدت بطبعه ، واستأثرت بخاطره ، وجرى بتصريف منها قلمه . وبذلك برزت شخصياتهم الكتابية التى ترشد عنهم وتدل عليهم . ومن هؤلاء : المنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، والعقاد ، وأحمد حسن الزيات .

وسيبدو لنا من دراسة الشعر — فى فصل قادم — أنه هو أيضاً قد أصاب مبلغاً محموداً من النضج فى العصر الحديث ، وأنه — مع هذا — لم يلحق للنثر بغبار ، ولا يزال يجرى فى إثره ، ويتبع الآثار . ولذلك أسباب منها :

١ — أن النثر اتخذ — منذ أول العصر — أداة للتفاهم فى دواوين الدولة ودور التعليم .

٢ — أن الكتابة — دون الشعر — هى التى أخذت تعالج ترجمة الكتب العلمية ، فلم يشاركها فى هذا الميدان إلا لماما . «كترجمة الألياذة ، ورباعيات الخيام»

٣ — أن الكتابة لغة الصحف والإذاعة ، وأن الخطابة لغة الزعماء أمام الجماهير — وهذا لم يهيأ للشعر .

٤ — أن كثيراً من خطبائنا وكتابنا استطاعوا عن طريق صناعتهم هذه ، أن يسموا إلى مراكز فى الدولة لها الصدارة ، اكتسبوا منها جاهاً ومالا . أما شعراؤنا فلم يجدوا ما يشجعهم تشجيعاً ذا قيمة ، ولم يستطيعوا — عن طريق صناعتهم هذه — أن يسموا إلى ما سما إليه نظراؤهم . وكثير منهم لا يزال متسكعاً يقضى زهرة عمره كادحاً فى سبيل العيش ، فى وظيفة متواضعة أو نحوها وشعره يحترق فى ضميره . ولا يجد من يرد على نفسه معنويتها .

وبعد ! فهذه بعض الأسباب التى أتاحت للنثر العمل والمرانة ، فسار قدماً نحو السمو والتقدم ، دون الشعر . وسنعود إلى تفصيل ذلك عند الحديث عن الشعر .

الترجمة وأشهر المترجمين

١ — الحاجة إلى الترجمة :

لا بد للأمة الضعيفة المخذولة التى فرق الزمن بينها وبين العلم الصحيح ، والتى باعدت الأيام بينها وبين الحياة الروحية السليمة ، إذا ما ساورتها فكرة النهوض وحاولت أن تقيل عثارها ، من أن تمر بدورين لا محيد لها عنهما . الأول : دور الترجمة والنقل عن الأمم المتحضرة التى سارت من قبلها صعداً فى سلم المجد العلمى ، وارتقت معراج الحياة الروحية الأدبية السامية . حتى إذا ما روى ظمؤها وزال صدؤها ، وتمثلت فى سريرتها حقائق العلوم ونظرياتها ، وطرق البحث ونظمه ، واستقر فى سجيتها فهم الأدب وحيويته ، وشعرت — فى عمق — بالحاجة إليه ، آن لها بعد ذلك أن تنتقل إلى الدور الثانى ، وهو دور التأليف والابتكار ؛ تقدم عليه غير هيابة ولا وجلة ، ومزودة بملكة علمية ومقدرة أدبية ، سرت كل منهما فى سلائقها سريان الدم النقى فى شرايين الجسد .

وليس معنى ما تقدم أن كل دور منفصل عن الآخر ، لا ! بل كثيرا ما تبدو روح التأليف والابتكار ، ولا يزال دور الترجمة فى إبانه وينعه .

٢ — أسباب نهوض الترجمة فى مصر ، وطرقه ونتائجه :

(ا) ولقد كان من حظ مصر — بعد أن كانت قد كبا بها جوادها — أن أتاح الله لها أسباب النهوض منذ عهد محمد على . فرأت البلاد أنه لا بد لها من أن تنهض بدور ترجمة تنقل فيه عن أمم أوروبا ، علومها ، بعد أن بلغت شأوا بعيداً فى سبيل الرقى العلمى ، فشمرت عن ساعد الجد ، وبذلت فى سبيل الترجمة مساعى جليلة الشأن آتت أكلها شهيا ، ونوهنا فيما سبق بشىء من ذلك — ومنه :

بعث البعوث العلمية إلى أوروبا ، وتوصية أعضائها بترجمة الكتب النافعة ، وجلب المترجمين الذين استخدموا فى المدارس الجديدة وبخاصة مدرسة الطب .

وإنشاء مدرسة الألسن لتخريج شبيبة قادرة أتقنت اللغات الأجنبية ، ليعهد إليها بترجمة الكتب العلمية ، وتأسيس قلم خاص للترجمة برياسة رفاعة الطهطاوى وفريق من متخرجى البعثات ومدرسة الألسن ، وقد عهد إلى هذا القلم بترجمة كثير من الكتب العلمية .

وكان نتيجة هذه الحركة المباركة : نقل العلم إلى مصر ، وتسهيل سبل التعليم ، وتيسير الأخذ عن المدرسين الأجانب الذين ملئوا حينذاك فجاج المدارس فى البلاد ، وكذلك ترجمة كثير من كتب الطب والتشريح والطب البيطرى والزراعة والصباغة والكيمياء والفنون العسكرية والهندسية ؛ والقانون . وإخضاع الأساليب العربية — ولو إلى حد — للتعبير العلمى . وبعث بعض مفردات اللغة لتؤدى جانبا من الحقائق .

وقد نوهنا فى الباب السابق بعدد من المترجمين فى هذه الفترة ، ومنهم : رفاعة الطهطاوى ، وإبراهيم النبراوى ، وأحمد حسن الرشيدى ، ومحمد الشافعى ، ومحمد الشباسى . . . الخ ؛ فراجعهم .

(ب) ثم فتر أمر الترجمة بعد محمد على ، حتى كان عصر إسماعيل ؛ فانتشر التعليم فى عهده ، وفتحت المدارس وأرسلت البعوث وزادت الرحلة بين مصر وأوروبا ، فوجدت الترجمة فى هذا كله ميدانا فسيحاً ومراحا واسعا . واشتغل بالترجمة كثيرون ونقلوا كتبا فى القانون والاقتصاد والتاريخ وغيره .

ولبث أمر الترجمة بين كبوة ونهوض ، حتى اتسعت دائرتها اتساعا محموداً بعد ثورة عام ٩١٩١ لجملة أسباب منها : انتشار المدارس المختلفة بين صناعية وتجارية وثانوية ، وكليات جامعية . وما تناول مناهجها من تهذيب . وتقرير مواد دراسية تحتاج إلى مراجعة الكتب العلمية الأجنبية . ومما عزز هذه الحركة : بعث البعوث إلى الخارج ، وانتشار السفارات بين مصر وسواها ، والإكثار من عقد المؤتمرات الدولية فى القاهرة ، والإقبال على مفاوضة الدول

الخارجية فى شتى الأمور المصرية من سياسية وغيرها ، مما يحتاج إلى وثائق ومكاتبات ، تنقل وتترجم ، من العربية وإليها ، وانتشار الصحف وعنايتها بنقل الأخبار الخارجية . ثم الرغبة فى ملء الفراغ العلمى والأدبى الذى يرى فى لغتنا ، وبخاصة فى العلوم الحديثة ، وفى أنواع من الآداب مثل القصص والشعر والنقد .

وقد ترجمت عدة كتب فى الفلسفة والتربية ، وفى التاريخ والتقويم والطب والهندسة والصناعات والكيمياء وعلوم الرياضة ، وعلوم الاجتماع والقوانين والدساتير ، والقصص التاريخية والتمثيلية وغيرها ، وطرق البحث والنقد الأدبى وغير ذلك .

وكثير من الكتب التى ألفت فى هذه العلوم ، هى - فى الواقع - مترجمة ، عربها مؤلفوها وأدخلوا عليها ضروبا من التغيير .

ويبدو لنا — بعد إلقاء نظرة على الكتب المترجمة حديثا ، وعلى ما أحصته منها مجلة «السجل الثقافى» — أن أكثر الكتب المترجمة فى جيلنا الحاضر ، كتب مدرسية . وأن الترجمة لم تعمم فى كافة العلوم المختلفة ، وأن همة المترجمين منصرفة إلى تعريب الروايات أكثر من غيرها .

ونلاحظ على حركة الترجمة ما يأتى :

١ — أنها كانت حركة معنية بالعلوم أولا ، ثم أخذت تعنى بالآداب ، أما فى سوريا فعنيت بالعلوم والآداب معاً .

٢ — وأنها كانت حركة حكومية بعيدة عن نشاط الأفراد الخاص ، ولكن بعد زمن طويل ، أخذ كثير من الأفراد يهوون الترجمة ، ويغامرون فيها بمواهبهم ، دون نظر إلى الحكومة أو تشجيعها .

ومن أبرز المترجمين : فتحى زغلول ، وله كتاب « روح الاجتماع » و « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » . ويعقوب صروف وله « سر النجاح » . وسليمان البستانى ، وله « إلياذة هوميروس » عربها شعراً . وحافظ إبراهيم معرب

« البؤساء » ، ومحمد السباعي وله « الأبطال » و « رباعيات الخيام » عربها شعراً وعبد العزيز محمد وله « التربية الإستقلالية » لألفونس اسكيروس .

ومن الأحياء المعاصرين : طه حسين وله « قصص تمثيلية » وأحمد لطفي السيد وله « الأخلاق » لأرسطو ، وأحمد حسن الزيات وله « آلام فرتر » ، ومحمد فريد أبو حديد ، وله « فتح العرب لمصر » عربه عن بتلر ، وعباس محمود العقاد ، وقد ترجم فصولا أدبية وقصائد شعرية عدة وغيرهم كثيرون — وقد سبق لنا التنويه ببعضهم .

٣ — وأنها فردية ، ولم تجمع لها جهود الجماعات إلا قليلا : ومنهم « لجنة الترجمة والتأليف والنشر » المنشأة سنة ١٩١٤م ، ولها جهود موفقة في التعريب . ولجنة ترجمة « دائرة المعارف الإسلامية » وتتكون من بعض الجامعيين ، وقد صدر أول عدد لها سنة ١٩٣٣ م .

٤ — أن في بعض دور التعليم ، جعلت الترجمة مادة من مواد الدراسة . يعالجها الطلاب ، وبخاصة من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية إلى العربية ، وأن في كثير من دواوين الدولة ، قلما خاصاً للترجمة ، للقيام بترجمة ما يحتاج إليه من مكاتبات من العربية أو إليها .

٥ — وأن في بعض دور الصحف أقساماً خاصا للترجمة ، فيها عدد من أفاضل المترجمين إلى العربية ، يعربون الأخبار الخارجية والمذكرات والوثائق المكتوبة باللغات الأجنبية ، وما إلى ذلك ، وبهذه المناسبة نذكر ما يروى عن المغفور له إبراهيم عبد القادر المازني الكاتب الأديب الصحفي ، أنه كان بارعا في اللغة الإنجليزية ، سريعا في ترجمة مكتوباتها إلى العربية ، حتى إنه كان يعربها فور قراءتها عليه .

أثر الترجمة في الكتابة والشعر : -

يضيق بنا مجال القول إذا رحنا نعد الآثار التي أحدثتها حركة الترجمة في كتابنا وشعرائنا ، ولكننا نجملها فيما يأتي :

١ — سبق ارتقاء النثر على الشعر :

كانت الكتابة فى أول العصر ، هى والشعر يتعثران فى أذيال الضعف والركاكة والغثاثة ، ولكن حينما أخذت حركة الترجمة فى النشاط والازدياد ، واطلع الأدباء والمنشئون على ضروب من الكلام ، وشتات من العلوم ، لا عهد لهم به ، كان ذلك حافزاً لهم على مجاراة الأوروبيين والتشبه بهم فيما يكتبون وما يصطنعون من فنون الإنشاء . وكان أثر ذلك بادياً فى النثر أوضح منه فى الشعر ، لأن طبيعة النثر مرنة يسهل تحريرها من القيود ، وفى مكنة الناثرين أن يتريثوا به عنها . أما الشعر ؛ فله من قيود الوزن والقافية ما قد يعوقه عن سرعة التأثر . وليس هذا وحده كافياً هنا ، بل إن اتجاه النهضة فى أول أمرها ، إلى الناحية العلمية دون الأدبية ، وإلى ترجمة الكتب العلمية دون الأدبية ، وإلى ترجمة كتب النثر دون كتب الشعر ، أتاح للنثر فرصة الاقتداء والسير على الأثر .

٢ — اتساع آفاق القول ، والإقدام على التأليف :

باطلاع الأدباء على ما عرب من الكتب والقصص والمقالات والبحوث ، وجدوا ألواناً شتى من فنون القول ، وسعت أمامهم آفاقه ونبهت خواطرهم إلى كثير من أغراضه ، فجربوا أقلامهم فى ميادينها بدافع من حب النهوض ، والرغبة فى التقدم ، فقلدوا ونقلوا وجروا شوطاً فى هذا المضمار ، حتى أخذوا يحاولون التأليف والتجديد فيه ، وللنثر نصيب من ذلك كبير ، إذ عانى الناثرون التصنيف فى علوم كثيرة كالتاريخ والتقويم والرياضة والتربية والطبيعة والكيمياء ، محاولين أن يصقلوا مصنفاتهم بصقالهم ويطبعوها بطابعهم ، ويعبروا فيها بأساليبهم .

ويلاحظ أن التصنيف فى العلوم الكونية الحديثة ، قد تقدم على التصنيف فى العلوم العربية والدينية — وقد نوهنا بذلك — ثم دب النشاط فى المعنيين بأمر اللغة وفنونها ، فألفت كتب فى النحو والصرف ومتن اللغة وفقهها وبلاغتها وأدبها ، ولكن هذا لا يعد ـ فى نظرنا ـ شيئاً مذكوراً بجانب ما نرجوه ونترقبه . أما علوم الدين فلا تزال تعانى كثيراً من عثارها ، ونحن فى انتظار من يقيلها .

هذا فى النثر . أما فى الشعر : فقد ناله من اتساع فنونه ، شيء محمود فتنوعت أغراضه ، ومنها : الشعر الاجتماعى ، والنفسى ، والسياسى ، والتمثيلى . وتهذبت أساليبه واقتدرت عن التعبير عن كثير من المعانى الدقيقة المعقدة ، فى يسر ووضوح، كما اتسع معجم ألفاظه ، إلى غير ذلك ، مما ستظفر به وبنماذجه فى باب الشعر.

٣ — المصطلحات العلمية والأساليب الدخيلة :

اصطدم الأدباء والمنشئون ، وبخاصة أهل الكتابة العلمية ، حين الترجمه والتعريب ، ومحاكاة ما يترجم ويعرب ، بصخرة صماء تحتاج إلى معاول حاده ، تصيرها فتاتا سهلا ، وتلك هى المصطلاحات العلمية ، ولاسيما أسماء الآلات الحديثة وأجزائها ، ومعها كثير من الأساليب الفرنجية ، عجزوا عن العثور على مرادف لها فى العربية ، وقد استعانوا فى تذليلها بمعجمات اللغة وكتب العلم العربية القديمة ، يستخرجون من بطونها المفردات الصالحة لأن تحل محل مرادفاتها الفرنجية ، ولكن هناك علوما ، أو فروع علوم ، لم يسبق للعرب الاشتغال بها على نمط من اشتغال الأوربيين ، كعلوم الرياضة والكيمياء والطبيعة والهندسة ، وهنا زادت مسألة المصطلحات تعقيداً ، ولاتزال حتى اليوم ، من أهم المشاكل التى يصطدم بهـا التأليف العلمى .

وليس معنى ذلك أن العلماء وقفوا إزاءها مكتوفى الأيدى ، بل عمل كل من جانبه على تذليل ما يستطيع تذليله . فهؤلاء المترجمون من السريان والمغاربة والأرمن الذين استخدمهم محمد على فى مدرسة الطب ، وهؤلاء المصريون الذين اضطلعوا بقلم الترجمة برئاسة رفاعه الطهطاوى ، وهؤلاء الذين زاولوا الترجمة والتأليف وهيمنوا على إصلاح الأسلوب الكتابى ، ومنهم على مبارك ، وعبد الله فكرى ، نقول : هؤلاء وغيرهم أخلصوا للغة على قدر استطاعتهم ، وأحيوا كثيراً من مفرداتها المهجورة ، ووضعوا — عن طريق المجاز والاشتقاق — مصطلحات جديدة ، وما زال العلماء والأدباء إلى يومنا هذا ، جادين فى هذه السبيل ، لتنقية العربية من المصطلح الدخيل .

ومن المفردات الجديدة التى ذاعت واستقرت على معانيها الحديثة : البرق ،

والسيارة ، والمسرة ، والمنطاد ، والواحى أو المذياع ، والحاكى ، والدبابة ، والدراجة ، والأثير . . . الخ .

ويبذل بعض المهندسين والأطباء والأدباء جهوداً مشكورة فى الإكثار من هذه المرادفات العربية ، كما أن المجمع اللغوى معنى بموضوعها. وبعض أهل الرأى يفضلون تعريب المصطلحات العلمية ، كما هى فى الفرنجية بعد صقلها صقلا ما بدلا من هذه المجهودات الشاقة فى سبيل وضع مصطلحات عربية مرادفة ، وهذا التعريب خطير — فى نظرنا — على اللغة يبعدها عن أصولها الأولى .

ولا تزال العلوم تعج — حتى اليوم — بمصطلحاتها ، نتيجة الانكباب على ترجمتها عن الأجنبية ، وعجز المترجمين عن وضع المرادفات العربية ، ومثل ذلك : الأكسجين ، والإيدروجين ، والآزوت ، والكلور ، والفسفور . . الخ .

وقد كتب الأستاذ الجليل الشيخ أحمد الاسكندرى — رحمه الله — رسالة تلاها فى بعض المؤتمرات العلمية وضع فيها عشرات من المفردات العربية الصالحة للحلول محل هذه الدخيلة ، ومنها على التوالى للمفردات المذكورة : المصدىء للأكسوجين . والمميه للأدروجين ، والمخصب للأزوت . الخ وكلها بصيغة اسم الفاعل .

هذا ومن الأساليب الدخيلة ما يلى :

١ — الموضوع يعطينا فكرة أو نأخذ عنه فكرة « بمعنى يصور لنا أو يفكرنا » .

٢ — محمد ، كمدرس ، يفيد الطلاب ، وكمؤلف ، غير منتج « وهنا استعملت كاف التشبيه وما دخلت عليه ، حالا » .

٣ — رغب محمد فى الاطلاع بعض الشىء « واستخدمت كلمة شىء مكان مصدر الفعل » .

وغير ذلك كثير. وقد يجد علماء النحو مخرجا عربياً ، لمثل تلك الأساليب . فخطرها — فى رأينا — غير ذى بال لا كالمصطلحات .

٤ — العزوف عن محاكاة القدماء :

كانت الكتب الأدبية القديمة من أمثال مقدمة ابن خلدون وكليلة ودمنة

والبيان والتبيين ، وشعر القدامى أمثال : زهير والنابغة وحسان وأبى تمام النماذج العليا لكتاب العصر وشعرائه . وقصارى جهدهم أن يحاكوا هؤلاء الأدباء والنوابغ .

ولكن ما عتموا بعد أن اطلعوا على الأدب الأوربى وما يكتبه كتابه ، وينظمه شعراؤه ، وبعد معاناة للترجمة عنه ، أن عدلوا عن الإغراق فى التقليد ، وحاول كل منهم أن يكون له شخصية مستقلة .

وكان من مظاهر هذا العدول ، أن كلامهم لم يعد حكما محشودة ، ولا أمثالا ملفقة ، ولا فقاراً متنافرة ، بل مقالات مسبوكة العبارة ، محبوكة الأطراف ، أو قصائد ، الصلة بين أبياتها وثيقة .

٥ — طلاقة الأسلوب :

أصبح الأسلوب النثرى والشعرى سهلا منطلقاً ، لا كلفة فيه ولا قيود من طباق أو جناس أو سجع ، أو تعمد استعارة أو تشبيه ، أو غير ذلك . إلا ماسنح عرضاً ، واقتضاه سياق الحديث .

ولانتشار التعليم والثقافة ، وقراءة الأدب القديم ، أثر لا ينكر فى هذه الحرية التى استردتها الأساليب . وللترجمة فى ذلك مشاركة جليلة ، لأنها قدمت نماذج للأساليب الحرة ، فاقتدى بها الأدباء .

وقد عف الأدباء عن المقدمات المطولة ، وعافوا كثيراً من ألقاب التعظيم وألفاظ الدعاء ، وعبارات البدء والختام إلى غير ذلك ؛ حذراً من اللغو والحشو .

ولا بد من الإشارة إلى أننا لا نزال نرى بعض المعربين يعتاص عليهم الأسلوب ، حينما يصورون معنى غريبا . أو يعالجون فكرة معقدة ، فيعجزون — بدافع من ضعف ثقافتهم العربية — عن إبرازها فى أسلوب قشيب سمح ، لذلك تبدو الكلفة والتعثر والغموض فى عباراتهم .

٦ — العناية بالمعنى قبل اللفظ :

ومما للترجمة أثر باد فيه : اتجاه الأدباء إلى الاهتمام بالمعنى أولا ، فيصرف إليه جل العناية ، ثم يؤدى بعبارات وألفاظ ، تفهم فى يسر وسهولة وسرعة . بعيدة عن مبتذل العامة ، والحشو والتطويل ، وقد حملت الترجمة إليهم طوفاناً

من المعانى والتصورات الجديدة ، فخلبت ألبابهم وشغلت فراغ عقولهم ، وأذهلت أقلامهم عن أدب الألفاظ ... وبذلك أصبح للمعانى المنزلة الأولى .

٧ — تحديد الموضوع وترتيب الفكرة :

ولم تقتصر العناية على تحديد المعنى وإبرازه فى العبارة ، أو البيت ، بل امتدت إلى المقالة والقصيدة . فاعتبرت كل منهما وحدة لاتتجزأ ، يراعى فى إيراد جزئياتها ، الترتيب والنظام ، وحسن المقدمة ودقة النتيجة ، وجمال العرض ، وقوة الربط ، وسوق الحجة والقياس ، وقد تأثر النثر بذلك أكثر من الشعر .

٨ — اتساع ميدان الخيال :

ولقد أصبح لأدبائنا مدد لاينضب معينه ، ولا تغيض عيونه ، فيما يقدم إليهم من الأدب المعرب ، ومايطلعون عليه من الآداب الأجنبية ، نقل إليهم كثيراً مما توحى به وتلهمه ، البيئة الأوربية ، من صور رائعة وأخيلة بديعة ، لاعهد لأدباء العربية بها . فحاولوا أن يطبعوا أنفسهم على غراره ، ويلجوا طريقه ، وينهجوا نهجه . وبذلك اتسع أمامهم ميدان الخيال ، وفرهت دفة التصور ، وتلاقح فى أطواء نفوسهم الخيال الفرنجى بالخيال العربى ، وموحيات البيئة الغربية بموحيات البيئة الشرقية : فأخذ يتولد فى ضمائرهم نزعات أدبية جديدة تحتاج إلى مزيد من النضج . وبدت مظاهرها فى القصة والتمثيلية ، والنقد التحليلى ، والمقالات الوصفية ، وفى الشعر السياسى والاجتماعى والقصصى والتمثيلى والوصفى إلى غير ذلك . — وأخذنا ننظر إلى الشعر نظرة جديدة باعتباره حاجة نفسية للأمة . غير أن هذه النظره لاتزال فى دور الطفولة ...

ولعل السوريين أكثر تأثراً بالخيال الأوروبى من المصريين . ذلك لقرب شبههم بالأوربيين فى البيئة وجمال الطبيعة ومختلف مناظرها ، وفى كثير من العادات ، إلى غير ذلك . ولهذا ترى من بعضهم جموحاً فى التصور ، وشروداً فى التعبير ، بدافع من تأثره بالخيال الأوربى ، أبعده عن التصور الشرقى والتعبير العربى السليم ، فاختلط أمره ، ونبا تذوق شعره أو نثره ، على كثيرين .

* * *

الترجمة فى بلاد الشام :

وبمناسبة الحديث عن السوريين نذكر أن مصر سبقت الشام فى ميدان الترجمة ، واشتغلت بها مبكرة. ولما أخذ رجال الجامعة الأميركية وكلية الآباء اليسوعيين فى تعليم تلاميذهم العلوم الأوربية الحديثة ، باللغة العربية — تقربا إلى العامة ، ووسيلة لستر دعايتهم — نشطت الترجمة فى بلاد الشام نشاطاً محموداً ، وأقبل رجال الكليتين وعدد من متخرجيها ، على الترجمة ، وأهم ما ترجموه : كتب دراسية تيسر العلم للتلاميذ ، فى الطب والطبيعيات والرياضيات ، والتاريخ والجغرافية والفلك . وبين المترجمين عدد من المبشرين الأجانب أتقنوا العربية بنزولهم فى بلاد الشام وبمصاحبتهم لفصحاء أهلها . ومن المترجمين :

الدكتور كرنيليوس فانديك «١٨٩٥ م» ومن كتبه : كتاب فى مبادىء الطب البشرى ، ورسالة فى الجدرى ، وكتب فى الهندسة والجبر والفلك وغير ذلك .

والدكتور يوحنا ورتبات « ١٩٠٨ م » ومن كتبه : كتاب فى أصول التشريح ، وله غيره .

والدكتور جرج بوسط « ١٩٠٩ م » ومن كتبه : المصباح الوضاح فى صناعة الجراح ، ومبادىء النبات . وغير ذلك .

وأول عناية بذلت لترجمة الآداب ، كانت مبذولة لترجمة التوراة . وقد بكر إلى ذلك ، الأستاذ لى المستشرق الإنجليزى بمعاونة أحمد فارس الشدياق فترجماها وطبعت ترجمتها سنة ١٨٥٧م ، غير أنها لم تنتشر . ثم شمر رجال الكليتين الأمريكية واليسوعية ببيروت ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، إلى ترجمتها . فترجمها عن العبرية وغيرها ، للكلية الأمريكية أحد المبشرين الأميركان المستشرق الدكتور « عالى سميث » بمعاونة بطرس البستانى وناصيف اليازجى ، وغيرهما ثم أتمها الدكتور فانديك السابق ذكره ، وعرفت هذه الترجمة «بالتوراة الأمريكية » . وترجمها عن العبرية واليونانية وغيرها ، للكلية اليسوعية عدد من آباء الكلية بمعونة الشيخ إبراهيم اليازجى ، وعرفت هذه الترجمة « بالتوراة اليسوعية » .

وإليك نماذج من النثر والشعر المترجمين :

١ — كتب أحمد فتحي زغلول في كتابه « روح الاجتماع » المترجم عن « جوستاف لوبون » فصلا تحت عنوان : « زمن الجموع » قال فيه :

« يخال الناظر فى أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الأمم ، مثل سقوط الدول الرومانية ، وقيام الدولة العربية ، ناشئة عن تطور سياسى عظيم ، كإغارة الأمم بعضها على بعض ، أو سقوط الأسر الحاكمة ، وهكذا .

لكن بعد إنعام النظر فى هذه الحوادث ، يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة فى الغالب — سبباً حقيقياً ، هو التغير الكلى فى أفكار تلك الأمم ، فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمها وعنفها : وإنما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار ، الذى يؤدى إلى تغير حال الأمم المدنية ، يحصل فى الأفكار والتصورات والمعتقدات » ... الخ .

٢ — وكتب الدكتور منصور فهمى فى رواية « هيرمان ، ودوروتيا » المترجمة عن « جوتى » الشاعر الألمانى ، فى « النشيد الأول » ، من حديث رب البيت لزوجته ، يذكر لها حال مهاجرى الألمان من شاطىء الرين الغربى ، إلى شاطئه الشرقى ، فراراً من أعدائهم . قال :

« كلا ! ما عهدت السوق والشوارع ، كذلك خالية كأن المدينة قد هجرت ، أو قد قبرت ، وفى ظنى ، لا يتجاوز من بقى من سكانها ، الخمسين عدا ، وما الذى لا يفعله حب الاستطلاع ؟ هكذا يسعى كل ويخف ، ليرى ما فى ممر هؤلاء المهاجرين المنكوبين ، من مشهد حزين ! ومع أن الوصول إلى الطريق التى سيمرون بها ، يقتضى مسير نحو الساعة فالناس يهرعون فوق رماد الهجير المحرق.

أما أنا ! فلن أبرح مكانى لأرى نكد هؤلاء المساكين ، الذين ينزحون إلينا على مضض ! من الشاطىء الآخر الجميل لنهر الرين ، وقد أنقذوا معهم ما استطاعوا إنقاذه ، ويهيمون خلال تلك البقاع السعيدة ، وفى حنايا وادينا الخصيب .

لك الحمد يا زوجتى ؛ وإنها لأمارة واضحة من شمائل طيبتك أن ترسلى ولدنا لكى يوزع على هؤلاء المنكوبين ، خرقنا القديمة ، والأطعمة و الأشربة ؛ وكان العطاء حقاً على الموسرين » الخ .

٣ — وترجم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « ساعات بين الكتب » قصيدة لتوماس هاردى الشاعر الإنجليزى ، يصف مناظر الطبيعة فى الصباح الباكر ، فمنها :

« وإذا طلع الفجر ، ونظرت إلى الطبيعة المصبحة ، جدولا وحقلا وقطيعاً وشجراً وموشحاً ، رأيت كأنما هى أطفال مكبوحة على مقاعد الدراسة : تشخص إلى ! وكأنما قد طالت عليها ثقلة الأستاذ فى أساليبه فبردت حرارتها ، ورانت على وجوهها السآمة والضجر والإعياء ، وكأنما تهمس بسؤال كان مسموعاً ، ثم تخافت ، حتى تنبس به الشفاه : عجباً لا انقضاء له أبد الزمان ، ما بالنا نحن قائمين حيث نقوم فى هذا المكان ؟ » الخ .

٤ — من شعر « إلياذة هوميروس » التى ترجمها سليمان البستانى شعراً عربياً، قال فى مفتتحها ، يذكر الخلاف الذى نشب بين « أخيل » و « أتريذ » « أغاممنون » بطلى الإغريق ، وقت حصارهم « طروادة » :

ربة الشعر عن « أخيل بن فيلا » نشدينا واروى احتداما وبيلا
ذاك كيد عم « الأخاء » بلاه فكرام النفوس ألفت أفولا
« لآذيس » أنفذن منحدرات وفرى الطير والكلاب القيولا
ثم ماشاء «زفس» من يوم شبت فتنة بالشقاق تنذر أولى
بين « أتريذ » سيد القوم ثارت بصلاها والمجتبى « آخيلا »الخ...

* * *

٥ — ومن رباعيات « الخيام » للشاعر الفارسى . التى ترجمها محمد السباعى شعراً عربياً . قال فى مفتتح النشيد الأول :

غرد الطير فنبه من نعس وأدر كأسك فالعيش خلس
سل سيف الصبح من غمد الغلس وانبرى فى الشرق رام أرسلا
أسهم الأنوار فى هام القلاع

صاح بى فى النوم طيف : هاتها نملأ الأكواب من ياقوتها
قبلما تنضب فى كاساتها خمرة الروح وترتد إلى
منبع بالغيب مجهول البقاع

المستشرقون

١ — الاستشراق هو انصراف بعض علماء الإفرنج إلى دراسة الشرق وأحوال دوله وتاريخ شعوبه وأديان أممه ولغاتها، وما لهذه الأمم من آداب وعلوم وعادات وتقاليد فى غابر أيامها وحاضرها .

٢ — وقد اتجهت عناية الغربيين إلى هذه الدراسة منذ عصور بعيدة ، وبخاصة حينما كانت أوربا تضرب فى ظلام دامس لجهل شعوبها واستبداد حكامها . وحينما رأى اليقظون من شبابها والأحرار من رجالها ، ازدهار الحياة ببلاد الأندلس بفضل دولة بنى أمية القرطبية بها ، وقيامها بنشر حضارة العرب وآداب الإسلام بين ربوعها ، وإتاحة وسائل الثقافة لمن شاء من أبنائها والوافدين عليها .

لهذا قصد بلاد الأندلس بعض الأوربيين ، فنهلوا من مناهلها واستناروا بأضوائها، ثم عادوا إلى أممهم يوقظونها من غفلتها . ويمحون ظلام جهلها بما أفادوا من نور العلم والحضارة . وترجموا إلى اللاتينية كثيراً من كتب العربية ، سواء منها ما ألفه العرب أو ترجموه عن اليونانية فى الطب والهندسة والحساب والفلك والكيمياء والمنطق والفلسفة وغيرها .

فكانت هذه الأهداف أولى الأسباب التى أدت إلى الاستشراق فى ذلك الزمن المبكر . وكان العرب وآدابهم فى طليعة الموضوعات التى عنى المستشرقون بدراستها والنقل عنها .

٣ — واطردت هذه العناية ، واستمر هذا الإقبال من المستشرقين ، حتى بعد زوال العرب بالأندلس ، وذلك بدافع اطراد يقظة الشعوب الأوربية ، ورغبة رواد الفكر من بنيها فى التزود من العلوم والآداب ، لما لذلك من أثر فى تنبيه أممهم وتبصيرها بالحياة الصحيحة ، ثم بدافع الرغبة فى النزوح إلى بلاد الشرق ، للرحلة والتفرج أو البحث والدراسة ، أو للاتجار وتبادل السلع . فكانت هذه الأمور فى طليعة الأسباب التى أذكت رغبة المستشرقين فى الاستشراق والتخصص له، ودفعت بعض الدول إلى فتح المعاهد الدراسية لتعليم الراغبين فى دراسة الشرق وأحوال أممه وأديانها ولغاتها وتاريخها وما إلى ذلك . كما أنشأت المطابع بالحروف العربية للمعاونة فى نشر الثقافة العربية القديمة .

ويبدو أن تأخر الشرق ـ قبل نهضته الأخيرة ـ أغرى أمم أوربا بغزوه واستعماره واستغلال موارده، وبالتبشير بالمسيحية بين ربوعه. فكان هذان العاملان من أقوى الأسباب التى أدت إلى نشاط الاستشراق وتنظيمه. لما لدراسة الشرق من أثر فى كشف ثغراته ومواضع ضعفه، مما يعين المستعمرين والمبشرين على بلوغ أهدافهم منه. ولا ننسى أن رجال الدين كانوا فى مقدمة المبادرين إلى الاستشراق.

٤ — ومهما يكن من شىء فقد قوى الاستشراق وتعددت وجهاته وامتدت آفاقه، حتى لم تعد الدراسة فيه مقصورة على الأمة العربية وحدها. ولكنها مع ذلك ظلت أهم الأمم التى يعنى المستشرقون بدراسة أحوالها.

وقد أفاد العرب والمسلمون، بلا ريب، من وراء هذه العناية فوائد لا تحصى منها:

(ا) أن المستشرقين نشروا أخبارهم وأحوال مدنيتهم وعادات مجتمعاتهم وأنباء دينهم وآداب لغتهم واتجاهات ثقافاتهم، بين الأمم الأوربية، كما ترجموا كثيراً من كتبهم إلى لغات شعوبهم، وفى مقدمة هذه الكتب: القرآن الكريم وكتب الحديث، وكتب علوم الكلام والفقه.

ولا ريب أن لذلك أثراً فى تنبيه الرأى العام الأوربى إلى حقيقة العرب ودينهم ومدنيتهم، وتصحيح فكرة الشعوب الأوربية عن العرب. ويستتبع ذلك حسن تقديرهم.

(ب) أنهم بحثوا عن نفائس المخطوطات العربية فى اللغة وفى مختلف العلوم والفنون، وقاموا بدراستها وتحقيق نصوصها ومضاهاة نسخها وضبط عباراتها ومفرداتها، ثم طبعها ونشرها مع تزويدها بالتعليقات القيمة، والفهارس النافعة التى تنظم الانتفاع بها وتسهله، كفهارس الأعلام والأماكن والموضوعات.

وكان هذا النظام الدقيق الذى اتبعوه فى نشر المخطوطات نموذجا رائعاً للإخراج العلمى، فكان قدوة للباحثين من العرب، اقتدوا بها.

(ح) ولم يقتصر المستشرقون على الدراسة وطبع المخطوطات: بل ألفوا المؤلفات النافعة وسجلوا فيها ملاحظاتهم القيمة التى بدت لهم أثناء الدراسة: فخدموا

الشرق بذلك أجل الخدمات . وأنصفوا آدابه وأعلامه . ولا يمنعنا هذا أن نذكر أن بعضهم أعماه التعصب وملكه الهوى فأساء إلى الشرقيين وأديانهم ولا سيما العرب والإسلام ، ونشر عنهم فى مؤلفاته أباطيل هم منها براء .

(ى) هذا إلى أن البلاد العربية — ولا سيما مصر — رأت أن تستعين فى نهضتها الحاضرة بكبار المستشرقين ، فسارت منذ أمد ، على سياسة استقدامهم للاستفادة من علمهم وخبرتهم ، واستخدامهم فى بعض كليات الجامعات المصرية وفى المجمع اللغوى .

٥ — والآن نشير لك إلى بعض أعلام المستشرقين الذين كانت لهم يد طولى على العرب والمسلمين بنشر آدابهما فمنهم حسب وفياتهم :

(ا) سلفستر دى ساسى :

مستشرق فرنسى : تعلم العربية والفارسية ، ونشر كليلة ودمنة ، وألفية ابن مالك ، ورحلة عبد اللطيف البغدادى ، وجملة من المنتخبات العربية سماها « الأنيس المفيد للطالب المستفيد » . وترجم كتباً عربية إلى لغته ، غير بحوثه الكثيرة . وتوفى عام ١٨٣٨م .

(ب) إتيان كترمير :

فرنسى أيضاً كان تلميذاً لدى سياسى وأتقن العربية وبعض اللغات الشرقية . ونشر مقدمة ابن خلدون ومنتخبات من أمثال الميدانى : وكتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . وترجم إلى لغته أجزاء من سلوك المقريزى . هذا عدا بحوثه الكثيرة . وتوفى عام ١٨٥٧م .

(ح) فرايتاج :

ألمانى تتلمذ لدى سياسى . ونشر كتبا عربية عدة منها : حماسة أبى تمام مع شرح التبريزى ، وزودها بترجمة لها لاتينية . وفاكهة الخلفاء ، والمنتخب من تاريخ حلب . وأمثال الميدانى . وألف معجما بالعربية واللاتينية وكتب بحوثاً بالألمانية عن العرب ولغتهم ، وتوفى عام ١٨٦١م .

(د) دوزى:

مستشرق هولندى ، نشر كتباً عربية عدة . ووضع معجما عربياً يعتبر تذييلا للمعجمات العربية إذ جمع فيه من الألفاظ العربية مالم يرد فى معجماتها . وتوفى عام ١٨٨٣م .

(هـ) نلدكى :

مستشرق ألمـانى : له بحوث فى الشعر الجاهلى ، والمعلقات الخمس ، واللغات السامية . وألف تاريخ الفرس والعرب فى عهد الساسانيين وتاريخ القرآن . وتاريخ عروة بن الورد . وتوفى عام ١٩٣١م .

(و) جلتزير :

مستشرق مجرى . له مؤلفات كثيرة عن الإسلام واللغة العربية وضعهاباللغة الألمـانية ، ومنها تاريخ التشريع الإسلامى . وبحث فى الحديث النبوى وبحث فى اداب البحث والمناظرة عند الشيعة . وغير ذلك .

هذا وقد تعاون عدد من المستشرقين وأصدروا « دائرة المعارف الإسلامية » باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمـانية ، ورتبوا معلوماتها ترتيباً هجائياً كترتيب المعجمات . وتحدثوا فيها عن تقويم البلدان الإسلامية وتاريخها ودينها وآدابها وأعلام رجالها ، ويقع ذلك فى آلاف الصفحات .

ومما يذكر أن المجمع اللغوى حينما أنشىء عام ١٩٣٢م عين عددا من أجلاء المستشرقين أعضاء عاملين بين أعضائه ، ومنهم الأستاذ جب أستاذ الدراسات الشرقية بمدرسة لندن ، والدكتور فيشر الأستاذ بجامعة ليبزج . الأستاذ نلينو بجامعة روما . والأستاذ ماسينيون بجامعة فرنسا والأستاذ ليتمان تيبتجن بألمـانيا .

ومن يتصفح تاريخ المجمع منذ إنشائه حتى اليوم ، ويتصفح مجلته يرى جهوداً محمودة ومشاركة طيبة لهؤلاء المستشرقين الأعلام .

الشـــعر

تمهيـــد

ودع العصر العثمانى ، والشعر لم يعد فيه إلا رمق يسير ، وكأسه خاوية إلا من ثمالة الثمالة : ولم يكن لمجىء الحملة الفرنسية ، ولا لقيام محمد على بالأمر فى البلاد أثر يذكر فى تقدمه ونشاط أهله . وذلك لأن الحملة — فضلا عن أنها أجنبية — كانت عسكرية وغازية فلا تهتم بالأدب العربى فى كثير ولا قليل . وكان محمد على تركيا وأميا ، لايحل عنده الشعر العربى محل القبول ، ودولته فى غير حاجة إليه ، بل وإلى الأدب العربى جملة .

وكان من شعراء هذه الفتره ، السيد إسماعيل الخشاب « ١٨١٥ م » ، الذى كان يتكسب بالشهادة أمام المحاكم . والشيخ حسن العطار « ١٨٣٤ م » أحد شيوخ الأزهر ، والسيد على الدرويش « ١٨٥٣ م » ، ثم الساعاتى المصرى « ١٨٨٠ م » .

ودار الشعر حول المدح والرثاء والوصف ، والغزل ووصف الخمر والتاريخ الشعرى . وأكثره مصطنع غير صادر عن عاطفة ولا مزاولة . ومعانيه مسبوقة معادة ، وعبارته ركيكة قريبة من عبارات العامة .

أسباب نشاط الشعر :

ومنذ عصر إسماعيل ، صادف الشعر — مع تتابع الأيام — جملة من الأسباب أخذت تفسح له سبيل اليقظة والنشاط والبعث والتجديد . نذكر منها ما يلى :

١ — انتشار التعليم ، وقد كان لذلك أفضل الأثر فى تنبيه النفوس والخواطر وترقية العواطف والأحاسيس وإيقاظ الشاعرية ، وتوسع المجال أمام الشاعر فى اختيار أغراضه وتنويعها ، وتزويده بطوائف حسنة من المعانى .

٢ — وأخص ما نشير إليه من ألوان التعليم ومواده الدراسية ، دروس

الأدب وتاريخه ونقده ، وبخاصة مايتصل من ذلك بالشعر ، قديمه وحديثه ، عربيه وأعجميه . وقد برزت الآداب العربية بين مواد الدراسة فى الأزهر ودار العلوم منذ زمن بعيد ، ثم برزت فى كليات الآداب بالجامعات المصرية ، تلك الكليات التى لها أفضل الأثر فى تدريس الآداب الأوروبية شعرها ونثرها .

٣ — العناية بالترجمة ، وبخاصة ترجمة الآداب الأجنبيه . وقد تحدثنا فيما سبق عن الأدوار التى مرت بها الترجمة ، وعن أثرها العظيم فى الكتابة والشعر .

٤ — طبع دواوين الشعراء السابقين ، وبخاصة المجيدون منهم كالمتنبي والبحترى وأبى العلاء . ويعتبر هذا العمل فى مقدمة الأسباب التى عاونت على نهضة الشعر . فما اطلع شعراؤنا على شعر أسلافهم حتى هبوا يقلدون بهم ويحاكونهم ويتخذون منهم نماذج عليا يسعون إلى بلوغها . وانطبع ذوق كثير منهم بطابعهم حتى حاكوهم غرضا وأسلوباً ومعنى . حتى أصبح لبعضهم دواوين لا تقل جودة عن دواوين القدماء . . .

وكذلك طبع كثير من كتب الأدب العربى القديم ، وكتب النقد والبلاغة . كالعقد الفريد والكامل للمبرد ، والمستطرف . ومثل أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والعمدة .

٥ — ظهور أفذاذ من الشعراء كانوا بأنفسهم نماذج حية لمن يعاصرهم أو يتتلمذ لهم من الشعراء ، وأفضل مثل لذلك ، البارودى ، ومن بعده إسماعيل صبرى ، وفيه يقول أمير الشعراء شوقى فى قصيدة رثائه يذكر أيامه :

أيام أمرح فى غبارك ناهجا   نهج المهار على غبار خصاف

ويقول حافظ فى نفس المعنى :

فكنا الجداول نروى الظماء   ظماء العقول وكنت النهر

٦ — انتعاش الروح الأدبية بدافع تشجيع بعض ولاة مصر للشعراء والأدباء . وهو تشجيع فردى ولم يكن سياسة مرسومة متبعة من شأنها أن تجذب بضبع الشعراء إلى ما نرجوه لهم من سمو وجودة وسعة إنتاج — ومن ذلك ما يروى عن الشيخين الشاعرين : السيد على أبى النصر ، وعلى الليثى

من أنهما كانا محبوبين أثيرين لدى الخديو إسماعيل وابنه توفيق ، حتى لقب الشيخ الليثي بشاعر الخديو أيام إسماعيل . وكذلك نشأ شوقى فى بيت إسماعيل ووظف فى ديوان توفيق ، ولقب بشاعر الأمير فى عهد عباس الثانى وقال عن نفسه مفتخراً :

شاعر العزيز وما   بالقليل ذا اللقب

٧ — الثورات الفكرية والسياسية ، وتفشى النزعات الوطنية الأصيلة التى تتمسك بحريه البلاد واستقلالها ، وطرد المستعمر وكراهيته . وكذلك الانقلابات الاجتماعية العنيفة التى شاهدتها البلاد وتشاهدها حتى اليوم ، والتى من غاياتها نشر العدالة الاجتماعية بين الطبقات ، والتسوية بين الكافة ، ورفع منزلة الطبقات الدنيا ومنحها حقوقها الطبيعية ، إلى غير ذلك ، مما يولد فى النفوس الشاعرة طاقات جديدة من الأغراض والأفكار والمعانى والتصورات .

وتتمثل هذه الثورات والانقلابات بل والحروب ، على التوالى ، فى الثورة العرابية وفى قيام مصطفى كامل ومحمد فريد ورجال حزبهما بمكافحة الاحتلال الانجليزى ، وهبوب الثورة المصرية عام ١٩١٩ م بقيادة سعد زغلول ، لنفس الغرض ، وقد تلا هذه الثورة ميلاد الحياة النيابية وتعدد الأحزاب . ثم الثورة المصرية الكبرى عام ١٩٥٢ م بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر ، وما أعقبها من القضاء على الملكية الفاسدة ، والإقطاع وألوان الاستغلال ، ومن طرد المستعمر والتمسك بسيادة البلاد ، ومن تأميم القناة وما أدى إليه من العدوان الثلاثى .

هذه بعض الأسباب التى أدت إلى نهضة الشعر ويقظة الشعراء ، حتى أصبح لبعضهم مواقف وأبيات تنم عن الشاعرية الفنية الصادقة التى ترتاح إليها النفوس ، والتى تعبر عن أحاسيس الجماهير المصرية وتسجل ومضاتها العاطفية ، ونبضاتها الوطنية ، — ولو إلى حد — وترى بعض ذلك ماثلا فى حماسيات البارودى ونفسيات صبرى ، واجتماعيات حافظ وعبد المطلب ، وسياسيات شوقى وتمثيلياته ، وفى رمزيات على محمود طه ، وفى غزليات مطران القصصية ووصفياته التحليلية .

وسنلمس فيما سنسوقه من النماذج ما يوضح لنا أن الشعراء مشوا شوطا — إن لم يكن أشواطا — فى سبيل البعث والتجديد .

معوقات نهوض الشعر :

غير أننا ، مع هذا ، نشير إلى أن الشعر لا يزال فى خطوه متعثرا ، أو على الأقل ، لا يزال أبطأ سيراً إلى الارتقاء والتقدم والتجديد ، بالنسبة إلى النثر الذى شأه وسبقه وأصبح أفضل منه قدرة ، وأجل خطاً فى سبيل أداء عمله . ويحس بعض الشعراء بهذا التقدم الوئيد ، وبقصور الشعر عن مسايرة النهضة العامة الحاضرة وركونه إلى القديم والتقليد ، ويقول حافظ ابراهيم من قصيدته فى تكريم أمير الشعراء شوقى :

ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعة　　بهند ودعد والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا مواقفا　　بسقط اللوى والرقمين ولعلع
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها　　يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيرا وأينقا　　متى يعيها الإيجاف فى البيد تظلع
فأصبح لا يرضى البخار مطية　　ولا السلك فى تياره المتدفع
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل　　نغنى بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى　　لشيء جديد حاضر النفع ممتع

ويرجع بعض النقاد أسباب هذا البطء إلى أسباب منها ما يلى :

١ — ضعف ثقافة الشعراء وقلة محصولهم العلمى والأدبى . والحق أن كثيراً من ناشئة شعرائنا قليلو المحصول ، وبخاصة من الأدب العربى الصميم . أما فحولهم من أمثال البارودى وصبرى وحفنى ناصف وشوقى وحافظ وعبد المطلب والجارم وعلى محمود طه والعقاد ، فإن الطعن فى ثقافتهم جرأة على الواقع .

٢ — جمودهم على القديم ، ومعنى ذلك أن شعراءنا لما اطلعوا على الشعر

القديم — بعد هذا الانقطاع الواسع المدى بين شعراء مصر وبينه — راعهم بتعدد أغراضه وسمو معانيه وقوة أساليبه وجزالة تراكيبه . ولم تكن لديهم من ذلك كله بضاعة ، فعكفوا على محاكاة القديم وتقليده ، وكانت قصارى مجيدهم أن يعارض قصيدة ما من القصائد القديمة ، أو يصب شعره على قالبها ، فإذا وصل من ذلك إلى ما يبغى ، كان هذا هو غايته وحماداه ، ورضيت به نفسه وقنع خاطره . ولقد صار من السهل اليسير أن نشبه أحدهم بشاعر من القدامى ، لما بين الشاعرين من الشبه القوى فى المنازع الشعرية وأساليبها . فالبارودى مثلا يشبه أبا تمام ، وعبد المطلب يشبه حسانا ، وشوقى يشبه البحترى أو المتنبي وهكذا .

ولتأثر شعرائنا بالقدامى كثرت معارضاتهم — كما أشرنا — لبعض قصائدهم ، وانتشر التنظير بينهم ، ويتضح ذلك فى قصيدة «كشف الغمة» للبارودى و «نهج البردة» لأحمد شوقى ، يعارضان بها «بردة» البوصيرى . وفى معارضة اسماعيل صبرى وولى الدين يكن ، وأحمد شوقى لقصيدة «ياليل الصب متى غده» للحصرى . وفى سينية شوقى الأندلسية فهى معارضة لسينية البحترى فى وصف إيوان كسرى . وفى نونية «شوقى التى أولها : «يا نائح الطلح أشباه عوادينا» ففيها تنظير لقصيدة ابن زيدون «أضحى التنائى بديلا من تدانينا» وهلم جرا .

ولا ريب أن وقوف شعرائنا عند أمل التقليد يعوقهم عن التجديد ، أو على الأقل يعوقهم عن التجديد الكثير الممتع .

٣ — وقف الشعر على المناسبات ، ونعنى بالمناسبات ما يخرج عن النطاق العاطفى للشاعر . وقد جعل بعض الشعراء شعرهم شيئا مما تزدان به الحفلات ، وصاروا ينظمونه متى طلب منهم ، فى حفلة تكريم أو تأبين أو نحوهما . لا بدافع نفسى ، ولا استجابة لوحى ضمير ، ولا أداء لرسالة وطنية تحفزهم إلى أدائها حوادث بلادهم ، ولا إفصاحاً عن نزعة عامة تسعى إلى تحقيق غايات قومية نبيلة .

ولهذا السبب نصيب كبير من الوجاهة والصواب . ولكننا نعتقد أن

الشعراء أخذوا يتحللون منه ، ويخرجون عن نطاقه . وأصبحت المناسبات الوطنية العامة فى مقدمة الحوافز إلى نظم الشعر . وتجلى ذلك بوضوح فى حوادث فلسطين الدامية ، وفى حادثى تأميم القناة والعدوان الثلاثى .

٤ — حاجة النهضة منذ مطالعها وفى أثناء خطوها ، إلى النثر — كتابة وخطابة — دون الشعر ، فالنهضة بدأت علمية ، فهى بذلك أشد احتياجاً إلى الكتابة دون الشعر ، والترجمة انصرفت أولا إلى نقل الكتب الأوربية إلى العربية ، فاصطنعت الكتابة دون الشعر . والتقلبات الاجتماعية والثورات السياسية أشد احتياجاً إلى الخطابة والكتابة أكثر من الشعر .

إذ فظروف النهوض العلمى والنضج السياسى أحيت موات الخطابة والكتابة ، فصارتا مظهرين حيين للعلم والأدب والفكر السياسى . أما الشعر فنصيبه من ذلك قليل .

٥ — اضطرار الشاعر إلى الكدح فى الحياة لكسب قوته وقوت أسرته ، عن طريق غير طريق الشعر . فبينما نجد الكاتب يستطيع الارتزاق بسبل شتى مفتحة الأبواب كالتأليف والاشتغال بالصحافة أو الدفاع عن حزب سياسى ، أو نحو ذلك مما قد يدفع به إلى كراسى النيابة أو الوزارة . وبينما نجد الخطيب يستطيع العيش ببضاعته فيصيب من الجاه والمنزلة ما يبتغى ، إذ نجد الشاعر لا يزال حتى اليوم لا يستطيع عيش الكفاف إذا اعتمد على شعره وحده . وليست هناك جوائز سنوية رتيبة ترصدها الدولة أو تجود بها يد غنى للمجددين من الشعراء تعينهم على التفرغ لصناعتهم وإتقانها وتكفل لهم مايحتاجون إليه .

وجميع شعرائنا فى العصر الحديث كانوا — ولا يزالون — من أرباب الوظائف أو الأعمال الحرة . فالبارودى وزير . وإسماعيل صبرى وكيل للحقانية . وحفنى ناصف مفتش للغة العربية بوزارة المعارف . ومحمد عبدالمطلب مدرس ، وحافظ إبراهيم وكيل دار الكتب ، حتى شوقى كان محرراً فى ديوان الخديو . ومطران مدير دار الأوبرا ، والمازنى والعقاد صحفيان . ومحمد الأسمر

أمين بالمكتبة الأزهرية . وهكذا تستطيع أن تقول عن كثير من أحياء الشعراء ومنهم محمود غنيم ومحمود حسن اسماعيل والعوضى الوكيل ومحمد عبد الغنى حسن ، وغيرهم .

وبدهى أن سعى الشاعر فى سبيل رزقه يصرفه صرفاً كبيراً جداً عن الاهتمام بشعره وتجويده . ونحن لا ندعو إلى التكسب بالشعر ، وإنما ندعو إلى تقدير الشعراء تقديراً يعصمهم من الحاجة ، ويدفع جميع طاقاتهم إلى المشاركة الكاملة فى الحياة الحاضرة ، وفى إنهاض الأمة فى شتى مرافقها .

٦ — عقم التشجيع . وحقاً نال بعض الشعراء شيئا من التشجيع والتقدير المادى أو الأدبى . ولكن أغلب الظن أن ذلك ليس موجها إلى الشعر وحده دون نظر إلى عامل آخر كعامل الصداقة أو الاشتراك فى الرأى السياسى . — هذا إلى ضعف استجابة الجماهير للشعراء ولو أعجبوا بهم .

على أننا نرجو أن يجد الشعر فى ظل الجمهورية التشجيع والتقدير المناسبين له باعتباره أحد الحوافز الهامة التى تدفع الأمة نحو أهدافها ، بل وتجدد لها هذه الأهداف وترسم لها الطريق إليها .

ونحب أن نسجل أن هذا اللون من التشجيع قد أخذ طريقه نحو الظهور ورصدت وزارة المعارف ومجمعها اللغوى جوائز للشعر . ونال الأستاذ محمود غنيم إحداها ولأمر ما سمى ديوانه « صرخة فى واد » .

٧ — القيود الاجتماعية : والشاعر فى حاجة ماسة إلى جو مليء بالحرية التامة ، لا يستجيب فيه إلا لوحى شاعريته . والمجتمع المصرى حرم منذ زمن بعيد ، الحرية الواسعة التى تعاون العاطفة الجياشة على الانطلاق . كما حرم أيضاً تقديم الغذاء الروحى السليم الذى يعاون على سلامة الخيال الأدبى وسعته . وذلك لتتابع الدول الأجنبية الحاكمة عليها ، واستبدادها واستغلالها موارد الشعب وأرضه ، وحرمانه حكم نفسه بنفسه ، حتى خيم اليأس على العواطف

فكبتها ، وعلى الأذهان فحبسها . ولهذا عقمت البيئة المصرية عن أن تلد الشاعر العبقرى المكتمل — والشعر وليد البيئة ومؤثراتها — .

على أن القوى تضافرت وتتضافر على إنضاج الروح المعنوية الصحيحة وتقوية الحياة الروحيه للأمة ، وهذا مما يبشر بقرب الظفر بهذا الشاعر المنتظر .

ولا بد لنا من القول بمناسبة ذكر القيود الاجتماعية ، أن الجماهير المصرية اليوم تتأبى على سماع أنواع عدة من الشعر ، كان لها صولة فى بعض العصور الماضية ، ومن هذه الأنواع : الغزل والمدح والهجاء والفخر بالنفس . فلا نكاد نجد شاعراً معاصراً تنشر له الصحف شعراً فى هذه الأنواع ، مراعاة لأذواق الجماهير ، وهذا ضرب من القيود الاجتماعية فرض على الشعراء . — والغريب أن هذه الأذواق لا تتأبى على سماع هذه الأنواع إذا كانت أغانى أو أناشيد .

على أننا نعرف كثيراً من الشعراء يجيدون هذه الفنون ويتبادلونها فيما بينهم دعابة ومجانة وتسلية ، ولكنهم لا ينشرونها إلا نادرا .

أغراض الشعر

تنوعت أغراض الشعر فى العصر الحديث بتنوع الظروف والملابسات فى كل مرحلة من مراحل هذا العصر وإليكها بالتتابع مع نماذجها :

أيام الحملة الفرنسية :

١ — كانت أغراض الشعر تدور فى أول العصر حول الإخوانيات مثل مدح صديق أو رثاء فقيد ، وكذلك حول الغزل المتكلف ، ووصف الخمر وصفاً تقليدياً . ويتمثل شعر هذه الفترة فى نظم الخشاب . وقد قال يمدح الشيخ الأمير وفيه خمريات وغزل :

أدر لى فى الربا القدحا وكن للعذل مطرحا
ونبه صاح ساقيها فضوء الصبح قد وضحا

وثغر الدهر مبتسم وشادى الورق قد صدحا
وخذها من يدى رشأ مليح قد حوى ملحا
غزال إن يلح للبد ر أو غصن النقا افتضحا
وأطرب سمعيك بما به أستاذنا امتدحا
محمد الأمير المر تجى كم آملا منحا

٢ — ثم تأثر الشعر تأثراً يسيراً بالحركة العلمية — فى عهد محمد على وبعده بقليل — فازدادت أغراضه وتناولت مدح الأمراء ووصف بعض المحسوسات مثل وصف بركة الأزبكية للشيخ العطار . والعتاب والشكر والغزل ، وتسجيل الحوادث والتاريخ الشعرى .

ويتمثل شعر هذه الفترة فى نظم الشيخ حسن العطار ، وعلى الدرويش وشهاب الدين المكى ومحمود صفوت الساعاتى .

ومما قاله السيد على الدرويش يمدح محمد على ويؤرخ مجىء الجراد فى عام ١٢٥٩ ه وبه مات بقر كثير :

يا صاح ما هذا الخبر قال : الجراد هنا ظهر
قلت : الجراد ؟ فقال إى تدرى الجراد إذا ابتدر
قلت : استعذ بالله قا ل وهل من المقضى مفر
ما كان قط بخاطر فى خاطرى هذا الخبر
جاء الجراد كأنه يتلو على البقر السور

ومنها فى المدح :

هل للخديوى مشبه فى همة أو فى سير
هل قبله رد الجرا د سواه فيما قد غبر

ومنها يؤرخ الحادث :

أرخته وصل الجرا د لمصر فى عام البقر
١٢٦ ٢٢٩ ٢٦٠ ٩٠ ١١١ ٣٣٣=١٢٥٩

٣ — ثم اتجهت النهضة نحو الأدب منذ عصر إسماعيل وتوفيق ، فتهذب المدح واتسع أفقه ، وكذلك الغزل والإخوانيات وارتقى الوصف الحسى ، مع عناية بتسجيل الحوادث . ويتمثل شعر هذه الفترة فى نظم السيد على أبى النصر وعبد الله فكرى وعلى الليثى ومصطفى نجيب ، والسيد عبد الله النديم .

ومما كتبه على السيد أبو النصر إلى بعض أصحابه فى العتاب :

حروف ودى وسائل والدمع جار وسائل
ولوعتى وشجونى تضيق عنها الرسائل
لى فى هواكم غرام طول المدى غير زائل
لما هجرتم وبانت صبابتى للعوازل
دخلت دار اصطبارى خرجت من غير طائل
فقلت للعين جودى بالمرسلات الهوامل
وقد أمرت يراعى نخط ما أنا قائل
وحبكم فى ضميرى سواه زور وباطل
ومدحكم كل وقت فرائض لا نوافل

ومما كتبه الشيخ على الليثى وقد زارته سائحة أمريكية وهو فى ضيعته فى الصف . قال مسجلا هذه الزيارة ، وفى تسجيله غزل ولوعة :

وزائرة زارت على غير موعد غريبة دار تنتحى كل مورد
تبدى لنا وقت الظهيرة نورها ونحن على روض زها بالتورد
من اللاء لم يدخلن مصر لحاجة سوى رؤية الآثار فى كل مشهد
لها فى أميريكا انتساب ودارها « بستن » إذ تعزى لمسقط مولد
فحيت وقالت — والمترجم بيننا — لنا فأذنوا نحظى بروضكم الندى
فقلنا ونور البشر أزهر بيننا على الرحب والإقبال مشكورة اليد
ودارت أحاديث التساؤل بيننا فجاءت بدر من حديث منضد

ومنها :

فقمنا وودعنا القلوب فهل درت بما نالنا عند الوداع المههد
ولولا اللقا فى مصر ما انطفأ الجوى وهذا الذى أبقى تمام التجلد

٤ - ثم ظهر البارودى فى وسط هذه الحلبة السابقة ، فكان وحيداً بينها معدوم القرين ، ونموذجا حياً رائعاً للناشئة . وما أفردناه بالذكر إلا لأن ظهوره كان طفرة فى تاريخ الشعر العربى ، ولأن مؤثرات بيئته لم تكن لتكون شاعراً على غزاره ، لولا عقريته .

وقد أجاد البارودى فى جملة أغراض من أهم أغراض الشعر ولدتها ظروفه العامة والخاصة معاً ، ومنها الحماسة والفخر ، ووصف الحروب . ووصف الصيد . والرثاء والحنين إلى الديار ، والنسيب والمثل والحكمة والمديح النبوى . وبذلك رد على الشعر العربى كثيراً من أغراضه الهامة ، كما رد عليه ديباجته القوية وتراكيبه الجزلة ، ونبذ المبتذل لدى العامة ، بل والفصيح القريب من المبتذل . ومن شعر البارودى يصف البين :

محا البين ما أبقت عيون المها منى ... وشبت ولم أقض اللبانة من سنى
عناء ويأس واشتياق وغربة ... ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن
فإن أك فارقت الديار فلى بها ... فؤاد أضلته عيون المها عنى
بعثت به يوم النوى إثر لحظه ... فأوقعه المقدار فى شرك الحسن
فهل من فتى فى الدهر يجمع بيننا ... فليس كلانا عن أخيه بمستغن
ولما وقفنا للوداع وأسلبت ... مدامعنا فوق الترائب كالمزن
أهبت بصبرى أن يعود فعزنى ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن

وقال من قصيدة يتشوق إلى مصر :

ردوا على الصبا من عصرى الخالى ... وهل يعود سواد اللمة البالى
ماض من العيش ما لاحت مخايله ... فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى
لم يدر من بات مسروراً بلذته ... أنى بنار الأسى من هجره صالى
يا غاضبين علينا هل إلى عدة ... بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم ... وساء صنع الليالى بعد إجمالى

وقال بعد عودته من منفاه بجزيرة سيلان ، وقد مر بقصر اسماعيل بالجزيرة ، يرثى أيامه الزائلة :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع   هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحدا   يأتى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكان قبل منزلة   للملك منها لوفد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ   ولا سميع إذا ناديت يستمع

٥ — ومنذ عهد البارودى حتى اليوم تزاحمت أسباب ارتقاء الشعر ونشاطه ، التى أشرنا إليها فيما سلف . فبدا النضج الذهنى والروحى الصحيح ، وظهر بعد البارودى أفذاذ من فحول الشعر كانت لهم جهود موفقة فى سبيل اتساع أغراض الشعر ، وتجاوبها مع الحوادث العامة ، ولو إلى حد . ومنهم حفنى ناصف « ١٩١٩ م » واسماعيل صبرى « ١٩٢٣ م » ومحمد عبد المطلب « ١٩٣١ م » وحافظ ابراهيم « ١٩٣٢ م » وأمير شعراء عصره أحمد شوقى « ١٩٣٢ م » وغيرهم كثيرون أمثال خليل مطران وولى الدين يكن ومصطفى صادق الرافعى وعبد الحليم المصرى ومحمد الهياوى وأحمد نسيم وأحمد محرم وعلى الجارم والمازنى وأحمد الزين وعلى محمود طه ومحمد الأسمر . عدا الأحياء المعاصرين.ومن غير المصريين معروف الرصافى ، وجميل صدقى الزهاوى، وشبلى ملاط وغيرهم .

وإليك أهم هذه الأغراض :

(ا) المدح : وتتصل به التهنئة فى مناسباته ، وكذلك الاعتذار والاستعطاف . وفارس المديح هو أحمد شوقى ، وله فى ولاة أسرة محمد على — مدائح جيدة تذكرنا بمدائح الشعراء فى الدولة العباسية وما تفرع منها . وكثيراً ما نظم فى مدح أصدقائه عظماء مصر وزعمائها . ولغيره مدائح أخرى على نمطه . ومن قول شوقى يمدح الملك فؤادا .

ياه الملوك بهذا التاج إن له   فى جوهر الشمس لا فى الماس منتسبا

وته عليهم بعرش غير ذى لدة من عهد خوفو على الماء استوىٰ عجبا
لو استطعنا لزدنا فيه قائمة ولاتخذنا له أم السها عتبا

(ب) الوصف : وقد تناول أموراً كثيرة ، وبخاصة مظاهر الطبيعة وألوان الحضارة والمخترعات الحديثة ، والآثار القديمة ومخاطبتها ، والمجالس والحفلات ، ووقائع الحياة . وحوادث الأيام ، ومرائى المدينة والريف ، والحيوان والنبات والأدوات كالقلم والدواة ، ووصف الشيب والزمان وأخلاق الناس وغير ذلك ، وهذا الباب من أروج أبواب الشعر وأكثرها نتاجاً .

وكثيراً ما مزج الشعراء فيه الأوصاف الحسية بالنفسية ، وخلطوا بين المرئيات والوجدانات ، أو استخرجوا الحكمة والمثل . ويكثر هذا فى وصف الآثار أو الحوادث المروعة — ومن الوصف قصائد شوقى فى أبى الهول ومملكة النحل ونهر النيل وآثار توت عنخ آمون وقبر نابليون والربيع . ومنه وصف القلم لعبد المطلب ، والقطار الحديدى وزلزال مسينا وحريق ميت غمر لحافظ إبراهيم ، ووصف أخلاق الناس ، والدواة والساعة لإسماعيل صبرى .

ومنه قول إسماعيل صبرى يصف أخلاق الناس فى زمانه ، وهو وصف ساخر هجائى :

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجوانب قفرا
وتفشى العقوق فى الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا
أوجه مثلما نثرت على الأجداث ورداً إن هن أبدين بشرا
وشفاه يقلن أهلا ولو أديـن ما فى الحشا لما قلن خيرا
عمرك الله هل سلام وداد ذاك أم حاول المسلم أمرا
عميت عن طريقها أم تعامت أمم فى مفاوز الجهل حيرى
غرها سعدها ومن عادة السـعد يواتى يوما ويخذل دهرا

ومنه قول محمد عبد المطلب فى وصف القلم :

إذا اهتز فى طرسه معجبا أذل شعوبا وأعلى شعوبا
فيسعد قوم به تارة وقوم به يصطلون الخطوبا
وطوراً تراه يفض الجموع وطوراً تراه يثير الحروبا
وطوراً تراه امرأ زاهيا وطوراً تراه حزينا كئيبا
وطوراً ينادى الورى سائلا وطوراً يرد عليهم مجيبا
تسير الملوك على أمره ولولاه ما كان ملك مهيبا
وتجرى العلوم على سنه فيملى على كل قلب نصيبا

ومنه قصيدة حافظ إبراهيم فى وصف زلزال مسينا الذى وقع عام ١٩٠٨ م وما جر من نكبات ، قال :

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى أمى أبى أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ـر تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهل إلى النار يمشى مستحثا تمتد منه اليدان
باحث عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وان
غصت الأرض أتخم البحر مما طوياه من هذه الأبدان

(ح) الشعر السياسى والوطنى : وهو وليد النزعات الوطنية والاتجاهات السياسية والحزبية بالبلاد وهذه النزعات — على ما عرفت — قد بدت بدواً بارزاً فى مصر فى العصر الحديث ، ولازمته من مطالعه ودرجت معه ، وتجلت منذ الثورة العرابية حتى الثورة الأخيرة ، حتى اليوم . وأكثر الحوادث التى صاحبتها وتولدت عنها كانت حوادث جماعية عامة نابعة من أعماق الشعب ومن قلبه ، فلا غرابة إن وجدنا صداها فى نفوس الشعراء وأقلامهم ، وهم من أبناء الشعب ومن صميمه ، ولهذا هتفوا هتافه وسجلوا حوادثه والتاعوا لوعته

وأبرزوا فكرته وأشعلوا جذوته . وغابت عليهم النعرة الوطنية أكثر من العصبية الحزبية ، على الرغم من أنه كانت بالبلاد أحزاب سياسية واسعة السلطان متطاحنة على الحكم والجاه حكمتها نحو ثلاثين عاماً. أما الشعراء — فى جملتهم — فقد تعالوا عن حزبيتهم وسموا إلى أفق الوطنية الواسع ، فكانوا أقرب إلى التعبير عن أحاسيس الشعب وخواطره ، وإلى الإفصاح عن غوامضه .

ونلحظ أن هذا اللون الشعرى قد صهرته حوادث البلاد الأخيرة منذ شبوب ثورة عام ١٩٥٢م وما قامت به من مكافحة الملكية الفاسدة والقضاء على ذيولها ، وعلى الأحزاب السياسيه المتهالكة والإقطاع المستغل ، ثم ما تلاها من جلاء المستعمر والتمكين للسياده المصرية والكرامه المصرية فى الداخل والخارج ، وما جرى من تأميم القناه وحوادث بورسعيد — نقول قد صهرته هذه الحوادث فتوهج ورمى بأوشابه جانباً ، وأصبح خالصاً لوجه البلاد ولوجه الوطنية الصادقة ، وامتزج إلى حد كبير بالفخر والحماسة ، وذكر الحرية والسيادة والتمسك باهدابها والدعوة إلى التضحية والفداء والحملة على الاستعمار وتسفيه المستعمرين إلى غير ذلك مما تراه ماثلا . وقد عاونت هذه الروح وهذا الإيمان بالوطن على توليد المعانى والتصورات الغريبة المبتكرة فى هذا الباب ، مما لم يلحظ فى الشعر العربى كله ، على طول عصوره .

وكما امتزج بالفخر والحماسة امتزج بمدح رجال الوطن الذى وهبوا نفوسهم لخدمته وتحقيق آماله ، وذكر حوادثهم وملابساتهم ، وكذلك برثاء المستشهدين من أبطاله فى ميادين الدفاع والشرف .

ومن رجال هذا اللون أمير الشعراء شوقى ولا سيما بعد عودته من منفاه ، وحافظ إبراهيم واحمد محرم واحمد الكاشف ومحمد الاسمر وكثير من ناشئة الشباب .

ومن قصيدة اشوقى يهنىء بها الزعيم سعد زغلول بنجاته من محاولة اغتياله ، ويذكر قناة السويس وصلة مصر بالسودان :

ويا سعد أنت أمين البلاد قد امتلأت منك أيمانها
ولن ترتضى أن تقد القناة ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصباح وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه كما تمم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه عشيرة مصر وجيرانها ... الخ

ومن قصيدة طلية للشاعر المعاصر محمد الجيار بعنوان « مهرجان الضياء » بمناسبة قرب انتهاء انسحاب الأعداء الثلاثة من بور سعيد إثر العدوان ، قال :

زغردى بالضياء يا شعل النصر فهذا المساء عيد الشعوب
رددى رددى هتاف الملايين ولكن بنبضك المشبوب
عدت يانور تكشف القمم الشماء فى مشرق انتصار عجيب
يوم حار الطغاة أنى يفرون وقد لفهم ذراع اللهيب
إنما الموت نوبة المستبدين إذا دنسوا الثرى بالذنوب
عدت يانور تكشف الأعين اليقظى طوت بالضياء أخفى الدروب
عدت يا نور مثلما انبثق الإشعاع من أول الزمان الرهيب
فيك سر الميلاد للشمس لما نورت كوننا بسر اللهيب
فيك دقات معبد غامض الأجراس تأتى من خلف أفق رهيب
فيك إيماءة العيون إلى الله وضوء ابتسامة فى القلوب ... الخ

ومن قصيدة لمحمد الأسمر بعنوان « إليهم وإلينا » يخاطب المستعمرين :

خذوا بالمساواة التى قلتم بها فذلك أولى بالكريم المسالم
وليس عظيم الناس آكل غيره على رسلكم هذا عظيم الضراغم
ولكن عظيم الناس من عاش صادقاً برىء سنان الرمح عف الصوارم

مضت حقبة والشرق يحمل عبئكم   فلا تجعلوه دائماً للمغارم
ولا تجعلوا بعض الأنام مطية   لأغراضكم فالناس غير البهائم
وما شب نار البغض والحرب بيننا   سوى ظهر مظلوم ومهماز ظالم
شددتم بكف الشرق فى الحرب كفكم   فلا تجعلوها بعدها كف لاطم
دعوه يصارحكم بمكتوم صدره   فثائر بركان ولا صدر كاتم ... الخ

(د) الشعر الاجتماعى : وهو الذى يعرض لوصف حالة عامة فى المجتمع ويبين أدواءها ويدعو إلى إصلاحها ، فهو شقيق النثر الاجتماعى. وقد راج هذا اللون الشعرى أيضاً ، فى العصر الحديث ، تحت تأثير تفشي الحضارة الأوروبية والمدنية الحديثة بالبلاد المصرية وغيرها من بلاد الشرق ، وما فى هذه الحضارة والمدنية من تناقض مع عادات المجتمع الشرقى وتقاليده ، وانقسام الرأى تبعاً لهذا بين المجددين والمقلدين . ولذلك تناول هذا الغرض : تعليم البنت والسفور والحجاب ، ومشاكل التعليم ، وحركات العمال ، ويتصل به وصف الحوادث الاجتماعيـة الهامة والظاهرات الجـديدة فى المجتمع المصرى . ومثال ذلك : انتحار الطلبة إثر ظهور نتائج الامتحانات . ووصف المعلم وما يعانيه فى أداء عمله من المشقات وتفاهة ما يناله من الجزاء ، والموازنات بين حياة الريف والحاضرة . ووصف الفتنة بين الأقباط والمسلمين . ووصف المؤسسات النافعة الحديثة كمصرف مصر ، أو الصحف . وغير ذلك .

ومنه قول محمد عبد المطلب يصف حال المعلم فى مصر من قصيدة :

بنى مصر ما بال المعلم كاسفا   يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
سبيل النبيين الكرام سبيله   يعم به الدنيا صلاحا فتقمر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعبا   تنام حواليه النجوم ويسهر
سلوا عنه عينا قرح السهد جفنها   يخط عليها فى الظلام ويسطر

سلوا عنه جسما بات بالسقم ناحلا   فلا البرء مأمول ولا هو يعذر
سلوا عنه أسفاراً قضى الليل بينها   غريبا عن الدنيا وأهلوه حضر
سلوا عنه قلبا بات يخفق رحمة   على فتية من حوله تتضور
يروعه صرف الليالى عليهم   وعات حواليهم من البؤس يزأر

ومنه قول شوقى من قصيده بعنوان « انتحار الطلبة » :

ناشىء فى الورد من أيامه   حسبه الله أبالورد عثر
سدد السهم إلى صدر الصبا   ورماه فى حواشيه الغرر
بيد لا تعرف الشر ولا   صلحت إلا لتلهو بالأكر
بسطت للسم والحبل وما   بسطت للكأس يوما والوتر
غفر الله له ما ضره   لو قضى من لذة العيش الوطر
لم يمتع من صبا أيامه   ولياليه أصيل وسحر
يتمنى الشيخ منه ساعة   بحجاب السمع أو نور البصر
ليس فى الجنة مايشبهه   خفة فى الظل أو طيب قصر
فصبا الخلد كثير دائم   وصبا الدنيا عزيز مختصر

(هـ) الرثاء : وقد نشط هذا الغرض الشعرى نشاطاً ملحوظا ، فى العصر الحديث . وهو وإن كان غرضاً شخصياً أو إخوانيا فيه التفجع واللوعة ، نراه قد خرج عن نطاق الإخوانيات ، فقددعت إليه دواع أخرى كأن يكون الفقيد أديبا بارعاً أو عالماً فذاً أو مواطناً مقداما أو زعيماً مضحياً أوفدائياً مستشهداًأو نحو ذلك . وكثيراً ماتقام من أجل سماع قصائدالرثاء وكلماته حفلات التأبين والذكرى فينشر الشعراء مناقب المتوفى فى شعرهم . وكثيراً مايمتزج بشعر الوطنية أو الشعر الحماسى أوالحكم والأمثال. ومن حفلات التأبين التى شاهدناها حفلات تأبين مصطفى كامل السنوية ، وحفلات تأبين سعد زغلول . والشاعر الكبير

إسماعيل صبرى عام ١٩٢٣ م وقد تبارى فى رثائه كل من شوقى وحافظ ومحمد عبد المطلب وعلى الجارم وخليل مطران وغيرهم .

وبما قاله شوقى فى إسماعيل صبرى :

أجل وإن طال الزمان موافى أخلى يديك من الخليل الوافى
داع إلى حق أهاب بخاشع لبس النذير على هدى وعفاف
جلل من الأرزاء فى أمثاله هم العزاء قليلة الإسعاف
خفت له العبرات وهى أبية فى حادثات الدهر غير خفاف
ولكل ما أتلفت من مستكرم إلا مـــودات الرجال تلافى
ما أنت يا دنيا أرؤيا نائم أم ليل عرس أم بساط سلاف
نعماؤك الريحـــان إلا أنه مست حواشيه نقيع زعاف

وألقى الأستاذ محمود غنيم قصيدة جيدة فى ذكرى محمد فريد ، ومن أبياتها :

بالله فتش بين أطباق الثرى وانظر هنالك صارما مغمودا
صاغته مصر فلم تصغه معدنا بل كان من أهرامها مقدودا
وابحث هنالك عن خطيب طالما رفع النداء فأسمع الجلمودا
الهاتف الصداح باسم بلاده يطوى به بحراً ويقطع بيدا
نشر القضية وهى سر غامض حتى أحس لها الوجود وجودا
والحرب قائمة على سيقانها يجرى الصعيد بها دماً وحديدا

(و) الشعر القصصى : ونقصد به شعر القصة سواء أكانت تاريخية واقعية ، أم من صنع الخيال . وقد نضج هذا الفن الشعرى فى العصر الحديث نضجاً لا بأس به ، ونظم منه شوقى قصيدته الرائعة الطويلة « كبار الحوادث فى وادى النيل » أجمل فيها تاريخ مصر قديمه وحديثه . ونظم حافظ إبراهيم « العمرية » فى تاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ونظم محمد عبد المطلب « العلوية » فى تاريخ على بن أبى طالب رضى الله عنه . ونظم أحمد محرم ملحمته فى تاريخ الرسول عليه السلام ، وهى من نوع آخر غير المديح النبوى .

ومن عمرية حافظ قوله يذكر مقتل سيدنا عمر :

مولى المغيرة لا جادتك غادية ... من رحمة الله ما جادت غواديها

مزقت منه أديما حشوه همم ... فى ذمة الله عاليها وماضيها

طعنت خاصرة الفاروق منتقما ... من الحنيفة فى أعلى مجاليها

فأصبحت دولة الإسلام حائرة ... تشكو الوجيعة لما مات آسيها

ومن علوية عبد المطلب — وتقع فى نحو ثلثمائة بيت — يذكر استخلافه ليلة الهجرة :

« فلن ينسى النبى له صنيعا ... عشية ودع البيت الحراما

عشية سامه فى الله نفسا ... لغير الله تكبر أن تساما

فأرخصها فدى لأخيه لما ... تسجى فى حظيرته وناما

وأقبلت الصوارم والمنايا ... لحرب الله تنتحم انتحاما

فلم يأبه لها أنفاً على ... ولم تقلق بجفنيه مناما

(ز) الشعر التمثيلى : وهو قصصى حوارى تتحدث أبطاله بعضهم إلى البعض . وقد بينا لك أن هذا اللون طاف بأذهان شعراء العربية منذ أمد ، ورأيت كيف برز فى تمثيلية « طيف الخيال » لابن دانيال فى عصر المماليك . ولكنه لم ترج سوقه ولم تسم عباراته وتجزل أساليبه وتنوع موضوعاته إلا فى العصر الحديث . وفارسه المجلى هو أحمد شوقى . وقد سبقه رجلان هما : خليل اليازجى فى رواية « المروءة والوفاء » ، والشيخ محمد عبد المطلب فى رواية « أمرؤ القيس » ولكن شوقى شأهما سعة وتفصيلا وتنويعا . ورواياته التمثيلية أشهر من أن تعرف ومنها : مصرع كليوبترا ومجنون ليلى وعنترة وقمبيز وعلى بك الكبير ، وقد قفى على آثاره بعض الشعراء وفى مقدمتهم عزيز أباظه فنظم قيس ولبنى والعباسة وعبد الرحمن الناصر . ولكاتب هذه السطور تمثيليتان وجيزتان فى وصف الربيع .

ومن أبيات تمثيلية « مصرع كليوبترا » ما جاء فى مفتتحها . والمنظر : مكتبه قصر كليوبترا وفيها حابى وديون وليسياس جالسون إلى عملهم . فيسمعون

جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد ، يمجدون به أسد مصر وانتصاراته .

يومنا فى أكتيوما ذكره فى الأرض سار
اسألوا أسطول روما هل أذقناه الدمار

أحرز الأسطول نصرا هز أعطاف الديار
شرفا أسطول مصرا حزت غايات الفخار

صارت الإسكندرية هى فى البحر المنار
ولها تاج البرية ولها عرش البحار

فيقول حابى .

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافا بحياتى قاتليه
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ياله من ببغاء عقله فى أذنيه

فيقول ديون :

حابى سمعت كما سمعت وراعنى أن الرمية تحتفى بالرامى
هتفوا بمن شرب الطلا فى تاجهم وأصار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام .

(ح) الأغانى والأناشيد : وهى التى تعد للتغنى بها والترنم فى الاحتفالا أو فى المذياع أو نحو ذلك بمناسبة من المناسبات العامه ، وأهمها المناسبـ الوطنية ، وفيها تكثر الأناشيد الحماسية .

والأناشيد والأغانى وسيلة ناجحة لنشر العربية الفصحى — متى أردنا لها ذلك — لقربها من العامة وسرعة إقبالهم عليها وحفظهم لها وترديدهم إياها. وهى أعلق بألسنة الصغار والناشئة والفتيات فى المدارس وغيرها. وقد ازدحم ديوان الأغانى والأناشيد فى السنين الأخيرة، بمناسبة النشاط السياسى والوطنى ومكافحة الاستعمار والتمكين للسيادة الوطنية،وبرزت جلية فى حوادث فلسطين وبور سعيد الأخيرة، ولا يزال المذياع يردد كل يوم منها عدداً . ومن الأناشيد: نشيد «بنى مصرمكانكم تهيا» و«يافتاة ارفعى العلم» وكلاهما لشوقى. ونشيد «بلادى بلادى» لمحمود صادق، ونشيد «اسلمى يامصر» لمصطفى صادق الرافعى. ونشيد «مصر التى فى خاطرى وفى فمى» لأحمد رامى.

ومن نشيد مصطفى صادق الرافعى:

اسلمى يا مصر إننى الفدا   ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
أبداً لن تستكينى أبدا   إننى أرجو مع اليوم غدا
ومعى قلبى وعزمى للجهاد   ولقلبى أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة   وسلاماً يا بلادى
إن رمى الدهر سهامه   أتقيها بفؤادى
واسلمى فى كل حين

(ط) وهناك أغراض كثيرة لا مجال فى هذه الوجازات إلى توفيتها حقها من الحديث والتمثيل ومنها: الشكوى والعتاب والتهانى والغزل والحكمة والمثل والحماسة والفخر والهجاء، ووصف الخمر، وغير ذلك. ونكتفى بما مر.

ألفاظ الشعر وأساليبه

من النماذج التى سجلناها فى أغراض الشعر يتبين لنا خصائص الشعر الحديث فى ألفاظه وأساليبه، ونحن نجملها فيما يلى:

١ — أن عبارة الشعر فى أول هذا العصر كانت سهلة ممعنة فى السهولة،

حتى بعدت عن الجزالة والروعة بعداً كبيراً . وبها لوثة من العامية ، وغشاوة من التعقيد ، وطوفة من البديع .

٢ — ولما اشتغل الناس بالترجمة فالعلم فالأدب ، وطبعت دواوين الشعراء الأقدمين ، وكتب الأدب القديم وقرأ الناس أساليبها ، كان لذلك أثره فى عبارات الشعراء، فقويت واتجهت نحو الجزالة وبقى لها بعض البديع .

٣ — وحينئذ ظهر البارودى وكان يحفظ كثيراً من الشعر القديم ، كما كان يؤثر اللفظ على المعنى ، وله ذوق فى تخير الألفاظ القرية الجرس ، فأشرقت ديباجته وأحكم نسجها ، وساق فيها ألواناً من البديع متأثراً فى ذلك بأساليب بشار ومسلم بن الوليد وغيرهما من شعراء البديع ، ولكنه لم يتكلفها ، بل صقلها بذوقه فجاءت مقبولة فى جملتها .

٤ — ثم تجددت ديباجة الشعر بظهور حفنى ناصف ومحمد عبد المطلب وهما لغويان ، وكان ثانيهما شديد التعصب للشعر القديم وتراكيبه الفحلة المأثورة ، فانطبع على غراره . وأخذ الشعراء يتجافون عن البديع مع التأنق فى تخير ألفاظ الشعر واجتباء أساليبه وصقل عباراته وعرضها على الأذواق والأسماع للصقل . واشتهر حافظ إبراهيم بأنه كان يتغنى بشعره قبل إنشاده فى الحفل المعدله ، ويعرضه بذلك على إخوانه ويتلقى نقداتهم عليه. وعنى شوقى عناية كبرى بتراكيب شعره وعباراته التى تتجلى فيها الوجازة واكتنار المعانى ولطف الإشارات . وكان إسماعيل صبرى جانحا نحو السهولة الممتنعة مع قليل من البديع الذى لاتتجافى عنه الأسماع . أما العقاد فلعله أبرزهم فى إيثار المعنى على اللفظ ، ولذلك كثرت المعانى الجديدة فى شعره ، ولم يشرق لفظه إشرافاً كاملا .

وهكذا أخذ كل شاعر يبرز « شخصيته » ويجلى « خصائصه » فى أسلوبه . فاختلفوا فى ذلك واتجهوا اتجاهات شتى كما رأيت ، وذلك لاختلاف المؤثرات البيئية التى كان لها دخل فى تكوين هذه الخصائص .

٥ — وبعد أن خلا ميدان الشعر من فحوله وجياده السابقة إلا قليلا ، أخذت ناشئة الشباب تميل ميلا واضحا نحو شعبية الأسلوب ، بمعنى أنهم يجنحون

نحو السهل الذى يؤدى المعنى ، ولو كان مبتذلا بكثرة استعماله عند العامة ، ونوعوا فى القافية واعتقادنا أنهم يفعلون ذلك لضعف ثقافتهم وقلة محصولهم من الأدب العربى ، وأنهم سيتجهون نحو الجزالة وسمو العبارة والقافية الواحدة فى مستقبلهم .

٦ — ومما يؤخذ على بعض الشعراء إدخال بعض الكلمات الدخيلة أو العامية فى شعره . ومنه قول شوقى :

هو فى الملك بدره المتجلى حف بالهالتين من برلمانه

وقول حافظ :

تلقاه فى الجد كما تبتغى وتارة تلقاه فى الهلس
سركيس إن راقك ما قلته فى معرض الهزل فقل مرسى

٧ — ومنه أيضاً وقوعهم فى الأخطاء اللغوية أو النحوية أو شبهها تحت ضغط الوزن أو الضرورة الشعرية ، ومنه قول حافظ :

أيها الرافلون فى حلل الوشى يجرون للذيول افتخارا

٨ — ومنه أيضاً استخدام الألفاظ والأساليب القديمة ذات المعانى البدوية ، التى هجرها حتى شعراء العباسيين ، ومن ذلك قول شوقى فى استقبال أم الخديو عباس :

وقفى الهودج فينا ساعة نقتبس من نور أم المحسنين
واتركى فضل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الأمين

ومنه قول عبد المطلب :

وما عاقنى حتى تأخرت عنهم بطاء ركابى أو عياء جمالى

معانى الشعر وأخيلته

من الغمط لشعرائنا أن نقول إنهم لم يجددوا إلا فى الأغراض دون المعانى ، ولم يبتكروا الأخيلة أو يبتدعوا التصورات — وحقاً إنهم استعاروا كثيراً جداً من معانى الأقدمين ، فلا يزال : السحاب يبكى ، والبرق يضحك وطيف الحبيب بخيل ، والعيون كالنرجس ، والكريم كالبحر وهلم جرا . ولكن فى الحق أن من شعرائنا المجدد المبتكر أيضاً ، والذى لم يسبقه فى تجديده شاعر آخر ، مع وضوح معانيه وترتيبها ودقة تصويرها وحسن عرضها . وتلك إحدى ضرورات العصر الحاضر الزاخر بضروب المعانى الجديدة التى لا قبل للشاعر بدفعها عن ذهنه وإحساسه . فهذه طيارات العصر ونفاثاته ، وقطره وبواخره ، وبرقه ومسرته ومذياعه ، بل هذه صواريخه وأقماره الصناعية أخيراً . . .

وتلك الحياة الحضارية التى نقتبسها عن الأوربيين فى شتى مرافقنا ، وهى جديدة فى معانيها ، وتلك الاتجاهات السياسية والاجتماعية المليئة بالآمال والمبادىء . لا شك أن شعراءنا تأثروا بكل أولئك وقبسوا منه والتمسوا فيه الخيال الجديد . ولا نبالغ إذا قلنا أن بعضهم حام فى بعض قصائده حول معان ما كان لها أن تخطر فى نفوس القدامى . ويتجلى لك ذلك فى وصف أبى الهول ، وفى وصف مملكة النحل لشوقى ، وفى وصف المعلم لمحمد عبد المطلب ، ووصف الحريق لحافظ ، ووصف المرأة أو تمثال الجمال لإسماعيل صبرى .

ومن تصويرات شوقى البارعة قوله فى مطلع رثائه لسعد زغلول :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها
ليتنى فى الركب لما أفلت يوشع همت فنادى فثناها

ويقول فى تصوير الجهل الخادع :

والجهل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا

ويقول إسماعيل صبرى مصوراً خيانة الصديق والعفو عنه :

إذا خانني خل قديم وعقني   وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه   فكسر سهمى وانثنيت ولم أرم

ويقول شوقى فى رثاء المنفلوطى وقد مات يوم محاولة اغتيال سعد زغلول، فترى الشاعر يصور الوفاة وظروف الحادث وأثره بالبلاد ، ثم ينتزع منها الحكمة جديدة رائعة ، قال :

اخترت يوم الهول يوم وداع   ونعاك فى عصف الرياح الناعى
من مات فى فزع القيامة لم يجد   قدما تشيع أو حفاوة ساع

وزار العقاد بلاد السودان فصورهم بقوله :

لا يقيم الظل فى أرضهم   وهم ظل عليها قائم

ومع دقة التصوير فى هذا البيت ترى تورية رائعة فى شطره الثانى .

وغير ذلك كثير .

ملحوظة : قد أوردنا فى سياق الحديث عن الشعر أكثر أسماء الشعراء اللامعين من أول العصر إلى اليوم، ونوهنا بجهود كثير منهم . وبذلك نكتفى ، والله أعلم ؟

فهرس